إسحق ويعقوب ويوسف
وأيوب وشعيب عليهم السلام

هل كان إخناتون نبيا؟



الجزء الثالث

(إعادة طبع)

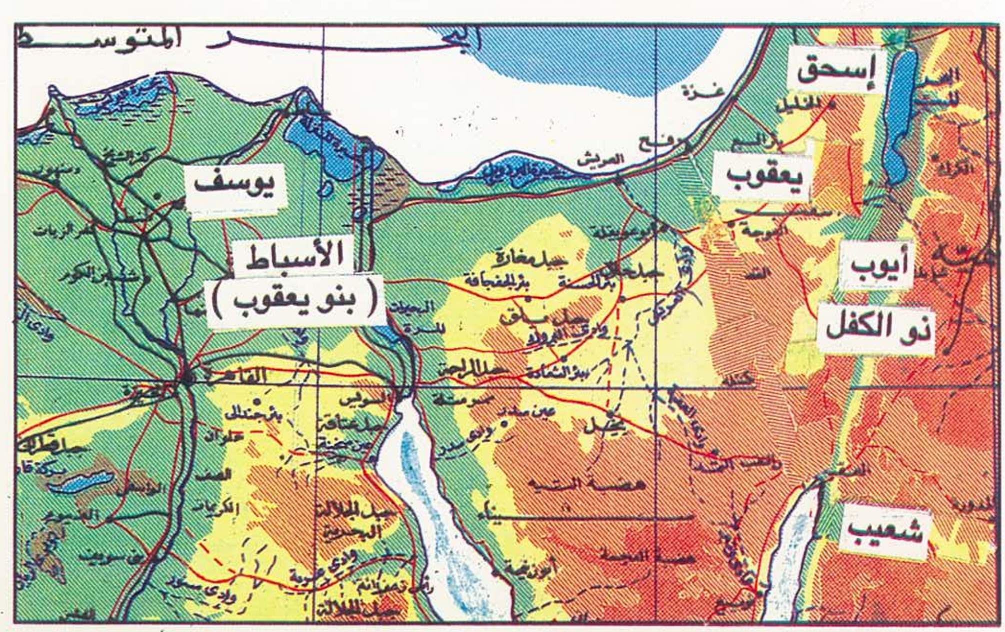
مقدمه فضيلة

الشيخ محمد الغزالى

تأليف دكتور

رشدى البدراوى

الاستاذ بجامعة القاهرة



قصص الأنبياء والتاريخ



قصص الأنبياء والتاريخ

تأليف دكتور

رشدى البدراوى

الاستاذ بجامعة القاهرة

الجزء الثالث :

إسحق . يعقوب . يوسف

أيوب . ذو الكفل . شعيب

عليهم السلام

قصص الأنبياء والتاريخ – الجزء الثالث

د . رشــدى البـدراوى

الطبعة الثانية : ديسمبر ٢٠٠٩

رقم الإيداع ٩٠٤٧/٩٧

الترقيم الدولى .I.S.B.N

977-19-4905 - X

قدمه فضيلة الشيخ / محمد الغزالى

مكتبة ومطبعة المجلد العربى

١١٦ ش جوهر القائد امام جامعة الأزهر بالحسين - القاهرة ت: ٢٥٩١١٦١٤ فاكس : ٢٥٨٩٢١٢١

المطبعة: ٧٩ ش سبيل الخازندار - العباسية - ت: ٢٦٨٢٢٢٥٨ - ٢٦٨٢٢١٥٩ - ٢٦٨٢٢٢٢٦

تنويـــــه

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الجزء - أيضا - تكملة لما سبق من أجزاء - ولذلك جعل ترقيم الصفحات تاليا لآخر صفحة فى الجزء الثانى.

وأرجو من الله العون والتوفيق

حتى تستكمل الأجزاء الباقية.

أغسطس ١٩٩٧ المؤلف

محتويات الجزء الثالث

إسحق ويعقوب عليهما السلام

البشارة بمولد إسحق :

سبق أن ذكرنا فى الجزء الثانى ص ٣١٨ أن الملائكة - رسل الله - جاءت إلى إبراهيم عليه السلام بالبشرى

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى » . (٦٩ - هود)

« وامرأته قائمة فضحكت . فبشرناها بإسحق . ومن وراء إسحق يعقوب . قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا . إن هذا لشيئ عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله . رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت . إنه حميد مجيد » . (٧١ - ٧٣ هود)

ولما جاءت الملائكة - إلى إبراهيم - ورآهم لا يأكلون خاف منهم ووجل .

« قالوا لا تخف . وبشروه بغلام عليم » . (٢٨ - الذاريات)

« قالوا لا توجل . إنا نبشرك بغلام عليم » . (٥٣ - الحجر)

« وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين » . (١١٢ - الصافات)

ولادة إسحق وتسميته :

وسبق أن ذكرنا أيضا فى الجزء الثانى ص ٣٤٢ ولادة إسحق وذكرنا الأقوال التى قيلت فى سبب تسميته إسحق .

زواجـه :

وذكرنا كذلك فى ص ٣٨١ كيف أرسل إبراهيم عليه السلام وكيل أعماله أليعازر الدمشقى ليختار زوجة لإبنه إسحق من حاران . فاختار له رفقة ابنة بتوئيل ابن أخيه ناحور وأحضرها معه من حاران إلى حبرون حيث قابلها إسحق واتخذها زوجة له .

وتمر السنون ورفقة لا تلد . خمس سنوات . عشر سنوات !

ولادة يعقوب :

تقول التوراة - إصحاح ٢٥ تكوين :

وكان إسحق ابن أربعين سنة لما اتخذ لنفسه زوجة هى رفقة بنت بتوئيل - من فدان أرام .

وصلى إسحق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقرا . فاستجاب له الرب . فحبلت رفقة امرأته . وتزاحم الولدان فى بطنها فقالت إن كان هكذا فلماذا أنا . فمضت لتسأل الرب ، فقال لها الرب : فى بطنك أمتان . ومن أحشائك يفترق شعبان . شعب يقوى على شعب . وكبير يُستعبد لصغير.

فلما كملت أيامها لتلد . إذا فى بطنها توأمان . فخرج الأول أحمر كله كفروة شعر . فدعوا إسمه عيسو . وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو . فدعى اسمه يعقوب. وكان إسحق ابن ستين سنة لما ولدتهما .

وهذا يعنى أن رفقة ظلت عاقرا لمدة عشرين سنة . وقد ذكرنا فى الجزء الثانى ص ٣٨٦ رأينا أن فترة العقم كانت عشر سنوات فقط ليبلغ عمر سارة ١٤٠ سنة عند ولادة يعقوب ولتتحقق لها البشارة برؤيته قبل وفاتها .

« فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب » . (٧١-هود)

ولم يشر القرآن الكريم إلى عيسو - مع أنه هو الذى ولد أولا - أى أنه هو البكر - دلالة على أن يعقوب هو الذى سيكون له شأن فى المستقبل . كذلك نرى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى اختار ليعقوب اسمه - كما اختار لإسحق اسمه أيضا - وكان الله عالما بما سيكون عليه يعقوب عند ولادته . إذ ترى التوراة أنه سمى يعقوب لأنه وجد قابضا على عقب أخيه . فهو « العاقب » أو « يعقوب » .

البكورية :

الإبن البكر هو أول ما يولد من الأولاد للرجل . وبالطبع فإن له معزَّة خاصة عند والده .

وكان للبكورية فى ذلك الوقت امتيازات خاصة . منها نيابة البكر عن أبيه فى البيت عند غيابه . كذلك كان العرف فى ذلك الزمان أن الرجل - فى أخريات أيامه وعند شعوره باقتراب الأجل - يقسم ماله على أبنائه . وكان الشرع وقتذاك أن يُعطى الابن البكر نصيب اثنين من كل ما يوجد عنده . ولا يترك ذلك لهوى النفس . كان قانون حمورابى يعطى الإبن البكر نصيبا مفضلا (مادة ١٧٠) *. ثم جاءت التوراة ** فجعلت للبكر نصيب اثنين .

---

* مصر والشرق الأدنى القديم . د . نجيب ميخائيل ابراهيم . جزء ٦ ص ٧٢

** التوراه . إصحاح ٢١ تثنية .

كذلك كان الإبن البكر هو الذى يختص بالبركة على شرط أن يكون مستحقا لها وإلاَّ فتعطى لغيره . ولعله كان إتباعا لما كان فى شريعة وصحف إبراهيم عليه السلام .

فى انجلترا يسمى ذلك Birth-right . والإبن البكر هو الذى يرث جميع أملاك أبيه وألقابه مثل لقب لورد أو كونت أو غيرها .

وجاء الإسلام فساوى بين الأبناء الذكور فى الميراث . وبذلك أنهى الضغائن التى كانت تحدث عند تقسيم الميراث – وإن ظل للذكر مثل حظ الأنثيين .

نعود إلى عيسو ويعقوب ابنى إسحق عليه السلام . فإن عيسو هو الذى ولد أولا فهو البكر ولكن رفقة كما تقول التوارة * قال لها الرب وهى حامل : كبير يستعبد لصغير !! فكيف يحدث هذا ؟!

كما أن البشارة بإسحق التى جاءت فى القرآن الكريم . بشرت بيعقوب ولم تشر إلى أخيه عيسو .

« فبشرناها بإسحق . ومن وراء إسحق يعقوب » . (٧١ – هود)

وفى هذا دلالة على أن يعقوب هو الذى سيكون له شأن يذكر . أما عيسو فسيكون أقل شأنا من أخيه مع أنه هو البكر .

ولاشك أن رفقة أفضت إلى إسحق عليه السلام بما أوحى إليها وهى حامل . ولعله أخذ يفكر فى هذا الأمر – هو لايريد أن يظلم عيسو إذ لم يفعل ما يستحق بسببه أن يحرمه من البكورية والبركة . وأخيرا ترك الأمور لله يصرفها كيف يشاء .

وتقول التوراة : فكبر الغلامان . وكان عيسو إنسانا يعرف الصيد . إنسان البرية . ويعقوب إنسانا كاملا يسكن الخيام . فأحب إسحق عيسو لأنه فى فمه صيداً . وأما رفقة فكانت تحب يعقوب . وطبخ يعقوب طبيخا فأتى عيسو من الحقل وهو قد أعيا . فقال عيسو ليعقوب : أطعمنى من هذا الأحمر (قيل عدس أحمر) لأنى قد أعييت . لذلك دعى اسمه أدوم (نسبة إلى العدس الأحمر الذى اشتهاه – وقيل أيضا نسبة إلى حمرة كانت فى جلده) . فقال يعقوب : بعنى اليوم بكوريتك . فقال عيسو : ها أنا ماض إلى الموت . فلماذا لى بكورية . فقال يعقوب : إحلف لى اليوم . فحلف له . فباع بكوريته ليعقوب . فأعطى يعقوب عيسو خبزا وطبيخ عدس . فأكل وشرب وقام ومضى . فاحتقر عيسو البكورية .

---

* إصحاح ٢٥ تكوين – ٣٤ .

ينتقد بعض كتاب المسيحية * هذا المسلك من يعقوب تجاه أخيه عيسو . قائلين إن العبرة المستمدة من هذه القصة تشجع الوصولية والإنتهازية حتى بين أقرب الأقربين واستغلال حاجة الغير إلى القليل لاغتصاب حقهم . ولكن يمكن النظر إلى الأمور من زاوية أخرى . وهى أن يعقوب – وهو إلى هذه اللحظة لم يكن نبيا بعد – وفى نفس عمر عيسو – إذ أن عيسو لا يسبقه فى الميلاد إلا ببضع دقائق – فهى ليست بكورية بالمعنى الحقيقى المتعارف عليه – رأى يعقوب أن عيسو يكثر من الخروج للصيد . ولا يكون موجودا عند غياب الأب ليكون نائبا عنه كما تقتضى البكورية . وأن يعقوب هو القائم فعلاً بالنيابة عن الأب عند غيابه . فرأى أن يجعل هذا الأمر رسميا . حتى إذا أمضى أمرا أو اتفاقا فى غياب والده يكون لهذا الاتفاق حُجِّيَّة قانونية مستندة إلى حق البكورية . لذلك . فإنه لما رأى لهفة أخية على أكلة العدس عرض عليه أن يتنازل له عن البكورية . ويرى أهل الكتاب ** أن عيسو كان من صفاته عدم ضبط شهوته الطعام . وخاصة لذلك « الأحمر » وهو العدس . ولو كان عيسو قوى الإرادة لكان يكفيه كسرة خبز يقيم بها أوده ولا يتنازل عن حق البكورية بأكلة عدس .

وهناك أحاديث كثيرة عن رسولﷺ تحبذ كسر شهوة البطن والصبر على الجوع . منها:

قال رسول ﷺ : جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش . فإن الأجر فى ذلك أجر المجاهدين فى سبيل الله . وأنــه ليس مــن عمل أحب إلى الله من جوع وعطش . وقال ابن عباس : قال النبى ﷺ : لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه .

كذلك قيل*** إن شهوة البطن من أعظم المهلكات . فيها أخرج آدم وحواء من الجنة إلى الدنيا إذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها .

وهكذا كان عيسو لايملك نفسه أمام شهوة الطعام لدرجة أنه تنازل عن البكورية لقاء أكله عدس . وقالت عنه التوراه : فاحتقر عيسو البكورية – أى لم يحفظ للبكورية قدرها . ولم يتمسكْ بها . بل فَرَّط فيها . فكأنه لم يكن جديرا بها .

نقارن هذا بما كان عليه يعقوب من قوة الإرادة . فقد كان يحرِّم على نفسه أنواعا من الطعام محببة إلى نفسه – تقرُبا إلى الله (وهو ماسيجىء ثيما بعد ص ٤٢٩)

---

* صبرى جرجس – التراث اليهودى الصهيونى – القاهرة ١٩٧٠ ص ٦٧

** تفسير الكتاب المقدس . دار منشورات النفير جزء ١ ص ١٨٧

*** الامام أبو حامد الغزالى . إحياء علوم الدين . جزء ٣ ص ٧٦.

« كل الطعام كان حِلاً لبنى اسرائيل . إلاّ ما حرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تُنزَّل التوراة » . (٩٣ – آل عمران)

وقال سهيل بن عبدالله التسترى : ما عُبِدَ الله بشىء أفضل من مخالفة الهوى فى ترك الحلال .

كذلك نفهم أنه كان هناك تباين فى طباع الأخوين . فعيسو كان إنسان صيد – يهوى العيش فى البرية . كثير التنقل – يحب الوحدة – فى حين كان يعقوب إنسانا إجتماعيا . يسكن وسط الناس . وهذه صفات تؤهله لأن يكون مرشدا أو قائدا . ومن هنا كانت بشارة الرب بأنه هو الذى يسود على أخيه .

إسحق فى جرار :

ثم كان قحط فى الأرض . ومن الطبيعى حينئذ أن تتجه قوافل الأسيويين إلى وادى النيل الخصيب حيث تتوافر المياه وتكثر الحبوب . فخرج إسحق من منطقة حبرون التى كان يعيش فيها يطلب الخصب . وتقول التوراة (إصحاح ٢٦ تكوين) * : ظهر له الرب وقال : لا تنزل إلى مصر (وإذا قارنّا ذلك بمباركة الله لنزول يعقوب إلى مصر (ص ٥١٠) ندرك أن كل شيىء يتم بمشيئة الله وفى الوقت الذى يحدد) . اسكن فى الأرض التى أقول لك . تغرَّب فى هذه الأرض . فأكون معك وأباركك . لأنى لك ولنسلك أعطى هذه الأرض . التى أقسمت لأبيك إبراهيم أن تكون لنسله . فاتجه إسحق إلى جرار ونزل بها .

وسأله أهل المكان عن امرأته . فقال هى أختى لأنه خاف أن يقول امرأتى لعل أهل المكان يقتلوننى من أجل رفقة لأنها كانت حسنة المنظر . وحدث إذ طالت له الأيام هناك أن أبيمالك ملك الفلسطينيين فى جرار أشرف من الكوة ونظر وإذا إسحق يلاعب رفقة امرأته . فدعا أبيمالك إسحق وقال له إنما هى امرأتك . فكيف قلت هى أختى ؟ فقال إسحق : لأنى قلت لعلى أموت بسببها . فقال أبيمالك : ما هذا الذى صنعت بنا ؟ لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنبا . فأوصى أبيمالك جميع الشعب قائلا : الذى يمسّ هذا الرجل أو امرأته موتا يموت . وقد سبق الإشارة إلى ذلك فى الجزء الثانى ص ٢٨٧ عند مناقشتنا لما نسب لإبراهيم عليه السلام من قوله عن سارة إنها أخته .

وتستمر التوراة قائلة : وزرع إسحق فى تلك الأرض . وباركه الرب . فأصاب فى تلك السنة محصولا وافرا . قيل مائة ضعف . فقوى . وزادت ثروته وأملاكه من المواشى والغنم والعبيد . فحسده الفلسطينيون . وبدأوا فى مضايقته . فردموا الآبار التى كان يستقى منها . وهى

الآبار التى كان قد حفرها أبوه إبراهيم عليه السلام . وقال أبيمالك لإسحق . اذهب من عندنا لأنك صرت أقوى منا جدا . فمضى إسحق من مدينة جرار نفسها ونزل فى وادى جرار بعيداً عن المدينة . وأقام هناك .

ويدأ إسحق يبحث عن آبار الماء التى كانوا حفروها فى أيام أبيه إبراهيم عليه السلام وكانت قد ردمت بعد موت إبراهيم . فأعاد حفرها . وحفر بئرين نازعه فيها رعاة جرار وادعوا ملكيتها هما بئرى « عِسق » و« سطنة » .

فانتقل إلى مكان ثالث وحفر بئرا لم ينازعه فيها أحد . فقال : الآن قد أرحب لنا الرب وأثمرنا فى الأرض وسماها « رحوبوت » (شكل ٨٣) . ثم ذهب من هناك إلى بئر سبع ونصب خيمته هناك وحفر هناك بئرا . وظهر له الرب فى تلك الليلة وقال * : أنا إله إبراهيم أبيك . لا تخف لأنى معك وأباركك . فبنى مذبحا ودعا باسم الرب .

وذهب إليه من جرار أبيمالك وبعض من علية القوم . وفيكول رئيس جنده . فسألهم إسحق عن سبب قدومهم مع أنهم قد أبغضوه وطردوه من جرار . فقالوا له إنهم رأوا أن الرب كان معه . وقالوا : ليكن بيننا حلف ونقطع عهدا معك أن لا تصنع بنا شرا كما لم نمسّك وكما لم نصنع بك إلا خيرا وصرفناك بسلام . فصنع لهم ضيافة فأكلوا وشربوا . وفى اليوم التالى حلفوا لبعضهم . وانصرفوا من عند إسحق بسلام .

وحدث فى ذلك اليوم أن عبيد إسحق حفروا بئرا ووجدوا ماء . وشبعوا . فسماها «شبعة» ولكنها بالنسبة لإسحق هى « بئر الحلف » وبالعبرية «بئر سبع» فكان اسمها مطابقا للتسمية التى أطلقها عليها إبراهيم عليه السلام . وإن كان تسمية إبراهيم لها كانت بسبب النعاج السبع التى أعطاها لأبيمالك عند تحالفهما (انظر ص ٣٠٧) .

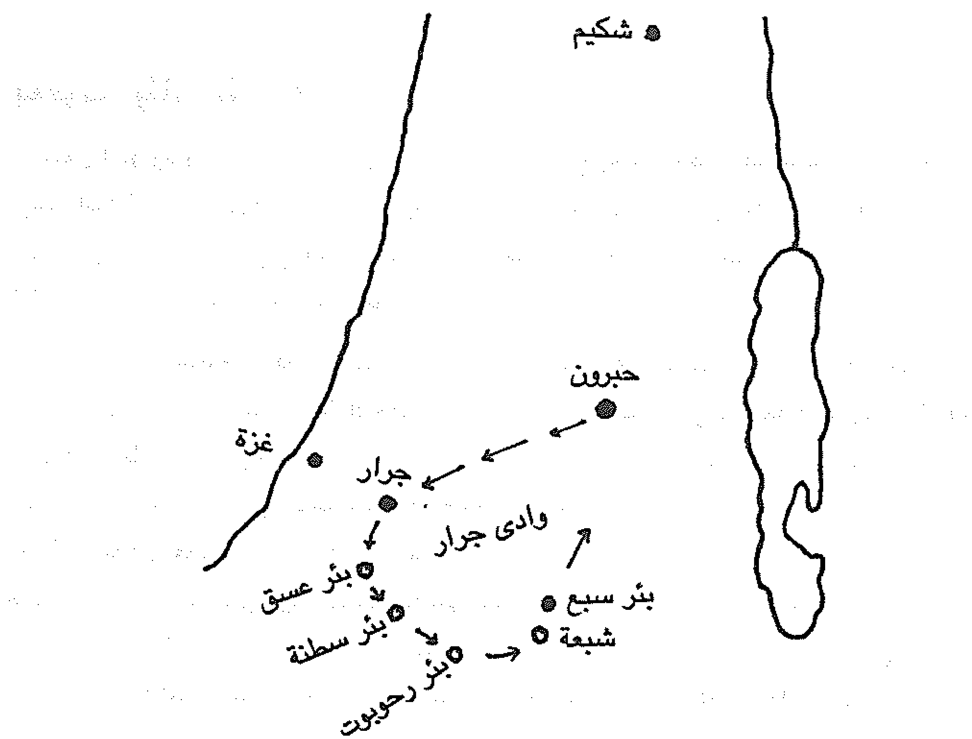
زيجات عيسو :

سبق أن ذكرنا أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يرحب بمصاهرة الكنعانيين أو أى من القبائل الساكنة إلى جواره . إذ أن الوثنة كانت متأصلة فيهم . ولعله خشى على عقيدة ابنه إسحق إن هو صاهرهم . فأرسل وكيل بيته أليعازار ليختار زوجة لإسحق من عشيرته فى حاران . فعاد ومعه رفقة بنت بتوئيل لتكون زوجة لإسحق (الجزء الثانى ص ٣٨١) .

وكذلك لم يكن إسحق يرحب بمصاهرة الكنعانيين أو غيرهم – لنفس السبب ولأن الزواج من خارج العشيرة يعتبر نكثا لطهارة النسب التى كانوا يسيرون عليها .

---

* توراة . إصحاح ٢٦ تكوين . ٢٥



شكل ٨٣ – إسحق فى وادى جرار .

لم يتبع عيسو هذه القواعد . وتقول التوارة * : ولما كان عيسو ابن أربعين سنة اتخذ زوجة: يهوديت ابنة بيرى الحثى . وبسمة بنت إيلون الحثى فكانتا مرارة نفس لإسحق ورفقة .

كانت الظروف تخدم يعقوب . فها هو عيسو بزيجتيه هاتين قد فقد عطف والديه : إسحق ورفقة .

يعقوب ينال البركة :

تقول التوارة (إصحاح ٢٧ تكوين) : وحدث لما شاخ إسحق وكلّت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له : يا ابنى ، إنى قد شخت ولست أعرف يوم وفاتى . والآن خذ عدتك وجعبتك وقوسك واخرج إلى البرية . وتصيد لى صيدا . واصنع لى أطعمة كما أحب واتنى بها لآكل حتى تباركك نفسى قبل أن أموت .

وكانت رفقة سامعة . فذهب عيسو إلى البرية . وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة : إنى قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلا : إئتنى بصيد واصنع لى أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتى . فالآن يا ابنى اسمع لقولى فى ما أنا آمرك به . إذهب إلى الغنم وخذ لى من هناك جديين من المعزى . فأصنعها أطعمة لأبيك كما يحب فتحضرها لأبيك ليأكل حتى يباركك. فقال يعقوب لرفقة . هو ذا عيسو أخى رجل أشعر وأنا أملس . ربما يجسنى أبى فأكون فى عينيه كمتهاون وأجلب على نفسى لعنة لا بركة . فقالت له أمه : لعنتك علىَّ يا ابنى . اسمع لقولى . فذهب وأحضر لأمه فصنعت له أطعمة كما كان أبوه يحب . وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التى كانت عندها . وألبست ابنها يعقوب . وألبست يديه وملاسة عنقه جلود جديى المعزى وأعطته الأطعمة والخبز التى صنعت .

فدخل إلى أبيه وقال : يا أبى . فقال هأنذا . من أنت يا ابنى . فقال يعقوب لأبيه . أنا عيسو بكرك . قد فعلت كما كلمتنى . قم واجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك . فقال إسحق لابنه : ما هذا الذى أسرعت لتجد يا ابنى ؟ فقال : إن الرب إلهك قد يسر لى . فقال إسحق : تقدم لأجسّك يا ابنى . أأنت هو عيسو ابنى أم لا . فتقدم يعقوب إلى إسحق فجسّه وقال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو . ولم يعرفه لأنه يديه كانتا مشعرتين كيدى أخيه عيسو . فباركه . وقال هل أنت هو عيسو ابنى . فقال أنا هو فقال له : قدّم لى لآكل من صيد ابنى حتى تباركك نفسى . فقدم له فأكل . واحضر له خمراً فشرب . وقال له إسحق تقدم يا ابنى . وشم إسحق رائحة ثيابه وباركه وقال : أنظر رائحة ابنى كرائحة حقل قد باركه

* توراة : إصحاح ٢٦ تكوين ٣٣ .

الرب . فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض . وكثرة حنطة وخمر . ليستعبد لك شعوب . وتسجد لك قبائل . كن سيدا لإخوتك . وليسجد لك بنو أمك . ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين . وفرغ إسحق من مباركة يعقوب . وانصرف يعقوب .

وحدث أن عيسو أتى بصيده وصنع طعاما كما أمره أبوه . ودخل به إليه . فقال له إسحق من أنت ؟ فقال : أنا ابنك بكرك عيسو . فارتعد إسحق وقال : فمن هو الذى اصطاد صيداً وأتى به إليَّ فأكلت وباركته ؟. فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومُرَّة جدا وقال لأبيه : باركني أنا أيضا يا أبى . فقال : قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك . فقال : ألا إن اسمه دُعى يعقوب . فقد تعقبنى الآن مرتين . أخذ بكوريتى . وهو ذا الآن قد أخذ بركتى . ثم قال : أما أبقيت لى بركة ؟ فقال إسحق لعيسو : إنى قد جعلته سيدا لك . ودفعت إليه جميع إخوته عبيدا . ورفع عيسو صوته وبكى . وقال له إسحق : هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك . وبلا ندى السماء من فوق . وبسيفك تعيش . ولأخيك تُستعبد . ولكن حين تجمح أنك تكسر نيره عن عنقك .

فحقد عيسو على يعقوب من أجل البركة التى باركه أبوه . وتوعَّد يعقوب بالقتل . وكان يتكلم بصوت خفيض . ولكن رفقة سمعته . فأرسلت ودعت يعقوب وأخبرته أن عيسو ينوى قتله. وقالت له : قم . واهرب إلى أخى لابان فى حاران . وأقم عنده حتى يهدأ غضب أخيك عنك وينسى ما صنعت به . ودعا إسحق يعقوب وباركه . وأوصاه وقال له : لا تأخذ زوجة من بنات كنعان . وأمره أن يذهب إلى حاران ويتخذ زوجة من بنات خاله لابان . وانصرف يعقوب ذاهبا إلى فدان أرام .

وقد اعترض كثير من الكتَّاب على الكيفية التى أخذ بها يعقوب البركة من والده إسحق كما روتها التوارة . فيقول الدكتور محمد بيومى مهران * : إنها تبين أنانية يعقوب : إزاء أخيه عيسو . ومدى انخداع إسحق . وإصراره على حرمان عيسو وتضليل يعقوب عليه . حتى بعد ان عرف بخديعة يعقوب له . فضلا عن استخدام يعقوب لإسم الله زورا فى قوله إن الله إلهك يسَّر لى . كما اعترض على هذه القصة العلاَّمة ابن حزم وقال إن هذا الاصحاح فيه أكذوبات كثيرة . منها إطلاقهم على نبى الله يعقوب أنه خدع أباه وغشه .

كما يرى الأستاذ رؤوف أبو سعدة ** أن هذه القصة فيها نسبة الخطيئة والغش لنبى الله يعقوب ونسبة الغفلة لنبى الله إسحق . وأنه بدلا من مواساة عيسو فإن إسحق عليه السلام

* دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم – ١٩٧٩ –إسرائيل ص ١٩٠

** من إعجاز القرآن . جزء أول . ص ٢٩٦ .

يجيبه بكلمات – تقارب أن تكون لعنات – قائلا : هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك . وبلا ندى السماء من فوق . وبسيفك تعيش . ولأخيك تستعبد .

بل إن بعض الكتب المسحية * يضعون عنوانا : يعقوب يحصل على بركة أبيه بالخداع . ويقولون إن خداع يعقوب كان ينقصه الذكاء لأنه قال : إن الرب إلهك قد يسر لى . وقالوا إن عيسو لم يكن ينطق هكذا بعبارات التقوى . وكُتّاب آخرون وصفوا ما قالته التوارة عن كيفية أخذ يعقوب للبركة من والده : أنها تمت بطريق المكر والخداع .

والواجب أن لا نخطىء فى حق نبى الله يعقوب – ولو اعتماداً على ما جاء فى توراتهم . فنحن أعلم الناس بتحريفهم لها كما أوضحنا فى الجزء الأول (ص ٣) . وأنهم حينما أعادوا كتابة التوارة أثناء السبى ضمنوها أشياء لم تكن فى التوراة الأصلية . ووضعوا تفسيرات لأشياء حدثت . فكانت التفسيرات مخالفة لحقيقة الأمور . والأليق بمقام النبوة الذى كان عليه إسحق ألا ننسب إليه الانخداع . والأليق أيضا بمقام النبوة الذى سيصير إليه يعقوب أن لا ننسب إليه مكراً . وعلى ذلك يمكننا أن نضع تصوُّرا لما حدث كالتالى :

إن أسحق عليه السلام قد علم بما حدث من أن عيسو باع بكوريته ليعقوب نظير أكلة عدس. فأدرك أن عيسو ليس هو الشخص الجدير بالنبوة من بعده . إذ هو لا يستطيع كبح جماح نفسه ولا التحكم فى شهواته . إذ أن شهوته للطعام غلبته فجعلته يتنازل عن البكورية . فهو ليس بقادر على تحمل مسئوليات النبوة وتبعاتها . فضلا عن أن عيسو كان إنسان البرية – يحب الصيد ولا يميل إلى السكنى فى المدن . فرأى إسحق عليه السلام بثاقب بصره أن يعقوب هو الشخص الطموح . المحب للريادة المؤهل للقيادة . يألف المجتمعات والناس . فهو الأنسب لتولى الأمر من بعده . فأراد أن يباركه أيضا – ولكنه رأى أن لا يزيد حزن عيسو فيما لو تم ذلك فى حضوره وعلى مرأى منه . فرأى أن يصرفه إلى البرية فطلب منه أن يأتى له بصيد . ولكن كاتبى التوراة صوَّروا الأمر على أنه مكر وتحايل من يعقوب . وما كان إسحق عليه السلام من الغفلة بحيث يخفى عليه الفرق بين كثافة شعر عيسو وجلد الجدى – وخاصة أنه أدرك أن الصوت هو صوت يعقوب . فالقصة كما أوردتها التوراة ، غير مقبولة وأغلب الظن أن إسحق عليه السلام قد أُوحى إليه أن يجعل البركة من نصيب يعقوب بعد أن تنازل عيسو عن البكورية . بل إن ذلك الأمر كان مقضيا فيه من قِبل الله عز وجل حتى قبل أن يولد عيسو ويعقوب بل ومن قبل أن يولد إسحق نفسه . إذ كانت البشارة به متضمنة اسم يعقوب .

** تفسير الكتاب المقدس جزء ١ ص ١٨٩ .

« فبشرناها بإسحق . ومن وراء إسحق يعقوب » . (٧١ - هود)

فتفضيل يعقوب واختصاصه بالبركة ومن ثَمَّ بالنبوَّة . كل ذلك كان بإيحاء من الله تعالى :

« الله أعلم حيث يجعل رسالته » . (من الآية ١٢٤ - الأنعام)

عيسو يتزوج بنت إسماعيل عليه السلام :

سمع عيسو أباه وهو يوصي يعقوب أن لا يتزوج من بنات الكنعانيين . فعلم أن أباه وأمه لم يكونا راضيين عن زيجتيه . ورأى أن أخاه يعقوب قد ذهب إلى حاران ليتزوج إحدى بنات خاله لابان . فقرر عيسو أن يذهب إلى مكة ويخطب ابنة عمه إسماعيل . وأخبر أباه بذلك فانشرح صدر إسحق لما سمع ذلك . وخرج عيسو وانطلق إلى مكة . وقابل عمه إسماعيل الذى رحب به وزوَّجة ابنته . وعادت معه إلى حبرون .

وتجدر الإشارة إلى اضطراب كاتبى التوراة فى تحديد أسماء زوجات عيسو . ففى إصحاح ٢٦ تكوين فقرة ٣٤ ذكروا إسم زوجتى عيسو

- يهوديت ابنة بيرى الحثى .
- وبسمة بنت إيلون الحثى .

وفى الإصحاح ٢٨ تكوين فقرة ٩ - ذكروا اسم ابنة إسماعيل هكذا : فذهب عيسو وأخذ محلة بنت إسماعيل بن إبراهيم أخت نبايوت زوجة له على نسائه .

وفى الإصحاح ٣٦ تكوين جاء قولهم : أخذ عيسو نساءه .

١ - عدا بنت إيلون الحثى .
٢ - أهو ليبامة بنت عنى بن سعير الحورى .
٣ - بسمة بنت إساعيل أخت نبايوت .

وعن إبنة إسماعيل كان علينا ان نختار بين اسم محلة الوارد فى الاصحاح ٢٨ وبين اسم بسمة الوارد فى الاصحاح ٣٦ .

وبالرجوع الى قاموس الكتاب المقدس (صفحة ٨٤٣) نجده يقول : محلة . اسم عبرى معناه « مرض » وهو اسم إحدى بنات صلفحاد من عشائر منسَّى بن يوسف . ولم يذكر أنها إحدى زوجات عيسو . فى حين أنه فى ص ١٧٣ ذكر : بسمة : اسم عبرى معناه « عطرة » وهى إحدى نساء عيسو .

وإسم محلة فى العربية يطلق على الأرض الجدباء لانقطاع المطر (المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٨٦٣ - والقاموس المحيط جـ ٤ ص ٤٩) . ومن المستعبد أن يطلق إسماعيل عليه السلام اسما معناه الجدباء على ابنته الوحيدة التى رزق بها بعد أن أنجب اثنى عشر ولداً من الذكور. فلابد أنه إذ رزق بالبنت على كبر - كانت بسمة له وسماها بسمة أى عطرة .

ذهاب يعقوب إلى حاران :

خرج يعقوب من بئر سبع خوفا من أن يقتله عيسو . وكذلك تنفيذا لرغبة أبيه إسحق بالذهاب إلى حاران ليتزوج من إحدى بنات خاله لابان . فخرج يعقوب وسار قاصدا حاران . مرَّ ببلدة حبرون وتجاوزها . ثم أتى إلى مكان اسمه « **لوز** » وأدركه المساء . فأخذ حجراً ووضعه تحت رأسه ونام . فرأى فى نومه معراجا منصوبا من السماء إلى الأرض . وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون . كأنه سلم منصوبة على الأرض ورأسها فى السماء .

وتقول التوراة * ما ملخصة أن يعقوب استيقظ من نومه وقال : ما أرهب هذا المكان . ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء . وبكرً يعقوب فى الصباح وأخذ الحجر الذى وضعه تحت رأسه وأقامه عاموداً . وصب زيتا على رأسه حتى يتعرف عليه فيما بعد . ونذر لئن رجع إلى أهله سالما ليبنينَّ فى هذا الموضوع معبدا لله . وأن جميع ما يرزقه من شىء يكون لله عشره . ودعا ذلك الموضع **بيت إيل** أى بيت الله . وكان اسمه من قبل لوز .

واستمر يعقوب فى سيره وعبر نهر الأردن . ثم واصل سيره إلى دمشق ثم إلى حلب - ثم حاران (شكل ٨٤) . وفى حاران ** وجد رعاة مجتمعين حول البئر التى يستقون منها وينتظرون حتى يتكاثر عددهم ليستطيعوا رفع الحجر عن فم البئر ليستقوا ويسقوا مواشيهم . فدحرج لهم يعقوب الحجر فاستقوا . وسألهم إن كانوا يعرفون لابان . فأجابوا بأنهم يعرفونه . وأشاروا إلى إبنته - راحيل - وكانت بين الفتيات اللائى جئن يستقين من البئر . فتقدم وسقى لها وسقى غنم خاله لابان . وعرَّفها بنفسه . فاصطحبته لوالدها . ورحب لابان بيعقوب لما عرف أنه ابن اخته رفقة . وأنزله فى بيته.

وكان لـ « لابان » ابنتان : « ليئة » هى الكبرى ولم تكن حسنة المنظر . و «راحيل »

---

* التوراة - إصحاح ٢٨ تكوين .

** البداية والنهاية - ابن كثير - جزء ١ ص ١٨٢ .

شكل ٨٤ – رحلة يعقوب من بئر سبع إلى حاران.

الصغرى وهى الأجمل . وكلمَّ يعقوب خاله لابان برغبته فى الزواج من راحيل . فوافق لابان نظير أن يخدمه يعقوب – مقابل مهرها – سبع سنوات وتم الاتفاق على ذلك .

وبعد مرور سبع سنوات جمع لابان جميع أهل المكان وصنع وليمة . ثم فى المساء أخذ ليئة إلى خيمة يعقوب فدخل بها وهو يظنها راحيل . وفى الصباح اكتشف أنها ليست راحيل بل ليئة وراح يعاتب خاله . فاعتذر له لابان بأن التقاليد تمنع زواج الصغرى قبل الكبرى . وطلب منه أن يكمل أسبوع ليئة وبعده يعطيه راحيل زوجة له أيضا – وكان شرعهم وقتذاك لا يمنع الجمع بين الأختين . وطلب منه لابان أن يخدمه سبع سنوات أخرى بمهر راحيل . ولما مر أسبوع تزوج يعقوب راحيل أيضا . وكان خاله لابان قد أهدى ليئة جارية اسمها زلفة وأعطى راحيل جارية اسمها بلهة . وخدم يعقوب خاله سبع سنين أخرى .

وجبر الله ضعف ليئة (ليا) وقلة جمالها . فوهب لها أولادا . فكانت أن ولدت أربعة أولاد هم : رأوبين و شمعون و لاوى و يهوذا . فغارت راحيل ووهبت ليعقوب جاريتها بلهة فولدت له دانا ونفتالى . وقد سبق أن ذكرنا (ص٢٩٢) أن السيدة إذا لم تنجب وهبت جاريتها لزوجها لينجب منها وكانت تعتبر أولاد الجارية كأنهم أولادها هى . ولما رأت ليئة أنها توقفت عن الولادة وهبت ليعقوب جاريتها زلفة فولدت له جاد وأشير .

ثم حملت ليئة وولدت له ثلاثة أخرين هم : يساكر وزبولون وابنة اسمها دينا.

ثم إن راحيل دعت الله أن يهبها من يعقوب الولد . فسمع الله دعاءها وحملت وولدت له غلاما جميلا فى غاية الجمال سمته يوسف .

كل هذا وهم مقيمون فى أرض حاران .

كان يعقوب قد أمضى ٧ سنوات قبل زواجه فإذا فرضنا أنه كان يرزق كل عام بولد . فهذه ١٢ سنة . أى أنه مضت على يعقوب منذ قدومه إلى حاران عشرون سنة تقريبا .

طلب يعقوب من خاله لابان أن يُسَرِّحه ليعود إلى أهله وبلده. فقال له خاله : إنى قد بورك لى بسببك فسلنى ما شئت. فقال يعقوب : تعطينى كل ما يولد فى هذه السنة ويكون أرقط ورقطاء من الغنم (ما فيه بقع من لون آخر وغالبا ما يكون مؤلفا من بياض وسواد أو من حمرة وصفرة) . ومن المعزى كل أبلق وبلقاء (أبيض به بقع سوداء أو العكس) فوافق لابان .

وعمد لابان إلى حيلة حتى لا يأخذ يعقوب كثيرا من الغنم – فقد فرز الغنم وعزل منها ما كان على هذه الصفات من التيوس حتى لا يولد شيىء من الحملان على هذه الصفات فى ذلك العام . وسلم لابان التيوس التى فرزها إلى بنيه وجعل مسيرة ثلاثة أيام بينه وبين يعقوب . ثم سلموا بقية القطعان ليدى يعقوب .

جدول بأسماء أولاد يعقوب

اسم الزوجـة	الاسم فى التوارة	الاسم العربى (ابن كثير)
من ليئـة	رأوبـين شمعون لاوى يهـوذا	روبيل شمعون لاوى يهوذا
من بلهة (جارية راحيل)	دانـا نفتالى	دنـا نيفتالـى
من زلفة (جارية ليئة)	جـادا أشير	جـاد أشيـر
من ليئة	دينة يساكر زبولون	دنـا إيساخر رابلـون
من راحيل	يوسف بنيامين (فى طريق العودة)	يوسف بنيامين

وفطن يعقوب إلى ما فعل خاله . فقابل حيلته بحيلة تلغى أثرها . إذ عمد إلى قضبان رطبة خضراء من شجر اللوز ودلب (نوع من الشجر ينمو فى الجبال ويشبه شجر الجميز) وقشر فيها خطوطا فظهر بياض القضبان من تحت القشرة. ونصبها فى مساقى الغنم من المياه حيث كانت الغنم تجىء لتشرب . لتتوحم عليها . ونجحت الحيلة وولدت الغنم حملانا مخططة ومرقطة وبلقاء . يرى أهل الكتاب * أن تصرف يعقوب يدل على خبرة فى تربية الماشية والأغنام –

* تفسير الكتاب المقدس . جـ ١ ص ١٩٣ .

كما يرون أن هذه الحيلة كانت وحيا ليعقوب فى حلم . تعويضا له عن استغلال لابان له كل هذه السنوات الطوال .

كما أن يعقوب وضع أيضا هذه القضبان أمام عيون الغنم القوية فى الأجران لتتوحم عليها. فكانت الحملان المخططة قوية . وتكاثرت بسرعة . وفى نهاية العام كانت الغنم المخططة والمنقطة هى الأغلبية – وهى من نصيب يعقوب.

غضب بنو لابان وتغير وجه لابان من ناحية يعقوب . ولكنهم كظموا غيظهم . وأوحى الله إلى يعقوب أن يعود إلى أرض آبائه وعشيرته . فعرض ذلك على أهله. فأجابوه إلى ما طلب . ولم يشأ أن يخبر خاله عن رحيله خوفا من أن يأخذ أولاد خاله الغنم منه لكثرتها خلافا لاتفاقهم . وشرح ما حدث لزوجتيه فأيدتاه فى موقفه من والدهما . وبيَّنتا له أن لهما نصيباً فى ثروة والدهما وكان الواجب عليه أن يعطيهما نصيبهما هذا أيضاً . وأرادت راحيل أن تغيظ والدها جزاء على ما فعل فسرقت الصنم الذى يتعبد له .

وسار يعقوب وزوجتاه وأولاده والعبيد والجوارى وغنمه وكل ماله . وبعد ثلاثة أيام أدرك لابان أن يعقوب قد تركه . فسار وراءه حتى أدركه بعد سبعة أيام فى جبل جلعاد Gilead . وقابل لابان يعقوب وعاتبه على خروجه بغير علمه قائلا له : لماذا هربت خفية ولم تخبرنى حتى أشيعك بالفرح والأغانى بالدف والعود ولم تدعنى أقبل بناتى . وسأله لماذ سرقت آلهتى ؟

ولم يكن يعقوب يدرى شيئا عن الأصنام . فأنكر أن يكونوا أخذوها . وسمح له بأن يفتش عنها فى الخباء كله . فدخل بيوت بناته وإمائهن يفتش فلم يجد شيئا . وكانت راحيل قد خبأت الأصنام فى بردعة الجمل وهى تحتها. ولم تقم واعتذرت بأنها حائض . ولم يجد لابان الأصنام. وعاتب يعقوب لابان على أنه خدمه عشرين عاما . ولولا لطف الله به لكان قد أخرجه فارغاً وهو الذى تعب بالليل والنهار وفى الحر والبرد حتى صار للابان هذه الثروة العظيمة . وكان لابد أن يكون له فيها نصيب لأنه هو الذى جعلها تنمو . وبورك فيها بسببه .

وأخذ يعقوب حجرا وأقامة عاموداً وسموا المكان من ناحية لابان **«يجر سهدوثا »** ومن ناحية يعقوب **« جلعيد »** وهما كلمتان عبريتان معناهما **«رجمة الشهادة »** أى صخرة الشهادة . وأكلوا وتعاهدوا وشهدوا على أن يكون العامود حدا فاصلا بينهم فلا يتجاوزه يعقوب ولا لابان أو أتباعهما كل إلى ناحية الآخر(شكل ٨٥) . وتعهد يعقوب كذلك أن يحسن معاملة بنات لابان ولا يذلهم . وشهدوا على ذلك. ورجع لابان إلى حاران .

سار يعقوب جنوبا . ولما اقترب من نهر يبوق لاقته الملائكة يحيونه ودعا اسم ذلك المكان

« مَحَنَايِمْ » Mehanaim . ويحتمل أن مكانها حاليا بلدة « خربة مَحنة » شمالى عجلون بأربعة كيلو مترات * .

وأرسل يعقوب رسله أمامه إلى أخيه عيسو ** ليستطلعوا أخباره ويقولوا له إن يعقوب قد تغرَّب كل هذه المدة عند لابان ويرجو أن يرضى عنه أخوه. فرجع الرسل وأخبروه أن عيسو قد ركب إليه فى أربعمائة من رجاله . فخاف يعقوب . ودعا الله وصلى وتضرع إليه وناشده وعده الذى وعده بأن يكون معه . وسأله أن يكف عنه شر أخيه عيسو . وأعد لأخيه هدية عظيمة . هى : ٢٠٠ عنزا ، ٢٠ تيسا ، ٢٠ كبشا ، ٣٠ ناقة مرضعة وأولادها ، ٤٠ بقرة ، ١٠ ثيران ، ١٠ حمير .

وأمر عبيده بأن يسوقوا كلا من هذه الأصناف على حدة . وأن يكون بين كل قطيع وقطيع مسافة . فإذا لقيهم عيسو وقال للأول : لمن أنت ؟ ولمن هذه معك ؟ يقول لعبدك يعقوب أهداها لسيدى عيسو . وليقل الذى بعده كذلك ، وكذا الذى بعده . ويقول كل منهم : وهو يجيء بعدنا . وتأخر يعقوب بزوجتيه وأمتيه وبنيه الأحد عشر (لم يكن بنيامين قد ولد بعد) بعد الكل بليلتين. وجعل يسير فيهما ليلا ويكمن نهارا .

فلما كان وقت الفجر من الليلة التالية تبدا له ملك من الملائكة فى صورة رجل . فظنه يعقوب رجلا من الناس . فقام إليه يعقوب ليصارعه. ولما رأى الرجل أنه لا يقدر على يعقوب ضربه على فخذه . فانخلع حُق فخذ يعقوب فى مصارعته معه . ولكن يعقوب ظل ظاهرا ومتفوقا عليه . وقال الرجل : أطلقنى لأنه قد طلع الفجر . وأدرك يعقوب أن من يصارعه ليس بشرا . فقال : لا أطلقك إن لم تباركنى . فقال له : ما اسمك؟ فقال يعقوب . فقال لا يدعى اسمك فى ما بعد يعقوب . بل إسرائيل. لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت . وسأله يعقوب وقال : أخبرنى ما اسمك ؟ فقال : لماذا تسأل عن اسمى . وباركه هناك. فدعا يعقوب اسم المكان **فنيئيل** (**أو فنوئيل**) قائلاً لأنى نظرت الله وجها لوجه . ونجيت نفسى . وفنيئيل كلمة عبرية معناها «وجه الله » .

وأشرقت الشمس ويعقوب يعرج على فخذه . لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء الذى على حق الفخذ إلى هذا اليوم لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النسا .

يفهم من هذا أن كاتبى التوراه يقصدون أن الذى كان يصارعه يعقوب كان «الرب نفسه» . تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا .

---

* قاموس الكتاب المقدس . ص ٨٤٣ .

** التوراة . إصحاح ٣٢ تكوين .

صور
عكا
حيفا
يعقوب قادما من حاران
لابان يلاحق يعقوب
يجر سهدوثا
جلعيد
محنايم
فنئيل
سكوت
نهر يبوق
شكيم
(اغتصاب دينة)
عيسو يقابل يعقوب
بيت إيل
أفراته (بيت لحم)
(وفاة راحيل)
حبرون
أسدود
عسقلون
غزه
جرار
بئر سبع
خروج عيسو للقاء يعقوب
البحر الميت
نهر عرنون
سعير

شكل ٨٥ - عودة يعقوب من حاران إلى حبرون

مسيرة يعقوب - - - - - -
مسيرة لابـان ....
خط سير عيسو ← ← ←

بعض أهل الكتاب * – فى محاولة للتخفيف من عدم قبول العقل لهذه القصة – يقولون عن هذا الموقف : إن يعقوب طالب بامتيازات المنتصر . لكنه يدرك الطبيعة الإلهية لذلك « الرجل » الذى تصارع معه وأنه اكتشف ذلك عن طريق القوة المعجزة التى كسرت حُق فخذه . فتيقن له أن الملاك هو الذى سمح له بأن ينتصر . ليكون درسا له ويتعلم أنه كما انتصر جسديا . ففى إمكانه أن ينتصر فى الأمور الروحية متى تعلق بالإله !!!

والقصة – ليست فى حاجة إلى تعليق ليدرك القارىء مدى عدم معقوليتها . ولم يزدها تفسير أهل الكتاب إلا غموضا. إذ هناك فرق بين التعلق بالإله والانتصار عليه !!

ورفع يعقوب عينيه ورأى عيسو مقبلا ومعه ٤٠٠ رجل . وقسم يعقوب الأولاد على ليئة وراحيل والجاريتين . ووضع الجاريتين وأولادهما أولا . وليئة وأولادها وراءها وراحيل ويوسفْ أخيرا . أما هو فسار أمامهم وسجد إلى الأرض سبع مرات حين اقترب من أخيه ، وكانت هذه تحيتهم. فركض عيسو للقاء يعقوب وعانقه وقبله . ثم أبصر النساء والأولاد فسأله عنهم . فأخبره أنهم مما أنعم الله عليه . واقترب النساء والأولاد وسجدوا لعيسو . ثم إن يعقوب طلب من أخيه أن يقبل هديته ليرضى عنه . وقال عيسو : يا أخى . ليكن لك الذى لك . ولكن يعقوب ألحَّ . فقبل عيسو الهدية .

واقترح عيسو أن يسيروا معا حتى يرجعوا إلى حبرون – حيث يقيم والدهما إسحق . فقال يعقوب : إن معى النساء والأولاد . والغنم والبقر فيها العشراء والمرضعة وإن أسرعت بالمشى أضَرَّ بها وبهم . فعاد عيسو إلى حبرون على أن يلحق به يعقوب على مهل .

وسار يعقوب غربا إلى مكان على نهر يبوق ٦ كيلو مترات شرقى نهر الأردن وأقام مظلات له ولبنيه وللمواشى . فسمى ذلك المكان « سكُّوث » Succoth . وهو اسم عبرى معناه «مظلات» .

ثم عبر نهر الأردن وسار إلى مدينة « شكيم » Shechem . وهو اسم عبرى معناه كتف أو منكب . وهى تقع على بعد حوالى ٤٥ كيلو مترا غربى نهر الأردن مقابل مصب نهر يبوق من الشرق . قرب بلدة نابلس الحالية . ونزل أمام المدينة وكان « الحويون » يقيمون فيها . وابتاع قطعة حقل من يد بنى حمور أبى شكيم وكبيرها . ونصب يعقوب فيها خيمته وأقام مذبحا للرب ودعاه « إيل إله إسرائيل ».

وشراء حقل فى شكيم يدل على أن يعقوب كان ينوى الإقامة بها بعض الوقت . ولعله لم يكن متعجلا العودة إلى حبرون . رغبة منه أن يكون عيسو – قد رضى عنه تماما .

---

* تفسير الكتاب المقدس . جزء ١ ص ١٩٥ .

اغتصاب دينه :

خرجت دينة فى لفيف من بنات بلدة شكيم يلعبن . ورآها شكيم ابن حمور الحوى . رئيس الأرض وأعجبته . فاستدرجها بعيداً عن البنات الأخريات وأخذها إلى خباء وقام باغتصابها . وتعلق قلبه بها وطلب من أبيه أن يخطبها من أبيها ليتزوجها .

كانت مواد قانون حمورابى لا تتضمن مثل هذه الحاله . ولكن شريعة « أشنونا » كان بالمادة ٢٦ عقوبة الموت لاغتصاب ابنة رجل . والمادة ٢٨ تقول : فإن عمل عقد زواج مع أبيها أو أمها وعايشها فإنها تصبح زوجة بيت .

وسمع يعقوب بما حدث . وانتظر حتى جاء بنوه من الحقل وأخبرهم . وغضب بنو يعقوب جدا لما حدث لأختهم . وجاء حمور طالبا يد دينة لإبنه شكيم . وطلب منهم الصفح عما حدث. وأن يصاهروهم ويسكنوا الأرض معهم ويتملكوا منها ما يشاءون.

تظاهر أولاد يعقوب بالموافقة واشترطوا أن يختتن كل ذكر من أهل شكيم حتى يكونوا على شريعتهم فتحل مصاهرتهم وتحل دينة لإبنهم . فوافقوا . وفى اليوم الثالث بعد الاختتان . وآلامهم على أشدها . قام شمعون ولاوى ابنا يعقوب بالسيوف وقتلا كل ذكر من أهل شكيم انتقاما لما حدث لأختهم . ونهبوا المدينة وأخذوا غنم القوم وبقرهم وحميرهم . ونهبوا كل ثروتهم وكل ما فى البيوت .

بالطبع لم يكن ليعقوب وبنيه بقاء فى المدينة بعد ما حدث . وقال يعقوب لشمعون ولاوى : كدرتمانى بتكريهكما إياى عند سكان الأرض ونحن نفر قليل . فيجتمعون علينا ويضربوننا فنهلك جميعا . وخرجوا من شكيم متجهين جنوبا . وألقى الله الخوف على مدن الكنعانيين التى حولهم فلم يسعوا وراء يعقوب وبنيه (إصحاح ٣٤ تكوين) .

واستمر يعقوب فى مسيره جنوبا – بوحى من الله – حتى وصل إلى لوز (انظر ص ٤١٢ . وشكل ٨٤) . وهى المدينة التى بات فيها حينما خرج فاراً من وجه أخيه عيسو قبل حوالى ٢٧ سنة . ورأى فى نومه الملائكة يصعدون وينزلون من السماء إلى الأرض. وبحث عن الحجر الذى كان قد علمَّه بوضع الدهن عليه .

اكتمال النبوة ليعقوب عليه السلام :

أُوحى إلى يعقوب فى هذا المكان أن يأمر كل أهل بيته وعبيده بنبذ الأصنام التى معهم وتحطيمها . وأن يتطهروا ويبدلوا ثيابهم . كذلك أمر أن يبنى مذبحا للرب . ويسميه «بيت إيل».

كان هذا استجابة لدعوة جده إبراهيم عليه السلام إذ قال :

« واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » . (٣٥ - ابراهيم)

واكتملت النبوة ليعقوب

« ووهبنا له إسحق ويعقوب . وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب » . (٢٧ - العنكبوت)

« واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب ، أولى الأيدى والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » . (٤٥ - ٤٧ - ص)

« ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين » .

(٧٢ - ٧٣ - الأنبياء)

وفى هذا تقول التوارة (إصحاح ٣٥ تكوين)

ثم قال الله ليعقوب . قم اصعد إلى بيت إيل وأقم هناك . واصنع هناك مذبحا لله الذى ظهر لك حين هربت من وجه عيسو أخيك . فقال يعقوب لبيته ولكل من كان معه : اعزلوا الآلهة الغريبة التى بينكم وتطهروا وأبدلوا ثيابكم . ولنقم ولنصعد إلى بيت إيل . فأصنع هناك مذبحا لله الذى استجاب لى فى يوم ضيقتى . وأعطوا يعقوب كل الآلهة الغريبة التى فى أيديهم والأقراط التى فى آذانهم . فطمرها يعقوب فى حفرة فى الأرض .

وقال له الله لا يدعى إسمك فيما بعد يعقوب . بل يكون إسمك إسرائيل . وأعاد الله عليه وعده بأن يكون نسله كثيرا جدا ويخرج من صلبه أمم وملوك وهذا يتفق مع ما جاء فى القرآن الكريم :

«اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا » . (٢٠ - المائدة)

كما كرر عليه أن الأرض التى وعدها الله لإبراهيم وإسحق - هى له ولنسله من بعده .

وبيت إيل هى التى بنى فيها سليمان عليه السلام - فيما بعد - الهيكل . مكان المذبح وسميت **أورشليم** ثم أصبحت بعد ذلك **بيت المقدس**.

ارتحل يعقوب من بيت إيل جنوبيا . وبعد مسيرة ١٠ كيلو مترات تقريبا . كانت بلدة مثمرة ومعنى مثمرة بالعبرية « **إفراته** » أو « **إفرات** ». وعندها جاء راحيل المخاض وتعسرت ولادتها وتألمت جداً وحزنت وهى تلد بسبب هذا الألم ولذلك سمت المولود « بن أونى » أى «ابن حزنى » ولم تمر أيام قليلة بعد الولادة حتى ماتت راحيل ودفنت فى إفراته وهى حاليا بيت لحم وغيَّر يعقوب اسم المولود إلى « بن يامين » ومعناه ابن اليمن أو ابن الرجاء والانشراح . وهو آخر أولاد يعقوب . وكان عمر يعقوب إذ ذاك حوالى ٦١ سنة . وكان بنيامين ويوسف أحب بنيه إلى قلبه .

ثم ارتحل يعقوب جنوبا إلى « **مَجدَل عدِر** » أى مدينة عدر أو مدينة القطيع . وأقام فيها هو وأهله وقطعان ماشيته . وبينما هو فى هذه الأرض ارتكب رأوبين – بكره وأول أبنائه – خطيئة كبيرة فى حق والده – إذ تقول التوارة * إن رأوبين اضطجع مع بلهة جارية راحيل وسرية يعقوب . وبهذا فقد رأوبين شرف البكورية بتدنيسه فراش أبيه . وغضب عليه يعقوب ولم يعطه بركة . وسيجىء رأينا فى هذه المسألة فى صفحة ٥٢٨ عند سرد وصية يعقوب لبنيه قبل وفاته . كذلك فإن يعقوب لم يعط بركة لشمعون ، ربما لأنه كان المحرض والمدبر لمذبحة شكيم . وكان التالى فى الترتيب لهما هو لاوى فآلت إليه البركة . وكان من نسله أنبياء هم موسى وهارون وإلياس واليسع عليهم السلام . وسبط يهوذا أخيه التالى له . كان منهم داود وسليمان ثم من بعدهم زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام . أما سبط رأوبين وشمعون فلم يكن منهم أنبياء .

وفاة إسحق عليه السلام :

عاد يعقوب إلى حبرون . بلد أبيه إسحق وبلد جده إبراهيم – بعد ٦ سنوات منذ أن قابل أخاه عيسو بعد بلدة فنيئيل بقليل كما سبق أن ذكرنا (ص ٤١٩) . وكان يعقوب . غير متعجِّل للعودة . وحاول البقاء فى شكيم أطول مدة فاشترى بها أرضا . ولكن اغتصاب دينة وتدبير أولاده مذبحة لأهل شكيم أجبره على الخروج منها . ثم أعقب ذلك ولادة بنيامين ووفاة راحيل فى أفراته . ثم بنائه المذبح الكبير فى بيت إيل وأخيرا وصل إلى حبرون . وكان عمره يقارب ٦٣ عاما . وعمر والده إسحق ١١٣ عاما .

فى رأينا أن إسحق عليه السلام قد أدرك أن مهمته فى الدنيا قد قاربت الانتهاء . فها هو يعقوب قد اكتملت له النبوَّة . وقام ببناء مذبح كبير للرب فى بيت إيل . وعاد إلى حبرون هو وأبناؤه وثروته الكبيرة من الغنم والماشية – وعاد الوئام بين الأخوين . ولعله توفى فى نفس العام الذى عاد فيه يعقوب إلى حبرون أو فى العام الذى يليه عن عمر يناهز ١١٣ أو ١١٤ عاما .

تقول التوارة (إصحاح ٣٥ تكوين) وكانت أيام إسحق مائة وثمانين عاما فأسلم إسحق روحه ومات . وانضم إلى قومه شيخا وشبعان أياما ودفنه عيسو ويعقوب إبناه .

ولو كان إسحق قد عاش حتى بلغ ١٨٠ عاماً – كما تقول التوارة – لكان لزاما أن يكون على قيد الحياه حينما انتقل يعقوب وبنيه للعيش فى مصر بدعوة من يوسف عليه السلام . وهذا لم يحدث – كما نرى من جدول حياة إسحق .

---

* التوارة – إصحاح ٣٥ تكوين ٢١ .

وبالطبع فإن يعقوب وعيسو دفناه فى مغارة المكفيلة بجوار والده إبراهيم عليه السلام . ووالدته سارة .

جـدول حياة إسحق عليه السلام

ق . م. تقريبا	عمر إسحق	حياة إسحق	الأحداث المتزامنة
١٨٧٩	٠	ولادة إسحق	عمر ابراهيم ٩٩ عاما وسارة ٨٩
١٨٤١	٣٨		وفاة سارة حسب التوارة (١٢٧ سنة)
١٨٣٩	٤٠	تزوج رفقة	
	٤١	إسحق فى جرار	
١٨٢٩	٥٠	ولادة يعقوب وعيسو	وفاة سارة فى رأينا (١٣٩ سنه)
	٦٠		١٠ سنوات عمر يعقوب
١٨٠٣	٧٦	عمر إسحق عند وفاة ابراهيم	٢٦ سنة عمر يعقوب
١٧٩٩	٨٠	إسحق يمنح البركة ليعقوب	٣٠ – عمر يعقوب عند أخذ البركة
			٣١ – يعقوب يهرب إلى حاران
			٣٢ – وصول يعقوب إلى حاران
			٣٩ – بعد ٧ سنوات مهر
			٤٦ – ٧ سنوات أخرى مهر ثان
			٦ سنوات لتكوين ثروة لنفسه
			٥٢ عمر يعقوب عند تركه حاران
			٥٣ر٥ يعقوب فى سكوت
١٧٦٩	١١٠	عمر إسحق	٦٠ بناء المذبح فى بيت إيل
١٧٦٦	١١٣	عند عودة يعقوب إلى حبرون	٦٣ عودة إلى حبرون
١٧٦٥	١١٤	وفاة إسحق فى رأينا	٦٤ عمر يعقوب وعيسو
١٧٥٩	١٢٠		٧٠
١٧٣٩	١٤٠		٩٠
١٧٢٧	١٥٢	لو كان إسحق حيا	١٠٢ مجيء يعقوب لمصر
١٧٢٩	١٥٠		١٠٠
١٧١٩	١٦٠		١١٠
١٧٠٩	١٧٠		١٢٠
١٦٩٩	١٨٠	وفاة إسحق كما فى التوارة	١٣٠

عيسو :

بعد موت والدهما افترق عيسو عن يعقوب . وتقول التوارة (إصحاح ٣٦ تكوين) ثم أخذ عيسو نساءه وبنيه وجميع نفوس بيته ومواشيه وكل بهائمه وكل مقتناه الذى اقتنى فى أرض كنعان . ومضى إلى أرض أخرى من وجه يعقوب أخيه . لأن أملاكهما كانت كثيرة على السكنى معا . ولم تستطع أرض غربتهما أن تحملهما من أجل مواشيهما . فسكن عيسو فى جبل سعير . وعيسو هو أدوم .

ولعل عيسو كان لا يزال يشعر بالغصة من تصرف أخيه معه . من أخذه البكورية . ثم البركة . وها هو صار نبيا . فلم يطق البقاء فى حبرون فارتحل إلى أرض سعير . وهى أرض حميه . فسعير الحورى هو جد زوجته أهو ليبامة (ص ٤١١) . وكانت منطقة سكناه هى الأرض التى تقع جنوب البحر الميت والممتدة إلى خليج العقبة وسميت أرض سعير نسبة إليه .

وأرض سعير (شكل ٨٦) أرض جبلية وعرة تمتد مسافة ١٦٠ كيلو مترا على جانبى وادى العربة . وفى حدها الغربى – فى المنتصف تقريبا يوجد جبل هور . الذى يرتفع عن سطح البحر بحوالى ١٥٦٠ مترا . وأرض سعير ليست خصبة كأرض فلسطين . إذ هى فى رمتها إما جبلية أو أراضى صحراوية . ولكن كانت توجد بها آبار كثيرة فقامت حولها حقول كروم . كذلك فإن الأجزاء الجبلية وخاصة الجزء الشمالى منها – كثير المطر نسبيا فنشأت به بعض المدن .

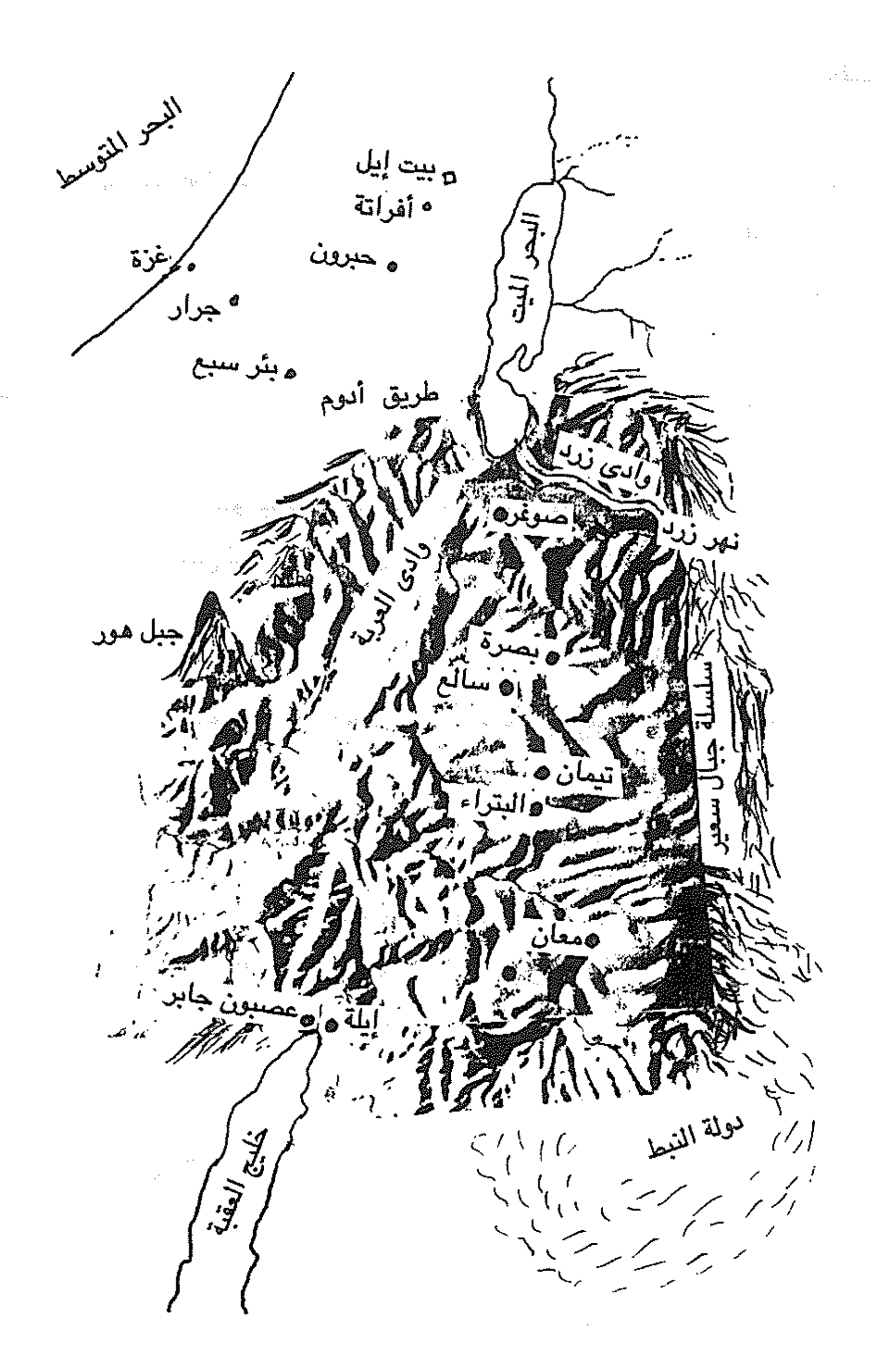
سبق أن قلنا (ص ٤١١) إن عيسو كان له ثلاث زوجات . وكان قد أنجب منهن خمسة أبناء أثناء إقامته فى حبرون – أما الأحفاد فقد ولدوا فى أرض سعير . ولما انتقل عيسو وأبناؤه إلى أرض سعير تكاثروا وأصبحوا هم سادة الأرض . وصار كل حفيد أميرا فى الأرض التى يقطنها . ولأن عيسو كان به حمرة فى لونه ويسمى أدوم . فسميت المنطقة باسمه « أرض أدوم » واختصارا « أدوم » وذريته هم « الأدوميون » .

كان عيسو وأبناؤه يدينون بالحنيفية التى جاء بها جدهم إبراهيم عليه السلام ويدين بها إسحق والده . ولكن مع مر الأزمنة . بدأ الأحفاد والذرية يبتعدون عن الدين الحنيف . وشيئا فشيئا انتقلت إليهم عبادة الأصنام متأثرين بما كانت عليه شعوب الدول المجاورة فى الشام وأرض كنعان . وكان من بين الآلهة التى عبدوها « قوس » و «هدد » * .

وتفشت عبادة الأصنام فى أرض سعير التى هى أدوم . إلا أن نسل عيسو من بسمة بنت إسماعيل عليه السلام ظلوا على تمسكهم بالدين الحنيف . وظهر فيهم نبيان كريمان . هما أيوب و ذو الكفل .

---

* قاموس الكتاب المقدس . ص ٤٠.



شكل ٨٦ – أرض سعير

عيسو

الزوجة	الأبناء	الأحفاد
عدا بنت إيلون الحثى	أليفاز	تيمان
		أومار
		صفوا
		جعثام
		قناز
أهو ليبامة بنت عنى بن سعير الحورى	يعوش	
	يعلام	
	قورح	
بسمة بنت إسماعيل	رعوئيل	نحث
		زارح
		شمة
		مزة

زوجات وأبناء عيسو وأحفاده .

(التوراة . إصحاح ٣٦ تكوين)

إسحق ← يعقوب ، عيسو

عيسو + بسمة

رعوئيل ← زارح ← عوص (موص) ← أيوب ← ذو الكفل

كوّن أبناء عيسو وأحفاده إمارات متفرقة . كُلّ فى منطقته . ولكنهم فيما بعد اتحدوا وكونوا دولة واحدة . كانت تحمل العداء لبنى إسرائيل (بنى يعقوب) . واستمر هذا العداء بين الشعبين الشقيقين . ولم يتبع الأدوميون موسى عليه السلام . بل رفضوا أن يمر فى أرضهم كما سيجىء فيما بعد - وكما جاء فى الإصحاح ٢٠ عدد :

وأرسل موسى رسلا من قادش إلى ملك أدوم . دعنا نمر فى أرضك . لا نمر فى حقل ولا فى كرم ولا نشرب ماء بئر . فى طريق الملك نمشى . لا نميل يمينا ولا يساراً حتى نتجاوز تخومك . فقال له أدوم : لا تمر بى لئلا أخرج للقائك بالسيف . فقال له بنو اسرائيل : فى السكة نصعد . وإذا شربنا أنا ومواشى من مائك أدفع ثمنه . لاشىء . أمر برجلى فقط . فقال لاتمر . وخرج أدوم للقائه بشعب غفير وبيد شديدة . وأبى أدوم أن يسمح لإسرائيل بالمرور فى تخومه . فتحول إسرائيل عنه .

ولعل الأدوميون خشوا أن يكون طلب المرور ما هو إلاّ خدعة وتحايلا حتى يحتلوا أرضهم . ولعل حادثة أخذ يعقوب للبكورية والبركة من أخيه عيسو (أدوم) الذى هو جدهم كانت لاتزال عالقة فى ذاكرتهم ! واضطر بنو إسرائيل للإلتفاف حول أرض سعير فى مسيرة طويلة بأرض وعرة وقاسية ليصلوا إلى أرض كنعان من الشمال الشرقى . وظلت العداوة قائمة والحرب سجالاً بين الشعبين . وفيما بعد - استولى داود عليه السلام على مملكة أدوم . وفى أثناء السبى البابلى لملكة يهوذا استعاد الأدوميون كيانهم واستولوا على أجزاء من مملكة يهوذا حتى مدينة حبرون . ثم لما تولى أمصيا عرش يهوذا أخضع أدوم ثانية (٨٠٠ - ٧٨٢ ق.م.) .

وفى عام ٥٠٠ ق . م . استولى النبط (نسبة إلى نابت بن إسماعيل) على جبل سعير وانتهت دولة أدوم إلى الأبد . ونقل النبط العاصمة من « سالع » إلى « البتراء » * وهى كلمة يونانية تعنى « الصخر » أو « الشق فى الصخر » لأن مدخل مدينة البتراء يتميز بوجود أخدود عميق بين جبلين يعرف اليوم باسم « السيق » . ولعله لفظ نبطى متوارث محرف عن كلمة « الشق » فى اللغة القديمة . وكان الإغريق يسمون البتراء . Arke وفى العربية القديمة حرِّف لفظ إركِ إلى الرقيم . وأما اسمها الحديث فهو وادى موسى ** .

وظلت البتراء مدينة هامة إلى أن سقطت فى أيدى الرومان عام ١٠٥ ميلادية . ثم أهملت حتى اندثرت تماماً . إلى أن كشفت عنها الحفريات الأثرية التى أجريت حديثا.

يعقوب - نبيا :

بقى يعقوب عليه السلام فى حبرون - نبيا - يدعو ما حوله من قبائل الكنعانيين إلى عبادة

---

* دكتور بيومى مهران . دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم جزء ٨ ص ٥٥٠

** ياقوت . معجم البلدان . جزء ص ٢٥٦ .

الله . ولا بأس من ذكر نبذة قصيرة هنا عن **ديانة الكنعانيين** - لأننا سنعود إلى ذكرها بالتفصيل عند بدء بنى إسرائيل غزو أرض كنعان بقيادة يشوع (فى الجزء الخامس إن شاء الله) .

ولما كانت أرض فلسطين تقع فى مكان متوسط بين العراق وسوريا فى الشرق . ومصر فى الجنوب . فقد تأثرت ديانتها بهذه الدول . بل يمكن أن نقول إن ديانتها كانت مزيجا من ديانات هذه الدول . وإن اتخذت لها طابعا محليا تحدد بطبيعة جغرافيتها . فهى قد أخذت عن العراق عبادة القوى الطبيعية (الجزء الثانى ص ٢٠٠) إلاَّ أنها - كما هو يميز المجتمعات الزراعية عامة - ركزت على قوى النمو والتكاثر والإخصاب . وظهرت عبادة تشير إلى إله الخصب وموته والنواح عليه وهو « بعل » أو « تموز » ثم تشير إلى غلبته على الموت وإقترانه بإلهة الخصب التى عرفت باسم « بعلة » و « عنات » .

واقتبست ديانة الكنعانيين فكرة البعث من ديانة مصر القديمة - ذلك أن أسطورة « أوزير » و « إيزيس » المصرية الشهيرة جعلت التابوت الذى وضع به أوزير تتقاذفه أمواج البحر حتى أرسته على شاطىء ببلوس « جويلة » فى فينيقيا - وهو الجزء الشمالى من أرض كنعان - ونمت من حوله شجرة أرز اقتطعها الملك ليجعل منها دعامة لسقف قصرة . وكما عاد أوزيريس إلى الحياة مرة أخرى . كذلك تعيش الطبيعة وتموت وتبعث . وإن كانوا فى أرض كنعان قد ربطوا الأمر بمظهر فلكى باندماجه مع القمر وصيرورته ملكا للعالم الليلى . فالقمر . يحيا ويموت ثم يبعث حيا مرة أخرى .

وكان لكل مدينة فى كنعان سيدها وإلهها وبعلها - وهو جد ملوكها ومخصب أرضها . فكل الحبوب والخمور والكتان والتين من عمله . وكان أشهر آلهة الكنعانيين هو « إيل » إله السماء وإلهة الأرض وهى « عشتار » أو « أشيرة » .

بدأ يعقوب عليه السلام يدعو الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد . ولكن عقول القوم لم تستطع أن تستوعب هذا التجريد المعنوى فى إله غيب لا يرى ولا تدركه الأبصار . وكان يدعو إلى نبذ عبادة الأصنام . وقد سبق أن ذكرنا أنه جمع جميع الأصنام التى كانت مع عشيرته وعبيده وطمرها فى حفرة فى الأرض حين اصطفاه الله نبيا (صفحة ٤٢٠) .

لم يأت يعقوب بشريعة جديدة . بل كانت شريعته هى نفس شريعة جده ابراهيم وشريعة أبيه إسحق - عليهما السلام .

« قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا . وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط » .

(١٣٦ - البقرة)

« قولوا آمنا بالله وما أنزل علينا . وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط » .

(٨٤ - آل عمران)

« وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط » . (١٦٣ - النساء)

« واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل . وكُلٌ من الأخيار » . (٤٥ - ٤٨ - ص)

وصف الله الأنبياء فى هذه الاية بأنهم أولى الأيدى أى أولى القوة وقال مجاهد يعنى القوة فى طاعة الله تعالى ، والأبصار يعنى البصر فى الحق والفقة فى الدين . **إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** أى جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم هَمٌ فى غيرها . وقال مالك بن دينار نزع الله تعالى من قلوبهم حب الدنيا وذكرها . وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها . وقال سعيد بن جبير : الدار أى الجنة . أى أخلصناها لهم بذكرهم لها . وقال قتادة كانوا يذكِّرون بالدار الآخرة والعمل لها . وترغيبهم فيها . وتزهيدهم فى الدنيا . وإطلاق إسم الدار بدون وصف الآخرة . فيه إشعار بأنها هى الدار الحقيقية وإنما الدنيا مجاز لها . ثم ختمت الآية بقوله تعالى إنهم من المختارين المجتبين الأخيار . ثم أضاف الله إليهم إسماعيل واليسع وذا الكفل بأنهم أيضا من الأخيار .

سار يعقوب على شريعة إبراهيم - وكان كل الطعام حلالا فى شريعة ابراهيم عليه السلام. إلاَّ أن يعقوب حرَّم بعض المأكولات على نفسه (ص ٤٠٤) . قال ابن جريج والعوفى عن ابن عباس : كان إسرائيل عليه السلام - وهو يعقوب - يعتريه عرق النسا بالليل وكان يقلقه ويزعجه عن النوم . ويقلع الوجع عنه بالنهار . فنذر لئن عافاه الله لا يأكل عرقا ولا يأكل وَلَد ماله عرق . وكان هذا الأكل من أحب الأشياء إليه . وتركها تقربا إلى الله . وقالوا * إن هذا يتمشى مع قوله تعالى : **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** . وهو الإنفاق فى طاعة الله مما يحبه العبد ويشتهيه . كما قال تعالى : **« وآتى المال على حبه »** وقوله **« ويطعمون الطعام على حبه »** . وهكذا حرم إسرائيل على نفسه لحوم الإبل وألبانها . فاتبعه بنوه فى تحريم ذلك إقتداء به واتباعا لسنته .

« كل الطعام حلا لبنى إسرائيل . إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوارة. قل فاتوا بالتوارة فاتلوها إن كنتم صادقين » . (٩٣ - آل عمران)

روى الواحدى عن الكلبى أنه حين قال النبى ﷺ : أنا على ملة إبراهيم . قالت اليهود : كيف وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها ؟

---

* تفسير ابن كثير جزء أول ص ٣٨٢ .

فقال النبى ﷺ : كان ذلك حلالا لإبراهيم عليه السلام . فنحن نحلُّه . فقالت اليهود : كل شيء أصبحنا اليوم نحرمه فإنه كان محرمًا على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا . فأنزل الله تعالى هذه الاية تكذيبا لهم .

وكان الله سبحانه وتعالى قد أباح أكل جميع الحيوانات لنوح عليه السلام واستمر ذلك حتى عهد إبراهيم ثم من بعده حتى عهد يعقوب . وجاء فى التوراة (إصحاح ٩ تكوين) .

وبارك الله نوحا وبنيه وقال لهم أثمروا واكثروا واملأوا الأرض . ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض وكل طيور السماء . مع كل ما يدب على الأرض وكل أسماك البحر قد دفعت إلى أيديكم . كل دابة حية تكون لكم طعاما . كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع .

وهكذا كان فى التوراة التى بين أيديهم تكذيب قولهم إن لحوم الإبل وألبانها كانت محرمة على نوح وإبراهيم . وإنما حرم هذه الأشياء إسرائيل أى يعقوب - لما شفاه الله من ألمه . فحرّم أحب الطعام إلى نفسه تعبدا . كما يحرِّم المستظهر فى دينه من الزهاد اللذائذ على نفسه وإن لم يحرمها الدين .

وقال الإمام أحمد * : حدثنا هاشم بن القاسم . عن عبدالحميد عن ابن عباس قال : حضرت عصابة من اليهود إلى رسول الله ﷺ . فقالوا : حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبى . قال سلونى ما شئتم ولكن اجعلوا لى ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم شيئا فعرفتموه لتتابعُنى على الإسلام . قالوا فذلك لك . قالوا : أخبرنا عن أربع خلال . أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه ... الخ الحديث . فقال أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى . هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضا شديدا ، وطال سقمه ، فنذر لله نذرا لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه . وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها . فقالوا : اللهم نعم . فقال اللهم اشهد عليهم... الخ الحديث .

وروى مثل هذا القول عن أحمد أيضا عن حسين بن محمد عن عبد الحى - عن طريق آخر. عن ابن عباس . قال : أقبلت يهود إلى النبى ﷺ . فقالوا : يا أبا القاسم . إنا نسألك عن خمسة أشياء فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبى واتبعناك . فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه ثم قال : والله على ما نقول وكيل . قال : هاتوا . فكان مما سألوه . قالوا أخبرنا ما حرّم إسرائيل على نفسه ؟ قال كان يشتكى عرق النساء . فلم يجد فى الإبل شيئا يلائمه فحرم لحومها وألبانها . قالوا صدقت .

---

* تفسير ابن كثير . جزء أول ص ٣٨١ .

كان هذا التحريم على عهد يعقوب عليه . ولكن الله بعد ذلك حرَّم على بنى إسرائيل أشياء أخرى عقابا لهم على كفرهم وظلمهم . فقد كان بنو اسرائيل إذا اقترفوا ذنبا عظيما حرَّم الله عليهم طعاما طيبا .

« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم . وبصدهم عن سبيل الله كثيراً » .

(١٦٠ – النساء)

وهكذا . بسبب ظلمهم وطغيانهم ومخالفتهم رسولهم – ولأنهم صدُّوا الناس وصدُّوا أنفسهم عن اتباع الحق . فكان جزاؤهم أن حرم الله عليهم أنواعا طيبة من الطعام .

« وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر . ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلاَّ ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون » .

(١٤٦ – الأنعام)

وعلى ذلك كان هذا التضييق عليهم صدقا وعدلا جزاء بغيهم . وسيأتى تفصيل ذلك فيما بعد فى قصة موسى عليه السلام فى الجزء الرابع بإذن الله .

قلنا إن يعقوب عليه السلام كان قد بلغ من العمر ٦١ عاما . واستقر فى حبرون بينما رحل أخوه عيسو إلى أرض سعير التى هى أدوم . ولاشك أن دينة ابنة يعقوب قد تزوجت . واستقرت فى بيت زوجها . وبقى مع يعقوب أبناؤه الإثنا عشر . بنيامين أصغرهم قد أتم عامه الأول ويوسف بلغ العاشرة أو الحادية عشرة . كانا أحب بنيه إلى قلبه . ليس فقط لأنهما « أبناء شيبة » أو « آخر العنقود » كما يقولون . بل لأنهما ولدا راحيل . الزوجة الأثيرة لديه والتى تحمّل ليتزوجها سبع سنوات خدمة لخاله لابان . ولما زوَّجه من ليئة . خدم سبع سنوات أخرى مهرا لراحيل . وكان تفضيله لابنه يوسف سببا لغيرة إخوته منه . وعملوا على إبعاده عن أبيهم ولكن عناية الله كانت ترعاه . فوصل إلى مصر ليصبح رئيس وزرائها واختاره الله نبيا .

جدول حياة يعقوب (١)

مصر	ق . م .	عمر يعقوب	الحـــدث
أمنمحيت الثالث	١٨٢٩	٠	ولادة يعقوب – وعمر إسحق ٥٠ سنة
	١٨١٩	١٠	
	١٨٠٩	٢٠	
١٨٠٣ ————	١٨٠٣	٢٦	وفاة جده إبراهيم عليه السلام
أمنمحيت الرابع	١٨٠٠	٢٩	أخذ البكورية من عيسو
	١٧٩٩	٣٠	أخذ البركة من إسحق والده واسحق عمره ٨٠ سنه
	١٧٩٨	٣١	الفرار إلى حاران
	١٧٩٧	٣٢	يصل الى حاران
	١٧٩٥		
أخت – ٣ سنة	١٧٩٢		} ٧ سنوات خدمة لابان
	١٧٩٠	٣٩	تزوج ليئة ثم راحيل
تفكك مصر	١٧٨٩	٤٠	ولادة رأوبين } من ليئة
الأسرة الثالثة عشرة		٤١	ولادة شمعون } من ليئة
		٤٢	ولادة لاوى } من ليئة
		٤٣	ولادة يهوذا } من ليئة
		٤٤	ولادة دانا } من بلهة جارية راحيل
		٤٥	ولادة نفتالى } من بلهة جارية راحيل
		٤٦	ولادة جاد } من زلفة جارية ليئة
		٤٧	ولادة أشير } من زلفة جارية ليئة
		٤٧	ولادة دينة
دخول الهكسوس	١٧٨٠	٤٩	ولادة يساكر } من ليئة نفسها
الأسرة الرابعة عشرة الجزء الغربى من الدلتا المصريون / الأسرة الخامسة عشرة الهكسوس	١٧٧٩	٥٠	ولادة زبولون } من ليئة نفسها
	١٧٧٨	٥١	ولادة يوسف من راحيل
		٥٢	ترك حاران
		٥٣	لابان يلاحق يعقوب عند سهدوثا وجلعاد
		٥٤	عيسو يقابل يعقوب عند محنايم
		٥٤ر٥	يعقوب ومصارعة الملاك
		٥٥	يعقوب فى شكيم
		٥٨	دينه عمرها ١١ سنة
		٥٩	اغتصاب دينه وترك شكيم
	١٧٦٩	٦٠	فى بيت إيل وبناء المذبح

تكملة جدول حياة يعقوب (٢)

مصر	ق . م .	عمر يعقوب	الحـــدث
	١٧٦٩	٦٠	فى بيت إيل وبناء المذبح عمر والده اسحق ١١٠ سنه وإكتمال النبوة ليعقوب
		٦١	فـى بيت لحم وإفراته ولادة بنيامين و وفاة راحيل
		٦٢	السير الى حبرون
	١٧٦٦	٦٣	عيسو ويعقوب فـى حبرون
١٧٦٥	١٧٦٥	٦٤	وفـاة إسـحق
خيان ملك الهكسوس (حكم ٥٠ سنة)	١٧٦٥	٦٤	افتراق عيسو عن يعقوب
	١٧٦٤	٦٥	• حلم يوسف وعمره ١٤ سنه تقريبا
			• إلقاء يوسف فـى الجب
	١٧٦٣	٦٦	• وصول يوسف الى مصر
	١٧٤٠	٨٩	بدء السنوات السبع السمان
	١٧٣٣	٩٦	بـدء السنوات السبع العجاف
	١٧٣١	٩٨	مجىء إخـوه يوسف لجلب القمـح أول مرة
	١٧٣٠	٩٩	مجىء إخوة يوسف ثانى مرة ومعهم بنيامين
	١٧٢٩	١٠٠	مجىء إخوة يوسف ثالث مرة
	١٧٢٨	١٠١	يعقوب وبنيه يأتون إلى مصر
	١٧٢٧	١٠٢	
١٧١٥	١٧١٩	١١٠	
أبو فيس الأول (حكم ٤٠ سنة)	١٧١٤	١١٥	
	١٧٠٩	١٢٠	
		١٢٥	
	١٦٩٩	١٣٠	
		١٣٥	
	١٦٨٩	١٤٠	
	١٦٨٢	١٤٧	وفاة يعقوب ويوسف يحمله لدفنه فى حبرون وكان عمر يوسف ٨٩ سنة
	١٦٨٠		
	١٦٧٥		

يوسف عليه السلام

هو يوسف بن يعقوب من زوجته راحيل ابنة خاله لابان . آخر من ولد فى حاران قبل أن يتركها فى طريق العودة إلى أرض كنعان .

وجاء اسمه فى القرآن الكريم يوسُف . بضم السين . وفى التوراة تنطق بكسر السين . وضم السين أجمل – حتى لا يختلط الأمر على القارىء فيظن أن الإسم مشتق من الأسف والمؤاسفة كما هو الحال لو نُطقِت بكسر السين . *

وقال بعضهم إنها مشتقة من فعل ياساب العبرى بمعنى يُضَيِّف ويكون يوسف بمعنى يضيف أو ضيف الله . وبعضهم قال مشتقة من جذر عبرى بمعنى يخاف أو خائف . فمعنى يوسف هو خائف الله ** .

وقد ورد اسم يوسف فى القرآن الكريم سبعاً وعشرين مرة .

مرة فى سورة الأنعام فى الحديث عن إبراهيم عليه السلام :

« ووهبنا له إسحق ويعقوب كُلاً هدينا ، ونوحاً هدينا من قبل . ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون . وكذلك نجزى المحسنين » .

(٨٤ – الأنعام)

ومرة فى سورة غافر

« ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ... » (٣٤ – غافر)

أما الـ ٢٥ مرة الباقية فقد جاءت كلها فى سورة يوسف . وهى سورة كاملة لا تتحدث إلاَّ عن يوسف . وتبدأ بقوله عز وجل :

« نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين . إذ قال يوسف لأبيه ... » .

وسنرى بوضوح – فى سورة يوسف – نوعين من **الإعجاز اللفظى للقرآن الكريم :**

---

* من إعجاز القرآن . رؤوف أبو سعدة جزء أول ص ٣٠٨ .

** قاموس الكتاب المقدس . ص ١١١٥ .

١ – **الاختصار أو الإيجاز** : وهذا النوع من الإعجاز ينطبق على القرآن كله وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى هذا فى خطبة له إذ قال : أيها الناس . إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه . واختصر لى اختصاراً . ويبدو ذلك بوضوح فى سورة يوسف . فما ورد فى أسطر قليلة نجده يعبِّر عن حدث يلزم لوصفه صفحة كاملة أو أكثر .

٢ – **تعدد المعانى** : بمعنى تضمين اللفظ الواحد عدة معانى وعدة احتمالات . فمثلاً . فقد يذكر كلاماً ولا يُذكر قائله . ويترك الذهن حراً فى استخلاص من قاله . وقد تتساوى احتمالات نسبة هذا الكلام إلى شخصين ممن تعنيهم القصة . أو يأتى فى الآيات التالية ما يشير إلى أحدهما .

وهذان النوعان من الإعجاز اللفظى للقرآن – يدفعان المرء إلى إعمال الفكر والتدبر فى الآيات امتثالاً لقوله تعالى :

« **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبَّروا آياته وليتذكر أولوا الألباب** » .
(٢٩ – ص)

أى ليتدبروا آياته – وبهذا قرأ علىٌّ كرم الله وجهه .

وستتم الإشارة إلى هذين النوعين من البلاغة اللفظية فى أثناء سرد قصة يوسف عليه السلام .

كذلك وردت قصة يوسف فى التوراة فى الإصحاحات ٣٧ – ٤٥ تكوين . وفيها بعض الإختلافات سنشير إليها فى حينها .

وقد امتدح نبينا صلى الله عليه وسلم يوسف فى حديثين : قال الإمام أحمد عن آخرين عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (عن يوسف) الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم . يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم . انفرد بإخراجه البخارى . وروى البخارى أيضاً حديثاً عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الناس أكرم؟ قال: أكرمهم عند الله أتقاهم . قالوا ليس عن هذا نسألك . قال : فأكرم الناس يوسف نبى الله بن نبى الله بن نبى الله بن خليل الله . قالوا ليس عن هذا نسألك . قال فعن معادن العرب تسألونى؟ قالوا نعم : قال فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا .*

كان يوسف وأخوه بنيامين أحب أبناء يعقوب إلى قلبه . ولد يوسف فى حاران قبل أن يغادرها يعقوب بفترة قليلة وكان عمر يعقوب عند ولادته ٥٢ عاماً تقريباً . وحينما وصل شكيم

* تفسير ابن كثير . الجزء الثانى ص ٤٦٨ .

كان يعقوب قد قارب الخامسة والخمسين ويوسف بلغ بالكاد ثلاث سنوات وعند الوصول إلى أفراته وضعت راحيل ابن يعقوب الأخير – بنيامين – وماتت . كان يعقوب عمره حوالى ٦١ عاماً ويوسف بلغ التاسعة من عمره .

وزاد يعقوب من حنانه على يوسف وبنيامين . وخاصة بعد وفاة والدتهما – راحيل – وزاد هذا من حفيظة إخوتهما عليهما . وإن كان غضبهما على يوسف أشد . فخصوه هو بالذكر بالإسم وألحقوا به أخاه . واتهموا أباهم بالضلال والزيغ عن الحق لتقديمه يوسف عليهم ومحبته له أكثر منهم .

« لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة . إن أبانا لفى ضلال مبين » .

(٧ – ٨ – يوسف) .

وتقول التوراة (إصحاح ٣٧ تكوين) كان يوسف ابن سبع عشرة سنة يرعى مع إخوته الغنم وهو غلام . وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم . وأما إسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته .فصنع له قميصاً ملوناً . فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته . أبغضوه . ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام .

وبنظرة إلى جدول أحداث حياة يعقوب (ص ٥٢٦) ندرك أن يوسف عند بدء قصته هذه لابد كان أصغر من السابعة عشرة – والمرجح أنه كان لا يزال فى الثانية عشرة من عمره .

قيل* كان القميص طويلاً يصل إلى القدمين . وكانت له أكمام طويلة تغطى اليدين . وكانت القمصان وقتهم بغير أكمام وتصل إلى الركب فقط . وقد أعطى هذا القميص تمييزاً له على إخوته .

ولعل إخوة يوسف قد توجسوا خيفة من ذلك الحب الشديد وخشوا أن يكون ذلك مقدمة لإعطائه البكورية والبركة وهم لابد قد علموا أن أباهم قد كسر قاعدة البكورية بأن أجبر عمهم عيسو على التنازل عنها عند مرضه – كما أنه قد أخذ البركة أيضاً . لذلك كان خوفهم من أن يكون فى نية أبيهم كسر القاعدة مرة أخرى لصالح يوسف . لشدة حبه له ولكون يوسف هو الابن البكر لراحيل – التى كانت أثيرة لديه . لذلك كان بغضهم ليوسف أشد . فرغبوا فى التخلص منه .

---

* تفسير الكتاب المقدس . جزء أول ص ١٩٩ .

وحلم يوسف حلماً . يذكره القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً . والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً . إن الشيطان للإنسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث . ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق . إن ربك عليم حكيم » .

(٤ - ٦ يوسف)

قال علماء اللغة إن يا أبتِ أصلها يا أبى . ثم أبدلت الياء تاء للتعظيم والمبالغة كما نقول فى وصف رجل بزيادة العلم أنه علاَّمة . وقيل فيها كلام آخر لا محل هنا لذكره .

وقال بعض المستشرقين إن هناك تكرار : رأيت ثم رأيتهم . ورد فضيلة الشيخ محمد الشعراوى بأنه لو قال رأيت أحد عشر كوكباً ساجدين . أفادت بأنه رآهم حالة كونهم ساجدين . ولكن قد يكونوا قد سجدوا لأمر آخر أو أنهم جُبِلوا على السجود . أما التعبير كما جاء فى القرآن الكريم فيفيد أنه رآهم أولاً فى حالتهم العادية . ثم رآهم ساجدين فيفيد أن السجود كان له . أو - كما جاء فى تفسير الألوسى (جزء ١٢ ص ١٧٩) - أنه جواب سؤال مقدر . كأن يعقوب عليه السلام قال له عند قوله : رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر . كيف رأيتها ؟ سائلاً عن حال رؤيتها فقال : رأيتهم لى ساجدين .

ولم تدخل دينة ضمن الإخوة . إذ هم إثنا عشر ذكراً . وكون أحدهم هو المتكلم فيكون الباقى أحد عشر . عبارة عن إخوته . والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه . وبهذا قال ابن عباس وغيره . وهذه الرؤيا معناها خضوع إخوته له وتعظيمهم له تعظيماً زائداً بحيث يسجدون له إجلالاً واحتراماً وإكباراً . فخشى يعقوب عليه السلام أن يُحدِّث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدونه على ذلك . ويدبِّرون له كيداً يتخلصون به منه . (وبعد حوالى ثلاثة وثلاثين عاماً تحقق الحلم حين دخل عليه إخوته فخروا له سُجَّداً) .

وجاء قوله صلى الله عليه وسلم : الرؤيا من الله تعالى . والحلم من الشيطان . وفى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنها من الله تعالى . فليحمد الله تعالى وليحدث بها . وإذا رأى غير ذلك مما يكره . فإنما هى من الشيطان . فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ومن شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لن تضره .

ثم إن يعقوب قال ليوسف : وكما أن الله قد فضلك على جميع إخوتك بحيث يسجدون لك . فإن الله يفضلك أيضاً ويختارك ويعطيك من العلم بحيث يمكنك تفسير الرؤى والأحلام بإيحاء من

الله تعالى وبتعريفه لك دلالاتها ومعناها . وهي نعمة وفضل من الله . وقد سبق أن أتم الله نعمته على أبويه – وهما جده إسحق وأبو جده إبراهيم عليهما السلام .

وقيل إن يعقوب إستشف من هذه الرؤيا بأن الله قد يصطفيه للنبوة أيضاً . فقد كان يعلم أن الرؤيا الصادقة هي مقدمة للوحي . لذلك قال يجتبيك ربك أي يخصك ويتم نعمته فيما بعد بالوحي والنبوة كما أتمها على إسحق وإبراهيم عليهما السلام .

وقال بعض العارفين والصوفية إن الرؤيا الصادقة تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من تناسب . والإطلاع على بعض المعاني الحاصلة . فيظهر فيها صور مناسبة لتلك المعاني . ثم إن المخيلة تحاكيها بصورة مناسبة فترسلها إلى الحسٍّ فتصير مشاهدة . وقد صح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : أول ما بُدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة . فكان لا يرى رؤيا إلاَّ جاءت مثل فلق الصبح .

وقالوا إن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة . وقالوا في هذا إن عائشة رضي الله عنها أشارت إلى أنه صلى الله عليه وسلم بقي ستة أشهر يرى الوحي مناماً , ثم جاءه الملك يقظة . وستة أشهر بالنسبة إلى ثلاث وعشرين سنة فترة الوحي . هي جزء من ستة وأربعين جزءاً .

أما قول يعقوب ليوسف « يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً » . أي فيحتالوا لإهلاكك حسداً من أنفسهم مع أنه كان واثقاً من أنهم لا يقدرون على تحويل ما دلت عليه الرؤيا . وأنه سبحانه وتعالى سيحقق ذلك لا محالة . فإنما قال ذلك طمعاً في حصوله بلا مشقة ليوسف نفسه .

تختلف رواية التوراة عن القرآن الكريم في شيئين :

١ – أن التوراة جعلت يوسف يقص الحلم على إخوته .

٢ – أن التوراة أوردت بدل الحلم حلمين .

فقد جاء في الإصحاح السابع والثلاثين تكوين :

وحلم يوسف حلماً . وأخبر إخوته . فازدادوا له بغضاً . فقال لهم اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت . فها نحن حازمون حزماً في الحقل . فإذا حزمتي قامت فانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتي . فقال له إخوته ألعلَّك تملك علينا ملكاً أم تتسلط علينا تسلُّطاً . وازدادوا أيضاً بغضاً له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه . ثم حلم أيضاً حلماً آخر وقصه على إخوته فقال : إني قد حلمت حلماً أيضاً . وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي . وقصه على أبيه وعلى إخوته . فانتهره أبوه وقال له ما هذا الحلم الذي حلمت . هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض . فحسده إخوته . وأما أبوه فحفظ الأمر .

وقد يكون الأمر أن يوسف لما أخبر إخوته بالحلم الأول . ورأى استنكارهم له وردهم عليه أدرك أن ذلك سيزيد من حقدهم عليه وعداوتهم له . ولعله وهو ابن عشر سنوات ظن أن هذه أضغاث أحلام . ولعلهم هم أيضاً ظنوا أن الحلم ما هو إلا رد فعل لمضايقاتهم له . وتنفيس عما في نفسه تجاههم - وإن كان لصغر سنه لا يستطيع التغلب عليهم ففى الأحلام يستطيع أن يتخيل ما يشاء من أن حزمهم سجدت لحزمته . وظنهم أن هذا الحلم يشبه المثل القائل : الجائع يحلم بسوق الخبز ! .

ولكن لما كان الحلم الثانى وهو أوضح فى دلالته . فرأى أن يقص الحلم على أبيه أولاً . وأدرك يعقوب عليه السلام المغزى الحقيقى للحلم وأن ابنه يوسف سيكون له شأن عظيم . فأمره أن يكتم الخبر عن إخوته كما حدَّث بذلك القرآن الكريم - حتى لا يتخذ الشيطان من هذا الحلم مجالاً لوسوسة لهم بأن يكيدوا له ليتخلصوا منه .

ويمكننا أن نقول إن الحلم الأول كان مجرد تمهيد للحلم الأساسى وهو الحلم الخاص بسجود الكواكب . ولذلك فقد اقتصر القرآن الكريم على ذكره وهو الذى تحقق فى قابل الأيام من سجود إخوته وأبيه وأمه لما دخلوا عليه فى مصر .

لا ندرى هل التزم يوسف وهو فى هذه السن الصغيرة بأمر والده بكتمان هذا الحلم عن إخوته أم لا . ومن المرجح أنه بعد معرفة دلالة هذا الحلم شعر ببعض الثقة فى نفسه . ولعل إخوته أيضاً شعروا بتغير ما فى سلوكه . فلعله لم يعد يعبأ بمضايقاتهم له . أو لعله فى إحدى المرات رد عليهم قائلاً : غداً ستندمون على هذه الأقوال أو على هذه الأفعال . ولعلهم سخروا منه فقالوا له : ألعلّك حلمت حلماً آخر؟ فلم يتمالك نفسه إلا وقد أخبرهم بالحلم الثانى ليوقفهم عن سخريتهم به . ولابد أنهم قد أدركوا حقيقة المعنى الذى يشير إليه هذا الحلم . فالمعنى واضح . وهو أنه سيكون فى موقف القوة ويكونون هم منه فى موقف الضعف بحيث يسجدون له سجود تعظيم وإكبار . أيكون أن أباهم سيختصه بالبركة دونهم . وهم يعلمون أن أباهم يعقوب نبى . فهل سيتلقى يوسف النبوة عنه !

وحدثتهم أنفسهم - والنفس أمارة بالسوء - لئن حدث هذا حقاً لتكونن كارثة عليهم . وبدأ الشيطان وسوسته . وهم . وإن كانوا ناشئين فى بيت نبوَّة إلاَّ أنهم ليسوا معصومين عن وسوسة الشيطان . وعبَّر عن هذا يوسف عليه السلام فيما بعد بقوله :

« من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى » . (١٠٠ - يوسف)

واتفقوا على التخلص منه . وكان تشاورهم فى الكيفية التى يتم بها هذا الأمر . وجعلوا يفاضلون بين الطرق المختلفة للتخلص منه . وليقنعوا أنفسهم بصواب ما ينتوون ذكروا فيما

بينهم أنهم يريدون أن يكونوا بررة بأبيهم – لا يشعرون نحوه إلاّ بكل حب وتقدير وإحترام . وأن وجود يوسف وحب أبيه له هو الذى يثير حفيظتهم على أبيهم . ولكن بعد أن يختفى يوسف سيصفو لهم وجه أبيهم . وفى المقابل تصفى وجوههم أيضاً لأبيهم . ومن ثَمَّ لن يشعروا نحوه إلا بشعور الأبناء الصالحين البارين بأبيهم . وهكذا استقر رأيهم على التخلص من يوسف .

كانت المناقشة تدور للمفاضلة بين هل يقتلونه أم يرمونه فى بئر ويتركونه لمصيره . سواء مات من الجوع أو العطش أو التقطته بعض القوافل المارة . فتأخذه معها بعيداً عنهم .

« اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين . قال قائل منهم . لا تقتلوا يوسف . وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين » . (٩ – ١٠ – يوسف)

وهناك خلاف حول من قال : « **لا تقتلوا يوسف** »

قال مجاهد هو شمعون .

وقال السدى هو يهوذا .

وقال قتادة ومحمد بن اسحق : هو أكبرهم رأوبين .

وصرفهم الله عن قتله بمقالة أخيهم هذه وجعلهم يتجهون لإلقائه فى البئر .

بدأ التفكير بعد ذلك فى كيفية تنفيذ هذاالأمر . فإن يعقوب لا يطيق فراق يوسف . فكان لا يرسله معهم ليرعى الغنم . ولعل يعقوب عليه السلام كان يدرك حقيقة شعور أبنائه تجاه يوسف. وكان هذا من أحد الأسباب لعدم إرساله ليرعى الغنم معهم . فقد كان يخشى أن يصيبوه بأذى . لذلك كان أول تدبيرهم هو أن يجعلوا أباهم يطمئن إليهم حتى يرسله معهم . لذلك فإنهم خاطبوه مذكرين له بأنه أبوهم « **قالوا يا أبانا** » وهذا يتضمن أنه أبوهم كما أنه أبو يوسف أى أنهم إخوة . ليكون ذلك مدعاة لعدم الريب فيهم . وسألوه سؤال استفهام أو لعله سؤال استنكار عن سبب عدم إئتمانه لهم على يوسف مع أنهم يريدون له الخير وينصحون له بما ينفعه . فطلبوا منه أن يرسله معهم فى اليوم التالى يرتع أى يأكل ويشرب ما شاء . ومعناها أيضاً يلعب . وهذا ما يلائم حاله من صغر السن . وقرأ جعفر بن محمد : نرتع ويلعب . بمعنى نحن نرعى الغنم وهو يلعب . وقرأ مجاهد وقتادة وابن محيص الإثنتين بالنون : نرتع ونلعب* ولكن الجمهور قرأها « يرتع ويلعب » .

وقالوا إنهم سيحفظونه من أن يناله مكروه . قالوا ذلك بصيغة التأكيد – إنّ ولام التوكيد – « **إنا له لحافظون** » . وكان الجواب بنفس صيغة التوكيد – إن ولام التوكيد فقال لهم

---

* تفسير الألوسى . جزء ١٢ ص ١٩٢ .

« **إنه ليحزننى أن تذهبوا به** » لقلة صبره على مفارقة يوسف . وأخبرهم أنه يخاف عليه من أن يغفلوا عنه – فى رعى الغنم أو بلعبهم – فيأكله الذئب . فنفوا إمكانية وقوع هذا الأمر لأنهم جماعة قوية وعصبة . بمعنى أن لو ذهب بعضهم يرعى الغنم فسيتولى بعضهم حمايته . ولو سمحوا بحدوث هذا الأمر – وهو أن يأكله الذئب – فإن ذلك يعتبر سبة فى حقهم . وخسارة لهم لأنه أخوهم . وكأنهم يقولون باستحالة وقوع هذا الأمر . وأكدوه أيضاً بـ « إن ولام التوكيد » بقولهم « **إنا إذاً لخاسرون** » .

عبر القرآن الكريم عن هذا المشهد هكذا :

« **قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون . أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون . قال إنه ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون . فلما ذهبوا به ...** » . (١١ – ١٤ يوسف)

تذكر التوراة هذا الحدث على وجه آخر (إصحاح ٣٧ تكوين) :

ومضى إخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم . فقال إسرائيل ليوسف . أليس إخوتك يرعون عند شكيم . تعالى فأرسلك إليهم . فقال له هأنذا . فقال له : اذهب انظر سلامة إخوتك وسلامة الغنم وردَّ لى خبراً . فأرسله من حبرون فأتى إلى شكيم . فوجده رجل وإذا هو ضال فى الحقل . فسأله الرجل قائلاً ماذا تطلب ؟ فقال : أنا طالب إخوتى . أخبرنى أين يرعون ؟ فقال الرجل : قد ارتحلوا من هنا لأنى سمعتهم يقولون لنذهب إلى دوثان . فذهب يوسف وراء إخوته فوجدهم فى دوثان .

والرواية بهذا الشكل لا تتفق مع المنطق . إذ تجعل يعقوب هو الذى يرسل بنفسه يوسف إلى إخوته . الأمر الذى لا يتمشى مع شدة حبه له . وعلمه بحسد إخوته له وخوفه عليه منهم . كما أن المسافة بين حبرون وشكيم تبلغ ٨٨ كيلو متراً ثم من شكيم إلى دوثان ٢٤ كيلوا متراً أخرى . أى أن المسافة كلها من حبرون إلى دوثان تبلغ ١١٢ كيلو متراً (شكل ٨٨ ص ٤٤٩) . ومن غير المعقول أن يطلب يعقوب من إبنه ذى السبع أو حتى العشر سنوات أن يمشى هذه المسافة وحده. ولا يخاف عليه من أخطار الطريق . ولماذا؟ لكى يطمئنه على باقى أبنائه – وهم عشرة أشداء قادرون على حماية أنفسهم ! كما أنه من غير المنطقى أن يذهب إخوة يوسف لرعى غنمهم فى هذه المنطقة البعيدة . إلاَّ إذا جفت المراعى حولهم فيكون إرتحالاً إلى منطقة أخرى بخيامهم وأهلهم .

والأقرب للعقل أن إخوة يوسف كانوا يرعون الغنم على مقربة من حبرون ثم يعودون آخر النهار للمبيت فى حبرون .. وهذا ما سهّل مهمتهم فى إقناع أبيهم بالسماح لهم بأخذ يوسف معهم . إذ هو لن يغيب عنه إلاَّ طيلة يوم أو بعض يوم . ولو كان الغياب لعدة أيام لما وافق يعقوب .

ولقد كان القرآن الكريم دقيقاً فى هذه المسألة فى قوله تعالى :

« أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ......

.... وجاءوا أباهم عشاء يبكون » .

فهم لم يغيبوا إلاَّ ساعات النهار فقط .

بهذا التحايل من إخوة يوسف أمكنهم إقناع أبيهم بالسماح ليوسف بالذهب معهم .

– أثاروا فيه عاطفة الأبوة بقولهم : **يا أبت** .

– ثم تظاهروا بحرصهم على مصلحة يوسف نفسه – حيث يتمكن من الجرى واللعب كما يشاء : **يرتع ويلعب** .

– ثم أكدوا حرصهم ومحافظتهم عليه : **وإنا له لناصحون** .

– ولما أبدى تخوفه من أن يأكله الذئب بقوله :

« وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » .

نفوا إمكانية حدوث ذلك نفياً قاطعاً لكثرة عددهم **« ونحن عصبة »** .

فواجب المرء أن يدرس كافة الاحتمالات المتوقعة والمخاطر التى قد تحدث وينبه إليها حتى تؤخذ الحيطة اللازمة لتوقيها . ولكن الواجب أيضاً أن لا يغيب عن المرء أنه مهما أخذ من أسباب الحيطة فإن الأمر كله بيد الله وخاضع لمشيئته . فيرجو الحفظ من الله ذاته . فالأسباب بيده . إن شاء أنفذها وإن شاء عطلها . فلا يتم إلاَّ ما يشاء . قيل إن الله تعالى أوحى إلى يعقوب : أتدرى لم فرقت بينك وبين يوسف ؟ لأنك قلت : أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. لِمَ خفتَ الذئب ولَمْ ترجُنى ؟ ولِمَ نظرت إلى غفلة إخوته ولَمْ تنظر إلى حفظى له ؟

وهذا ما تلافاه يعقوب عليه السلام فيما بعد – حين طلب بنوه – فى المستقبل – أن يأخذوا أخاهم بنيامين . وقالوا نفس الكلام : **« وإنا له لحافظون »** . لم يقل مثلاً إنى أخاف أن يأخذه منكم قطاع الطرق . والمسافة طويلة من حبرون إلى مصر . وخاصة أنه صغير ولا يستطيع الدفاع عن نفسه – بل أوكل أمر الحفظ كلية إلى الله سبحانه وتعالى فقال :

« قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل . فالله خير حافظاً . وهو أرحم الراحمين » (٦٤ – يوسف)

يقال إن يعقوب عليه السلام ضم يوسف إليه قبل أن يذهب مع إخوته . كما أنه من المؤكد أن إخوة يوسف – فى أول مسيرتهم – كانوا يرحبون به ويضاحكونه ويتلطفون معه حتى يطمئن إليهم فلا يقفل راجعاً . ولعلهم ساروا ساعة من الزمان أو أكثر قطعوا فيها عشرة كيلومترات – فى الطريق الموصل إلى بئر سبع – حتى وصلوا إلى المكان الذى يرعون فيه . حول بئر يشربون منه إذا عطشوا ويستقون لأغنامهم أيضاً . وكانت البئر التى وقع عليها اختيارهم لإلقاء يوسف فيها على طريق القوافل . فلم يتخيروا بئراً مهجورة لعلمهم أنه سيموت جوعاً أو عطشاً فيها . وهم لم يقصدوا موته . بل كان هدفهم هو إبعاده بإلقائه فى بئر . حتى تلتقطه قافلة مارة فيأخذونه معهم ويبيعونه فى البلد المتجهين إليه .

« قال قائل منهم . لا تقتلوا يوسف . وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين » . (١٠ – يوسف)

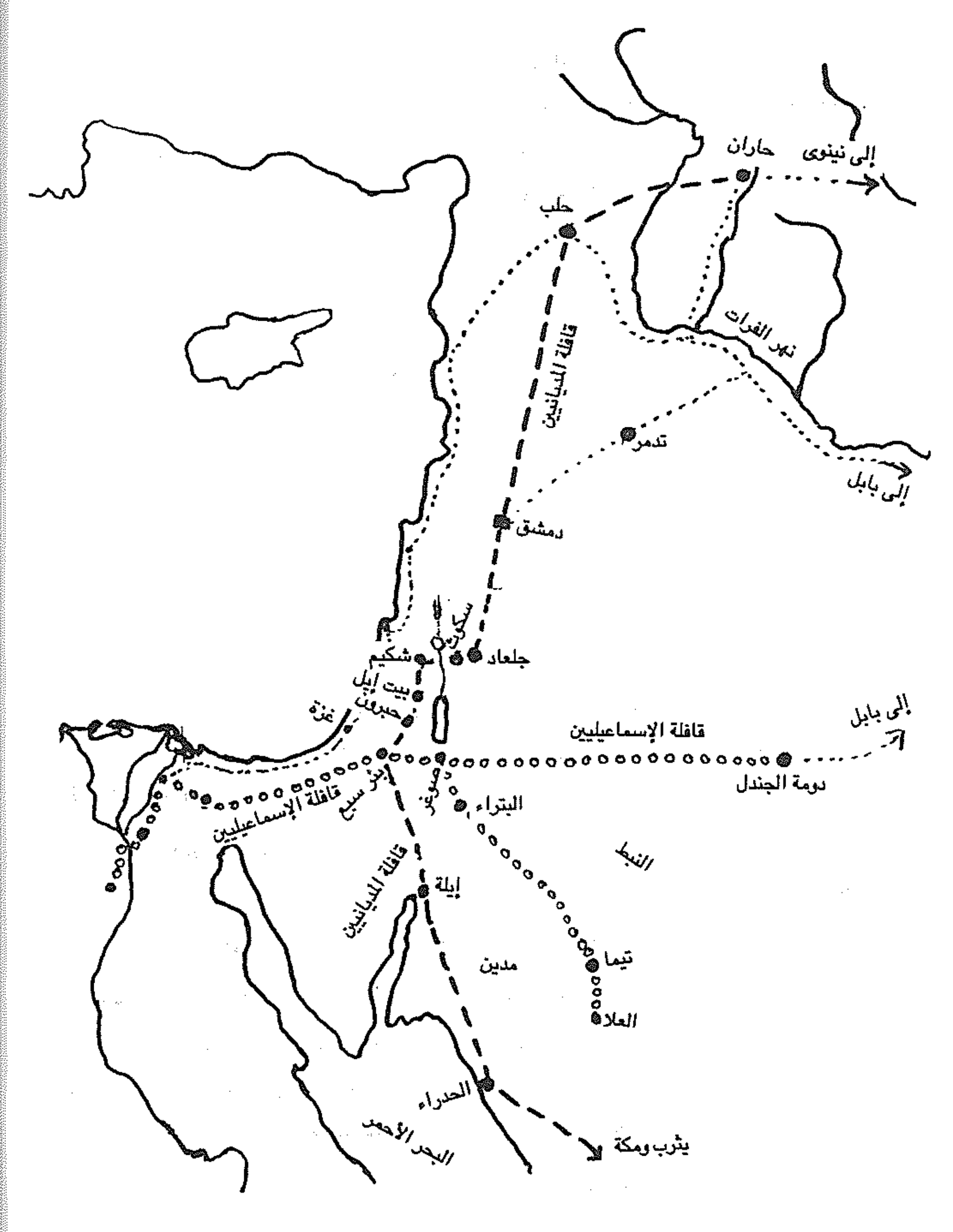
كانت طرق القوافل فى هذه المنطقة كثيرة كما هو مبين فى شكل ٨٧ – ولكن على ما يبدو كان فى ذلك الوقت شعبان يحتكران التجارة فى هذه المنطقة :

١ – **قوافل المديانيين** : تسير فى رحلاتها من أرض مدين . شرقى خليج العقبة إلى شمال سوريا . فتمر من بلدة الحدراء إلى إيلة . إلى بئر سبع . حبرون . بيت إيل . شكيم . ثم تعبر نهر الأردن عند مصب نهر يبوق إلى مدينة سكوث . ثم إلى راموث جلعاد . فدمشق . وحماة ثم حلب . ثم تقفل راجعة فى نفس الطريق . أى أنها تسير فى مجملها من الجنوب إلى الشمال وبالعكس .

٢ – **قوافل الإسماعيليين** : وطريقها من الشرق إلى الغرب تقريباً . منها ما يبدأ من دومة الجندل ومنها ما يبدأ من تيماء . ولعلها كانت تلتقى عند صوغر عند الطرف الجنوبى للبحر الميت . ثم تسير إلى بئر سبع . ثم تعبر شمال سيناء إلى مصر .

ولعل التنسيق كان يتم بين قوافل المديانيين والإسماعيليين بحيث يكون مرورهما ببلدة بئر سبع فى وقت واحد . فيتم التبادل التجارى بين القافلتين فيتيح لكل منهما الحصول على بضائع من بلاد لم يمروا عليها . فيتاح للإسماعيليين الحصول على بضائع دمشق . ويتاح للمديانيين الحصول على بضائع من مصر . وفى هذا توفير للجهد والمال .

نعود إلى قصة يوسف وقد ربطه إخوته بحبل وأدلوه فى البئر ثم ألقوا بالحبل كله فى البئر. وقيل قطعوا الحبل من نصف المسافة فسقط فى الماء فتشبث براعونة البئر حتى صعد فوقها . وراعونة البئر هى صخرة توجد فى وسط قاع البئر . فإذا قل الماء فى البئر أنزلوا شخصاً يقف فوقها ليملأ الدلاء . وبعد أن يستقى الجميع يرفعونه ثانية .



شكل ٨٧ – طرق القوافل فى المنطقة ....

قوافل الإسماعيليين ○○○○○○○○○○

قافلة المديانيين — — — — —

وهكذا جاهد يوسف حتى قام على راعونة البئر .

وكأنما أراد الله سبحانه وتعالى أن يخفف عن يوسف الذى هو فيه فأوحى إليه أن الله سيخرجه من هذا الضيق وسينصره عليهم . ويعلى درجته فوقهم . وسيأتى وقت يخبرهم بما فعلوا معه . وسيكون فى حال مختلف ومركز عظيم بحيث لا يعرفونه ولا يشعرون أنه هو يوسف أخوهم .

« فلما ذهبوا به . وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب . وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » . (١٥ - يوسف)

وقد تحقق هذا فى المستقبل . إذ قال لهم :

« قال هل علمتهم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون . قالوا أإنك لأنت يوسف . قال أنا يوسف وهذا أخى . قد من الله علينا . إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » . (٨٩ - ٩٠ يوسف)

وذكر الألوسى فى تفسيره* - عن حال يوسف لما ألقى فى البئر - حكايات لا شك أنها مختلقة وموضوعة . فقد قيل : وكان عند يعقوب قميص إبراهيم عليه السلام . الذى كساه الله تعالى إياه من الجنة حين ألقى فى النار . وكان قد جعله فى قصبة من فضة وعلقه فى عنق يوسف لما خرج مع إخوته . فلما صار فى البئر أخرجه ملَك وألبسه إياه . فأضاء له الجب !

وعن الحسن أنه لما ألقى فى البئر عذب ماؤها وكان يغنيه عن الطعام والشراب . وقيل نزل عليه جبريل عليه السلام يؤنسه . فلما أمسى مضى ليذهب . فقال له : إنى أستوحش إذا ذهبت . فقال : إذا رُمْتَ شيئاً فقل : يا صريخ المستصرخين . وياغوث المستغيثين ويا مفرج كرب المكروبين . قد ترى مكانى ، وتعلم حالى ، ولا يخفى عليك شىء من أمرى . فلما قالها يوسف عليه السلام حفته الملائكة عليهم السلام واستأنس بهم .

وقال محمد بن مسلم الطائفى : إنه عليه السلام لما ألقى فى الجب قال : يا شاهداً غير غائب ، ويا قريباً غير بعيد ، ويا غالباً غير مغلوب . اجعل لى فرجاً مما أنا فيه . وقيل كان يقول : يا إله إبراهيم وإسحق ويعقوب . ارحم ضعفى وقلة حيلتى وصغر سنى .

واخرج ابن مردوية عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما ألقى يوسف فى الجب أتاه جبريل عليه السلام فقال له : يا غلام . من ألقاك فى هذا الجب ؟ قال : إخوتى قال : ولم ؟ قال : لمودة أبى إياى حسدونى . قال : تريد الخروج من ههنا ؟ قال : ذاك إلى إله

---

* روح المعانى جزء ١٢ ص ١٩٧

يعقوب . قال : قل اللهم إنى أسألك باسمك المكنون المخزون . يا بديع السموات والأرض . يا ذا الجلال والإكرام . أن تغفر لى وترحمنى . وأن تجعل من أمرى فرجاً ومخرجاً . وأن ترزقنى من حيث احتسب ومن حيث لا يحتسب . فقالها . فجعل الله تعالى له من أمره فرجاً ومخرجاً ورزقه مُلك مصر من حيث لا يحتسب . ثم قال عليه الصلاة والسلام. ألظوا بهذه الكلمات فإنهن دعاء المصطفين الأخيار . وختم الألوسى بقوله : وقيل روايات كثيرة لكن ليس فيها ما له سند يعول عليه .

وواضح أن كل هذه الروايات موضوعة وهى مجرد تَصَوُّر لما كان عليه من ضيق . أو كأن لسان حاله يقول . بما قالوا . وعلى العموم فهى أدعية يمكن أن يتمثل بها المرء فى كل حال يكون به ضيق ويرجو المخرج باللجوء إلى الله .

أما إخوة يوسف فقد عادوا إلى أبيهم فى العشاء بين المغرب وعتمة الليل . جاءوه وهم يبكون وقالوا له إن الذئب أكل يوسف . إذ تركوه عند متاعهم وذهبوا هم الكبار ليتسابقوا . فأكله الذئب فى غيبتهم وقالوا له : ولن تصدقنا فى الذى أخبرناك من أكل الذئب له . ولو كنا غير متهمين عندك فيكف وأنت تتهمنا فى هذا فإنك خشيت أن يأكله الذئب وأكدنا لك أن ذلك لن يحدث لكثرتنا ومقدرتنا للتصدى له . فصرنا غير مصدَّقين عندك . ولو كنا صادقين . وكانوا قد عمدوا إلى شاة صغيرة فذبحوها وأخذوا من دمها ووضعوه على قميصه ليوهموا بأن ما رووه عن أكل الذئب له هو قصة حقيقية .

« وجاءوا أباهم عشاء يبكون . قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا . فأكله الذئب . وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب . قال : بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً . فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » . (١٦ - ١٨ يوسف)

ولعل يعقوب عليه السلام قد ارتاب فى روايتهم لعلمه بعداوتهم ليوسف وحسدهم إياه . وقيل : جعل يقلب فى القميص ويقول : ما أرى به أثر ناب ولا ظفر . إن هذا السبع رحيم . وفى رواية أخرى أخذ القميص وألقاه على وجهه وبكى حتى خضَّب وجهه بدم القميص وقال : تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا . أكل ابنى ولم يمزق قميصه !!

لم يكن أمام يعقوب عليه السلام إلا الصبر على مصيبته هذه فى فقد ولده الأثير لديه . والصبر الجميل – على ما روى الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم – ما لا شكوى فيه إلى الخلق . واستعان يعقوب بالله على هذا الحدث . الذى علم أن لا سبيل له فى دفعه . ويقال إنه كان عالماً بأن يوسف حى سليم . حيث سبق أن قال له : وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل

الأحاديث . ولابد لقضاء الله من أن يتم . فلابد أن يبقى يوسف حياً . ولرب قائل يتساءل : لماذا إذن لم يَجِدّ يعقوب فى البحث عن ابنه؟ قد يكون أنه أدرك أنه لو فعل هذا فقد يسبقوه إليه وقد يقتلونه فعلاً حتى لا يظهر كذبهم . لذلك رضى بأهون الأمرين وهو غيابه مع بقائه حياً . وفوض أمره لله . وترك الأمور لله يسيِّرها كيف يشاء .

فى صبيحة اليوم التالى لا شك أن أخوة يوسف لم يخرجوا للرعى تظاهرا منهم بالحزن على يوسف . وما حدث ليوسف بعد ذلك هو أنه بقى فى الجب طيلة ليلته هذه . وقيل ثلاثة أيام . ثم مرت قافلة . وسبق أن قلنا إن القوافل المارة على طريق حبرون بئر سبع هى قوافل المديانيين . وكانت عائدة من دمشق متجهة إلى بئر سبع . وأرسلوا واردهم . وهو الذى يرد الماء ويستقى لهم . فأدلى دلوه فى الجب ليستقى . فتشبث به يوسف .فأخرجه من البئر واستبشر وقال يا بشرى . وبعضهم قرأها يا بشراى . أى بإضافة البشرى إلى نفسه . وأسره الواردون من بقية القافلة السيارة وقالوا : اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء . مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره وأنه لُقْيَا . فيكون من أسرّوه بضاعة هم الوارد الذى ورد البئر ليستقى للقافلة .

ولعلهم سألوه عن كيفية وجوده فى البئر . فلم يشأ أن يخبرهم بالحقيقة إذ لن يصدقوا أن يفعل إخوة هكذا بأخيهم ! ولعله أخبرهم أنه كان قد ضل الطريق وعطش وأراد أن يشرب فسقط فى البئر . كما لم يشأ أن يخبرهم أنه من حبرون فقد كان زاهداً فى العودة لبيت أبيه وفيه إخوته – إذ لمس مدى تصميمهم على التخلص منه . وإن كانوا قد اكتفوا هذه المرة بإلقائه فى البئر . ولو عاد . فقد تكون محاولتهم الثانية للتخلص منه هى بالقتل . لذلك آثر أن يقول إنه ضل الطريق وسقط فى البئر . وصادف عدم إفصاحه عن بلده ولا عن أسرته هوى فى نفس من وجدوه . أو أنهم ظنوا أنه عبد هرب من سيده ولا يريد العودة ثانية له فأسرّوه . بضاعة .

وفى كلمة « **و أسرُّوه بضاعة** » نلمس ما ذكرناه فى ص ٤٣٥ – من « تعدد المعانى » وهو نوع من الإعجاز اللفظى للقرآن الكريم .

فقد ذكرنا آنفاً أنها تحتمل أن من أسرُّوه بضاعة هم وارد القافلة الذين جاءوا يستقون من البئر . احتمال آخر أورده البعض فقالوا إن إخوة يوسف جاءوا فى اليوم التالى* ليروا ما حل بيوسف . إذ خشوا أن يستطيع يوسف الخروج من البئر بأى وسيلة . أو يخرجه أحد ويتركه ليعود إلى بيته . فقرروا هم إخراجه من البئر . وأسرُّوا أمره وكتموا أن يكون أخاهم وباعوه بثمن بخس دراهم معدودة إلى قافلة المديانيين . احتمال ثالث وهو أنهم عند وصولهم إلى البئر فى اليوم التالى كان وارد قافلة المديانيين قد أخرجه فعلاً من البئر . فأنكروا معرفتهم به .

---

* تفسير ابن كثير . الجزء الثانى ص ٤٧٢ .

وفى رواية أخرى أنه قالوا للقافلة هذا غلام أبق لنا فاشتروه منا . فاشتروه . وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه . **وشروه** . إذا كان الفعل يعود إلى الإخوة فهو بمعنى باع . وإن كان عائداً إلى السيارة . فهو بمعنى اشترى . وكان الثمن دراهم معدودة كناية عن القلة . لأن الكثير كان يوزن عندهم وقيل فى عددها أرقام كثيرة . قالوا عشرة . وقالوا عشرين . وقالوا ثلاثين وقالوا أربعين درهماً .

« **وكانوا فيه من الزاهدين** » إن كان الضمير راجعاً إلى إخوة يوسف فلأنهم كانوا يريدون التخلص منه بأى وسيلة وبأى ثمن . وإن كان الزهد راجعاً إلى وارد السيارة فلأنهم التقطوه والملتقط للشىء متهاون فيه لا يبالى بكم باعه لأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه منه فهو يعجل ببيعه لأول مشتر وبأى سعر .

وأغلب الظن أن قافلة المديانيين حين التقطوه من البئر خافوا أن يجىء أحد من أهله للبحث عنه . ومن السهل تتبع قافلتهم ومحاوله استرداده منهم . فما إن قابلوا قافلة الإسماعيليين فى بئر سبع (شكل ٨٨) حتى باعوه لهم - محاولة لتضليل من يريد تتبعهم لإسترداده . وكان المديانيون فيه من الزاهدين لرغبتهم فى التخلص منه .

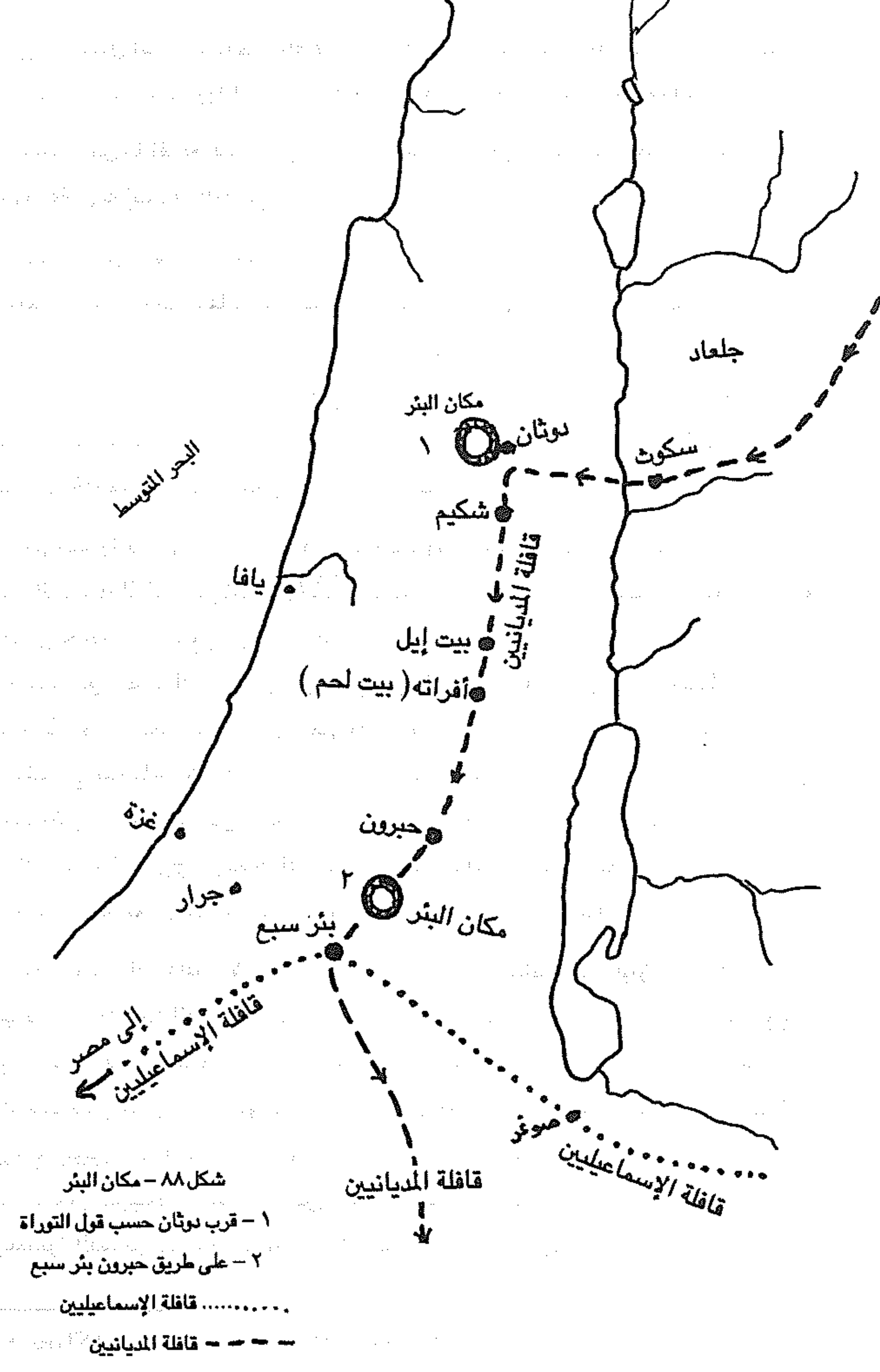
وقالوا إن الزاهدين فيه كانوا الإسماعيليين حين باعوه فى مصر .

« **وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم . فأدلى دلوه . قال يا بشرى هذا غلام . وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة . وكانوا فيه من الزاهدين** » . (١٩ - ٢٠ - يوسف)

سبق أن ذكرنا أن السرد التوراتى للقصة يتبنى القول بأن يعقوب عليه السلام هو الذى أرسل يوسف ليأتيه بخبر إخوته الذى كانوا يرعون أغنامهم عند شكيم . ولم نأخذ بهذا الرأى وعارضناه . أما الذين اعتنقوا هذا الرأى فيروون حكاية خيالية . من أن القافلة وهى متجهة جنوباً من دوثان تمر على شكيم ثم بيت إيل ثم أفراته التى دفنت فيها راحيل والدة يوسف . فيقولون إنه لما مرت القافلة بقبر أمه لم يتمالك أن رمى بنفسه على القبر واعتنقه وجعل يبكى ويقول* : يا أماه ارفعى رأسك من التراب حتى ترى ولدك مقيداً . يا أماه إخوتى فى الجب طرحونى . ومن أبى فرقونى . وبأبخس الأثمان باعونى . ولم يرقوا لصغر سنى ولم يرحمونى . فأنا أسأل الله تعالى أن يجمع بينى وبين والدى فى مستقر رحمته . إنه أرحم الراحمين . وتستمر الرواية قائلة إن عبداً ممن كانوا يخدمون القافلة لطمه لطمة شديدة على وجهه . فبكى . فأدركه جبريل عليه السلام . فضرب الأرض بجناحه فهبَّت ريح حمراء كسفت الشمس وأظلمت

---

* تفسير الألوسى : جزء ١٢ ص ٢٠٦ .



شكل ٨٨ – مكان البئر

١ – قرب دوثان حسب قول التوراة

٢ – على طريق حبرون بئر سبع

.... قافلة الإسماعيليين

– – – – قافلة المديانيين

الغبراء . فقال التاجر صاحب القافلة : هذا الذى أصابنا بذنب اقترفه أحدكم . فاعترف العبد بضرب يوسف . فاعتذروا له وطيبوا خاطره . فعفا عنهم . فسكتت الريح وأسفرت الشمس .

ونستكمل ما تقوله التوراة (إصحاح ٣٧ تكوين) من أن يوسف وصل إلى شكيم وسأل عن إخوته فقيل له إنهم انتقلوا إلى دوثان . فذهب يوسف وراء إخوته فوجدهم فى دوثان .

فلما أبصروه من بعيد قبلما اقترب إليهم احتالوا له ليميتوه . فقال بعضهم لبعض : هو ذا صاحب الأحلام قادم . فالآن هلم نقتله ونطرحه فى إحدى الآبار ونقول وحش ردىء أكله . فنرى ماذا تكون أحلامه . فسمع رأوبين وأنقذه من أيديهم وقال لا نقتله . وقال لهم رأوبين لا تسفكوا دماً . اطرحوه فى هذه البئر التى فى البرية ولا تمدوا إليه يداً لكى ينقذه من أيديهم ليرده إلى أبيه . فكان لما جاء يوسف إلى إخوته أنهم خلعوا عن يوسف قميصه . القميص الملون الذى عليه . وأخذوه وطرحوه فى البئر . وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء .

ثم جلسوا ليأكلوا طعاماً . فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة من جلعاد. وجمالهم حاملة كُثَيْرَاء وبَلْسَاناً ولاذَناً (الكثيراء نوع من الصمغ يسيل من نبات إسمه شوكة المعزى حاملة الصمغ ينمو فى أعالى جبال تركيا وسوريا ولبنان وفلسطين . والبلسان هو العصارة أو البلسم الذى يسيل عن جرح شجرة البلسان بفأس . وشجر البلسان موطنه الأصلى الحبشة . ويبلغ علو الشجرة ٤٫٥ متر تقريباً وكان فى أرض جلعاد نوع من هذا الشجر . وكان يستخرج منه بلسان جلعاد المشهور برائحته العطرة . وكانت له منافع عظيمة فى شفاء الأمراض والجروح . وكان التجار يحملونه إلى مصر إذ كان يستعمل فى عملية التحنيط . واللاذن صمغ يخرج من نبات القاستوس . ترعاه الماعز . فكان يعلق بشعرها ولحاها . فكان القدماء يجمعونه لفوائده الطبية فهو ملين ومفتح لأفواه العرق ونافع للسعال)* .

نعود ثانية إلى قافلة الإسماعيليين حاملة كثيراء وبلساناً ولاذناً لينزلوا بها إلى مصر . فقال يهوذا لإخوته . ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفى دمه . تعالوا فنبيعه للإسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمنا . فسمع له إخوته . واجتاز رجال مديانيون تجار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة . فأتوا بيوسف إلى مصر . ورجع رأوبين إلى البئر . وإذا يوسف ليس فى البئر . فمزق ثيابه . ثم رجع إلى إخوته وقال الولد ليس موجوداً . وأنا إلى أين أذهب . فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيساً من المعزى وغمسوا القميص فى الدم . وأرسلوا القميص الملون وأحضروه إلى أبيهم . وقالوا وجدنا هذا .

---

* قاموس الكتاب المقدس . دار الثقافة ص ١٨٨ – ٧٧٤ – ٨١٤

حقق . أقميص ابنك هو أم لا ؟ فتحققه وقال : قميص ابنى . وحش ردىء أكله . افترس يوسف افتراساً . فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً على حقويه . وناح على ابنه أياماً كثيرة . فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه . فأبى أن يتعزى . وقال إنى أنزل إلى ابنى نائحاً إلى الهاوية . وبكى عليه أبوه . وأما المديانيون فباعوه فى مصر .

ونلمس إعجاز اللفظ القرآنى فى اختصاره للقصة فى كلمات قليلة مضيفاً إليها المشاعر التى كانت تعتمل فى النفوس . فإخوة يوسف حينما قدموا على أبيهم بهذه القصة المزيفة كانوا يشعرون فى قرارة نفوسهم أنه لن يصدقهم . ويعقوب عليه السلام – بعكس ما أوردته التوراة – علم بزيف القصة وكذبها . ولكن لم يكن أمامه إلا التسليم بالأمر الواقع والاستعانة بالله على هذا المصاب الذى ألم به . ولا نصدق ما أوردته التوراة من أنه مزق ثيابه . وناح على ابنه أياماً كثيرة . فهو نبى كريم . والنواح أو إظهار الحزن الشديد أو تمزيق الثياب ليس من شيمة الأنبياء ويخبرنا الله سبحانه وتعالى قول يعقوب .

« **فصبر جميل** » والصبر الجميل هو ما لا جزع فيه . كذلك فإنه استعان بالله على هذا البلاء « **والله المستعان على ما تصفون** » كذلك يخبرنا الله تعالى أن يعقوب عليه السلام قد فطن إلى كذب روايتهم فقال لهم : « **بل سولت لكم أنفسكم أمراً** » .

كذلك نلمس مدى اضطراب كاتبى التوراة فى سرد القصة (إصحاح ٣٧) .

– فمرة إخوته هم الذين سحبوه من البئر وباعوه للإسماعيليين (فقرة ٢٧) .

– ومرة أن التجار المديانيون هم الذين سحبوا يوسف من البئر (فقرة ٢٨) .

– وأن المديانيون باعوه للإسماعيليين . فأتوا بيوسف إلى مصر (فقرة ٢٩) .

– ومرة أن المديانيون هم الذين باعوه فى مصر إلى فوطيفار (فقرة ٣٦) .

مصر وقت مجيء يوسف إليها

جاء يوسف إلى مصر مع قافلة الإسماعيليين . كان عمره وقتها حوالى خمسة عشر عاماً . وكان مصر يحكمها الهكسوس مكونين الأسرة السادسة عشرة وفى وقت أحد ملوكها المدعو «أبابى الأول » . وقد وجدت لوحة أثرية عبارة عن شاهد مقبرة ذكر فيها إسم « فوتى فارع » وهى تعنى « عطية الإله رع » وهو المذكور فى التوراة « فوطيفار » عزيز مصر (رئيس وزرائها أو قائد الشرط أى وزير الداخلية) فى ذلك الوقت . ويجمل هنا أن نذكر نبذة عن الهكسوس وكيف استولوا على حكم مصر .

الأسرة الثانية عشرة :

لا بأس من إعادة تذكرة القارىء بما سبق أن ذكرناه فى الجزء الثانى ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ من أن الأسرة الـ ١٢ بدأت حكمها فى سنة ٢٠٠٠ ق . م . بالملك أمنمحيت الأول . ثم سنوسرت الأول . ثم أمنمحيت الثانى ثم سنوسرت الثانى الذى حكم فى الفترة من ١٩٠٤ - ١٨٨٨ ق . م. وفى عام ١٨٩٨ ق . م . كانت زيارة إبراهيم عليه السلام لمصر كما سبق أن ذكرنا . وقد كانت هذه الفترة فترة ازدهار وكان أوج الرخاء فى عهد سنوسرت الثانى . ثم تولى بعده سنوسرت الثالث وأمنمحيت الثالث ثم أمنمحيت الرابع . وكانت بوادر اضطراب الأمن الداخلى بدأت تظهر . ثم بعد أمنمحيت الرابع تولت أخته الحكم وحاولت أن تهتدى بسياسة من سبقوها فى التعمير واستتباب الأمن ولكنها لم تفلح ولم يدم حكمها إلاَّ ثلاثة أعوام . وانتهت بنهايته حكم الأسرة الثانية عشرة . وفى هذه الفترة بدأت جماعات كثيرة من البدو تعبر الحدود الشمالية الشرقية . للرعى فى شمال سيناء وفى المراعى الصحراوية شرقى الدلتا .

أعقب ذلك حكم الأسرة الثالثة عشرة بملوك من غير البيت الملكى . وظهرت بوادر انقسام البلاد . إذ كان يحدث أن يوجد ملكين فى آن واحد . أحدهما يحكم من طيبة والآخر يتخذ عاصمة أخرى . وكان يثب على العرش ملوك كثيرون وزاد تفتت البلاد . وكان آخر ملوك الأسرة الثالثة عشرة يسمى ددوموس (توتيمايوس) . وفى عهده - على ما يقال - تغلب الهكسوس على مصر . كان ذلك فى العام ١٧٨٠ ق.م. تقريباً . وإن كان البعض يؤخر هذا التاريخ إلى العام ١٧٣٠ ق.م. (انظر صفحة ٤٥٧) .

الهكسوس :

لم يكن دخول الهكسوس مصر حدثاً محلياً بل كان مرتبطاً أو نتيجة لما كان يحدث فى منطقة الشرق الأدنى القديم .

كان **الحيثيون** قد كونوا مملكتهم فى جنوب شرق آسيا الصغرى فى حوالى العام ٢٠٠٠ ق . م . بواسطة ملكهم « خيتاس » ثم جاء بعده « خاتى » ومد نفوذه إلى حلب والإسكندرونة وشمال الشام . ثم هاجم بابل وبسط نفوذه عليها واستولى كذلك على الدويلات الأرامية فى شمال الشام . واضطر الأراميون للهجرة فى اتجاه الجنوب (شكل ٨٩) .

ثم تقدم **الكاشيون** من إيران واستولوا على بابل وطردوا الأموريين . (شكل ٩٠) ولما ضعف الحيثيون قامت دولة ميتانى فطردت الحيثيين من حلب والشام وبسطت نفوذها على أرض كنعان (شكل ٩١) .

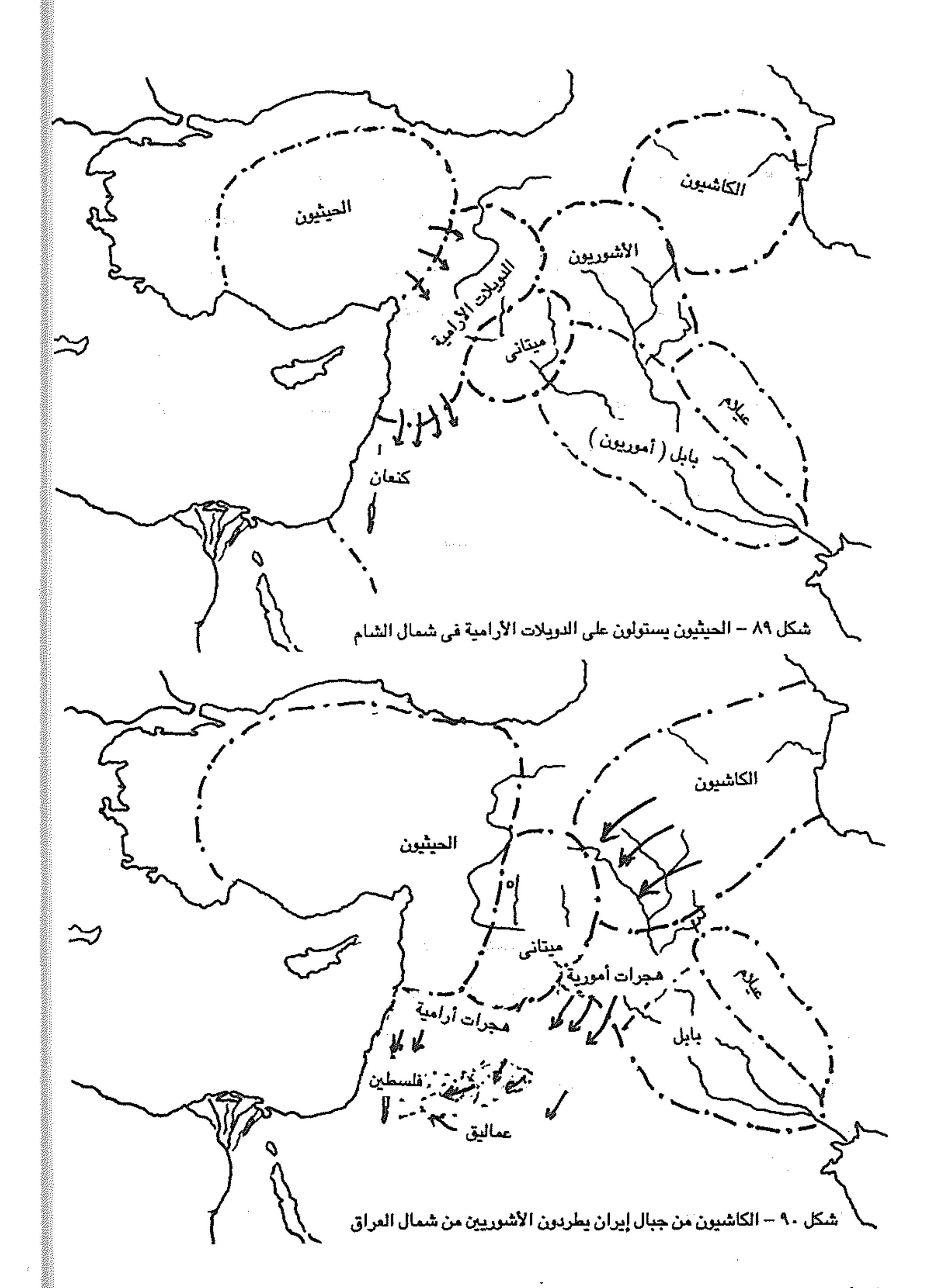
فى كل هذه الحروب كانت تحدث هجرات للشعوب المغلوبة إذ يستولى الجدد على أرضهم فيهيمون فى البادية حتى يغيروا هم بدورهم على شعب أضعف منهم ويستولوا على أرضه .

وهكذا اندفع البدو الرعاة – وهم من أصل سامى – من الشام – وكان أغلبهم من الأموريين . وانتظم فى صفوفهم بعض من سكان فلسطين وهم الكنعانيون . وبتأثير الضغط الواقع عليهم من الشمال اندفع الجميع إلى حدود مصر الشمالية الشرقية . وكانت أحوال مصر الداخلية غير مستقرة كما ذكرنا . وتفتت وحدة البلاد زاد الأمر سوءاً . فلم يكن هناك من يصد هؤلاء البدو المغيرين . فتقدموا واحتلوا شمال سيناء . ثم تقدموا إلى الدلتا وحكموا أجزاء كثيرة منها باسم « الهكسوس » .

يرى سير آلن جاردنر – العالم الحجة فى اللغة المصرية القديمة – أن كلمة **هكسوس** مشتقة من إصطلاح « حقاخست » أى رئيس البلد الأجنبية الجبلية أو بمعنى آخر «مشايخ البدو » أو « حكام البلاد الأجانب » .

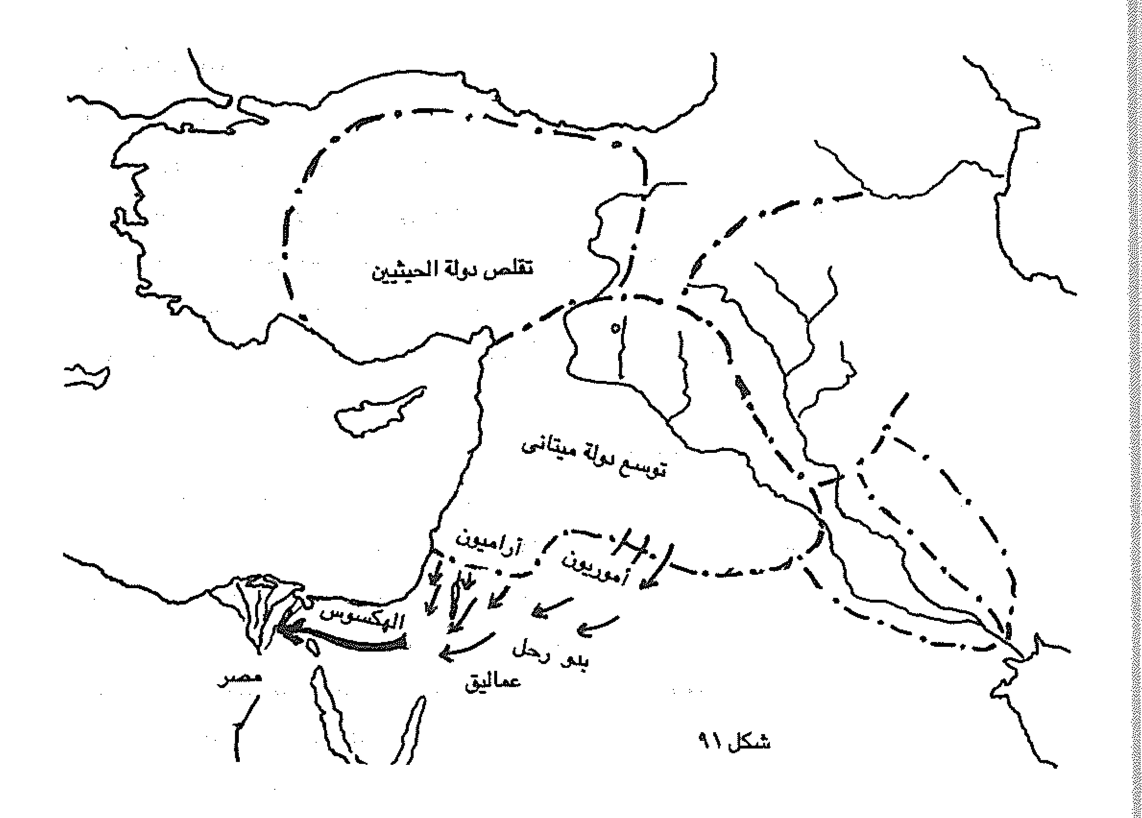
وقيل أيضاً أن « هك » تعنى فى اللغة المقدسة : ملك . وأن « سوس » تعنى فى اللغة الدارجة: راعى فكلمة « هكسوس » تعنى « الملوك الرعاة » .

وكان من عوامل انتصارهم على المصريين ما بأيديهم من أدوات حربية مثل العربات التى تجرها الخيول . وهى عامل مهم حيث أنها تمزق صفوف المشاة . كذلك استعمالهم الأسلحة البرونزية الصلبة التى لم يعرفها المصريون . ولقد دلت اكتشافات حديثة على أن المصريين عرفوا صناعة البرونز منذ الدولة الوسطى . ولكنهم لم يستخدموه فى صنع الأسلحة وكذلك عرفوا فكرة العجلات أو الطارات المستديرة منذ النصف الثانى للدولة القديمة واستخدموها فى



شكل ٨٩ – الحيثيون يستولون على الدويلات الآرامية فى شمال الشام

شكل ٩٠ – الكاشيون من جبال إيران يطردون الأشوريين من شمال العراق



شكل ٨٩ – الحيثيون يستولون على الدويلات الأرامية فى شمال الشام فتحدث هجرات أرامية فى إتجاه الجنوب

شكل ٩٠ – الكاشيون من جبال إيران يطردون الأشوريين من شمال العراق ويدفعونهم إلى بادية الشام وتحدث هجرات أمورية من وسط العراق

شكل ٩١ – توسع دولة ميتانى فتعيد الحيثين إلى آسيا الصغرى وتستولى على وسط العراق وتحدث هجرات الأموريين وهذه تدفع العماليق فى إتجاه الغرب ويتجمع الكل فى جنوب فلسطين ويتكون منهم الهكسوس الذين يغزون مصر

دفع سلالم الحصار الكبيرة . ولكنهم لم يستعملوها فى صنع عربات حربية تجرها الخيول . إذ لم تعرف الخيول بمصر إلاَّ فى أوائل الدولة الحديثة . ويتفق ذلك مع ما ذكرناه فى الجزء الثانى (ص ٣٤٤) من أن إسماعيل عليه السلام فى شبابه كان أول من استأنس الخيل الوحشية وركبها ورجحنا فى صفحة ٣٩٣ أن ذلك كان سبباً فى الانتشار الواسع لأبناء إسماعيل إذ شغلوا كل الأراضى التى كانت متاحة أمامهم فى البادية : بادية العراق وبادية الشام والأردن وكل النصف الشمالى للجزيرة العربية . وأجزاء من فلسطين وسيناء . كذلك قلنا (ص ٣٩١) إن إسماعيل لما علم بوفاة والده – إبراهيم عليه السلام – فى حبرون . ذهب لتقديم واجب العزاء لأخيه إسحق . وليزور قبر والده . ولا شك أنه كان يمتطى الخيل فى هذه الزيارة – ومن المحتمل أن الكنعانيين الساكنين فى فلسطين . أخذوا الخيل عنه أو عن أبنائه . ومن ثم توافر للهكسوس العجلات والخيل فجمعوا بينهما فى العربات الحربية . وقيل أيضاً إن أوائل الهكسوس لم يدخلوا مصر بالخيل والعربات الحربية منذ بداية أمرهم . وإنما وفدت بها جماعات قوية أتت بعد تسرب أوائلهم إلى مصر بفترة . وأن أهم عدد الحرب الجديدة التى أعانت الغزاة هى الدروع المصنوعة من البرونز وهى التى أكسبتهم مناعة وثقة – والأقواس المركَّبة المصنوعة من طبقات الخشب ومن الأوتار الشديدة فكانت ترمى بقوة وإلى مدى أبعد من مرمى الأقواس المصرية القديمة . وعلى ذلك فقد كانت هذه الأدوات الحربية الجديدة . من دروع وأقواس وعربات حربية بالإضافة إلى عوامل التفكك الداخلى فى مصر . هى التى يسرت للهكسوس سبيل الغلبة والانتصار* .

أما وقع الغزو على المصريين فكان مؤلماً ويمكن أن نستشفه مما كتبه أحدهم على بردية جاء فيها :

فى عهد توتيمايوس أصابتنا جائحة على حين غفلة لسبب لا أعرفه من إقليم الشرق . فقد انقضَّ غزاة من أصل غامض على أرضنا واستولوا عليها بالقوة الغاشمة . دون أن يضربوا ضربة واحدة . وبعد أن أخضعوا حكام البلاد . أحرقوا بعد ذلك مدننا دون رحمة . وهدموا المعابد . وعاملوا الناس بغلظة . قتلوا البعض . وسبوا النساء والأولاد وأخيراً نصبوا ملكا منهم يدعى ساليتس . وكان مقر حكمه منف . وفرض الضرائب على أهل البلاد

وتقول بردية كتبت فى عهد الأسرة التاسعة عشرة عن عهد الهكسوس** :

وقعت مصر فريسة لعدو ماكر . ولم يكن يحكم البلاد فيها ملك . وكان « سقنن رع » يحكم قطاعات الجنوب بينما يربض العدو فى الشمال . ومكث ملكهم فى أواريس حيث كانت تجبى له

* دكتور عبد العزيز صالح . الشرق الأدنى القديم – الجزء الأول ص ٢٠٧ .

** مصر والشرق الأدنى القديم . د . نجيب ميخائيل إبراهيم . جزء ١ ص ٣٢٣ .

الضرائب ويؤتى بها من أنحاء البلاد شمالاً وجنوباً .

أما نصوص « أسطبل عنتر » التى كتبت فى عهد « حتشبسوت » فتقول :

إن شعب «العامو» دخل من الشرق ومكث فى الشمال وجعل ملكهم من « حت وعرت » عاصمة له وهدم كل ما كان قد شيدته أيدى المصريين .

وكتب المؤرخ المصرى القديم مانيتون يقول :

كيف . لا أدرى . عصف بنا غضب الرب . ووفد غزاة من الشرق مجهولو الأصل إلى أرضنا دون توقع . وكلهم أمل فى النصر . فهاجموها عنوة واستولوا عليها بسهولة . وتغلبوا على حكامها . وحرقوا مدننا فى وحشية وسوُّوا معابد الأرباب بالأرض وعاملوا المواطنين بخشونة وفظاظة . وذبحوا بعضهم . واسترقوا نساء بعض آخر وأطفالهم .

يختلف المؤرخون فى السنة التى دخل فيها الهكسوس مصر .
يرى دكتور عبد العزيز صالح أنها سنة ١٧٣٥ ق . م .
بينما يرى دكتور محمد شفيق غربال أنها سنة ١٧٣٠ ق . م .
ويرى الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم أنها سنة ١٧٨٠ ق . م .

والرأى الأخير أى سنة ١٧٨٠ ق . م . يتمشى مع تسلسل الأحداث والتواريخ . ويتفق مع وقت زيارة إبراهيم عليه السلام لمصر التى كانت فى عام ١٨٩٨ ق . م .

استولى الهكسوس على أجزاء كبيرة من الدلتا وجزء كبير من الوجه القبلى . إلاَّ أن بعض الأمراء المصريين ظلوا متمسكين بحكم ولاياتهم فى غرب الدلتا وأعالى الصعيد . وإن كانوا خاضعين للغزاة ويؤدون لهم الجزية . واتخذ الهكسوس عاصمة لهم على الفرع التانيسى للنيل أسموها تانيس (أفاريس باليونانية) صان الحجر حالياً . مركز فاقوس . شرقية .

فى أول الأمر كان الهكسوس يعاملون المصريين بغلظة . ودمروا كثيراً من مبانيهم ومعابدهم . ولكنهم ما لبثوا أن حاولوا التقرب إلى المصريين فقلدوا الفراعنة فى أسمائهم وأزيائهم وعاداتهم ولغتهم بل وديانتهم وسموا أنفسهم أبناء رع . وشيدوا المعابد ودونوا أسماءهم عليها مثل « سرسر رع » و« عاد سر رع » وإن ظلوا يحتفظون بأسمائهم الأصلية مثل «خيان» و« أبو فيس » .

كان الهكسوس قبليين فى مجموعهم . اعتادوا على أسلوب الإمارات المنفصلة لذلك كان اثنان أو ثلاثة من حكامهم يحكمون فى وقت واحد . كُلٌّ فى مقاطعة . لذلك تعددت أسماء الحكام

فى العهود الأولى تعدداً كبيراً . إلاّ أنهم بعد مدة بدأوا ينضوون جميعاً تحت حكم واحد منهم . كذلك ظلت أجزاء فى غرب الدلتا وأعالى الصعيد تحت حكام مصريين . وجرى العرف بتسمية عصرهم باسم الأسرة ١٣ ، ١٤ على الرغم من أنهم كانوا معاصرين للهكسوس والذين جرى العرف على تسمية عصرهم بالأسرة ١٥ ، ١٦ . وبسبب كثرة الملوك الذين كانوا يحكمون فى وقت واحد يصعب وضع جدول زمنى لتتابعهم . كذلك بسبب تعرض معابد المصريين للتخريب بأيدى الهكسوس وكذلك بسبب تعرض ما بناه الهكسوس للهدم بعد طردهم من البلاد . فقد ضاع ما كان مدوناً عن هذه الفترة . إلا أن علماء التاريخ أمكنهم وضع تصور لما حدث كالتالى :

ظل أمراء مصريون يحكمون فى **طيبة** مكونين **الأسرة الثالثة عشرة** وصلنا من أسمائهم ٧ أو ٨ ملوك . وإن كان العدد أكبر من ذلك لأن الضباط فى عهد هذه الأسرة كانوا كثيرو المشاحنات فيما بينهم . وكل منهم يطمع فى العرش . وقد يعتليه لفترة ثم يتغلب عليه آخر. وهكذا . وكان آخر ملوك هذه الأسرة هو دودمس أو توتيمايوس السابق الإشارة إليه .

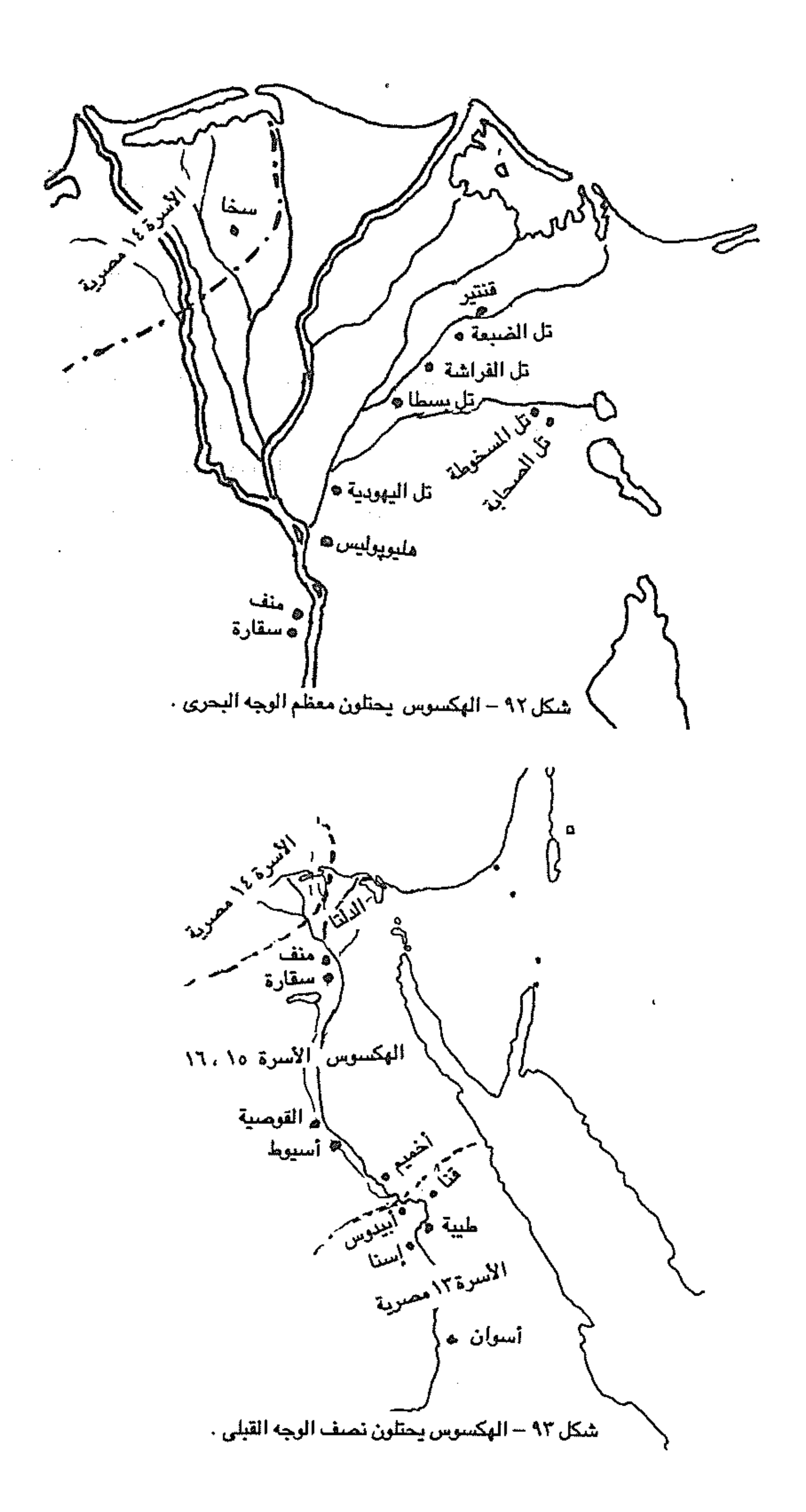
أما **الأسرة الرابعة عشرة** فكان ملوكها يحكمون **الجزء الغربى من الدلتا** واتخذوا من **سخا** (بجوار كفر الشيخ الحالية) عاصمة لهم (شكل ٩٢) . وكان من ملوكهم الملك نحسى . وقد وجد له تمثال مكتوباً عليه «محبوب الإله ست » صاحب « أواريس » . وأواريس هى عاصمة الهكسوس . وهذا يدل على أنه كان خاضعاً لنفوذ الهكسوس الذين كانوا يحكمون شرق الدلتا .

قلنا إن **الهكسوس** حكموا شرق الدلتا مكونين **الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة** ، واتخذوا عاصمتهم على الفرع التانيسى . كانت البلدة فى الدولة الوسطى اسمها « حوت وعرت » وكانت تعرف أيضاً باسم «أواريس » وسماها الهكسوس **« تانيس »** . وبعد طرد الهكسوس هدم المصريون المدينة . ثم أعاد رمسيس الثانى بناء مدينة له على أنقاضها سماها «بر رعمسيس »وجعلها عاصمة له .

إن تعدد الملوك وعدم دقة التدوين التى وصلتنا عن هذه الفترة ، جعلت علماء التاريخ لا يتفقون على قائمة واحدة بأسماء الملوك سواء من الهكسوس أو المصريين ولكننا سنأخذ بما قاله الدكتور سليم حسن* . وهو حجة عالمية فى علم المصريات . والقائمة التى وصفها لملوك الهكسوس هى كالتالى :

---

* مصر القديمة . دكتور سليم حسن . جزء ٤ ص ٨٣ .



شكل ٩٢ – الهكسوس يحتلون معظم الوجه البحرى .

شكل ٩٣ – الهكسوس يحتلون نصف الوجه القبلى .

١ – سمقن رع
٢ – عانت هر
٣ – خيان
٤ – بنون
٥ – أبا خناس
٦ – أبو فيس
٧ – يناس
٨ – أسيس

وأشهرهم هو «خيان» وفي عصره جاء يوسف إلى مصر .

قلنا إن الهكسوس إتخذوا عاصمتهم وسموها تانيس . وكانت تقع على الفرع التانيسى للنيل . وقد اختاروا هذا الموقع للعاصمة على أساس وقوعها وسط المهاجرين الأسيويين الذين كانوا يسكنون شمال سيناء وشرق الدلتا منذ أمد طويل . ولوجود كثبان رملية تحميها . ثم على أساس قربها من المواطن التى قدموا منها وهى الشام وفلسطين .

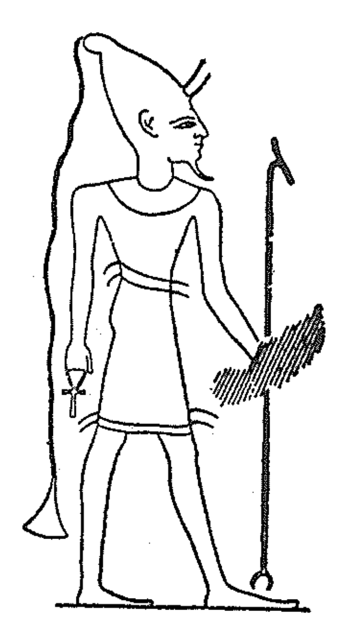
بدأ الهكسوس يمدون نفوذهم بالتدريج فى مصر العليا حتى وصلوا إلى القوصية ١٥ كم شمال أسيوط (شكل ٩٣) . ولم يمتد نفوذهم إلى أبعد من ذلك جنوباً اللهم إلا فى إحتلال مؤقت لإقليم « بى حتحور » – بلدة «الجبلين» ١٨ كم شمال إسنا .

ويعتبر « **خيان** » أهم ملوك الهكسوس . وأكثر من ترك آثاراً لا فى مصر وحدها . بل فى البلاد المجاورة مثل فلسطين وسوريا . وهذا يدل على وجود صلات قوية بين الهكسوس وبين أجدادهم فى موطنهم الأصلى . وقد وجد فى بلاد ما بين النهرين – تمثال من الحجر الأسود لأسد رابض حفر عليه إسم « خيان » . وقد اشتراه المتحف البريطانى من تاجر تحف يجهل مصدره . وليس ببعيد أن أحد التجار نقله من مصر حيث بقى هناك إلى أن وجد . كذلك وجد إسم « خيان » مكتوباً على عدد من الجعول . ووصف بأنه « رئيس البلاد الأجنبية . خيان » كما وصف على بعضها بأنه « ابن رع » وسُمِّىَ : أيضاً « ساوسر إن رع » . كذلك وجدت كتلة من الحجر عليها اسمه فى الجبلين فى أقصى الجنوب . لذلك فالأغلب أنه هو الذى مد نفوذ الهكسوس إلى الجنوب . ويقال إن مدة حكمه بلغت ٥٠ عاماً . وكان حكم الهكسوس فى عهده قد استقر – ورضى أمراء الأسرة الثالثة عشر فى طيبة – وأمراء الأسرة الرابعة عشرة فى غرب الدلتا – بالولاء للهكسوس ودفع الجزية لهم .

وكان وصول يوسف إلى مصر فى عهده . وكان رئيس وزرائه هو «فوتى فارع» والذى تسميه التوراه «فوطيفار» .

المعتقدات الدينية عند الهكسوس :

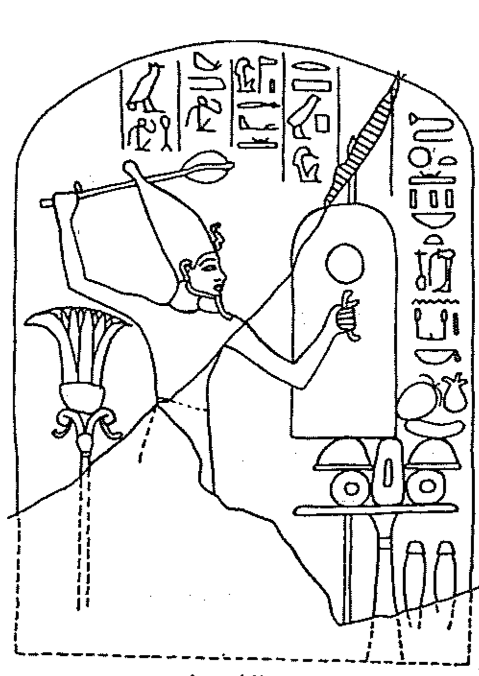
جاء الهكسوس بآلهتم « **سوتخ** » (شكل ٩٤) و « **بعل** » (شكل ٩٥) والإله « **رشب** » (شكل ٩٦) وكلها آلهة حرب . وتجاهلوا « رع » إله المصريين .



شكل ٩٤ – « سوتخ » إله الهكسوس
ويميزه القرنان الصغيران فى مقدمة التاج
ومايتدلى من قمة التاج على هيئة ضفيرة



شكل ٩٥ – الإله « بعل »



شكل ٩٦ – الإله « رشيو »

ولكن بعد مضى وقت من الحكم . ولمحاولة التقرب إلى المصريين بحثوا عن الإله المصرى الذى يشبه إلههم « سوتخ » وكان ذلك هو « ست » . فاتخذ الهكسوس الإله « **ست** » معبوداً رئيساً لهم فى تانيس .

والحقيقة أن « ست » كان موجوداً فى شرق الدلتا منذ الدولة القديمة قبل الهكسوس بزمن طويل . ولكن أوزوريس وحورس تغلبا عليه . ولما جاء الهكسوس رفعوا شأنه باعتباره إله حرب يشبه «بعل » و« رشب » المسلح بحربة ودرع .. وكانت « عشتار » تعد زوجة الإله « سوتخ » . و« عنات » زوجة الإله « بعل » . وكلتاهما أيضاً إلهة حرب . وصُورت «عشترت » وهى تمتطى حصاناً وتمسك بيدها بلطة الحرب ودرعاً . وبعد مدة تمصرت « عنات » بحيث أصبحت إلهة مصرية بحتة . واضطرت لنبذ تلك الطبيعة الوحشية واكتسبت طبيعة مسالمة . وأخيراً اندمجت مع إيزيس المصرية (انظر ص ٥٥٦) .

على أن تقديس الهكسوس للإله « ست » لم يكن موضوعاً ذا بال عند المصريين لما لهذا الإله من سمعة سيئة نظراً لما فعله فى أسطورة أوزريس وإيزيس (الجزء الأول ص ٦٨) ، ولعل ذلك مما آثار حفيظة المصريين الذين كانوا يعبدون « آمون » فى طيبة و« بتاح » فى منف و« رع » فى هليوبوليس . وكانوا يقبلون « ست » إلهاً محلياً فى جزء من الدلتا . ولكن ما لم يكن يمكنهم احتماله هو أن يصبح « ست » صاحب السيادة الدينية والمعبود الرسمى فى البلاد . ولم يعترف الهكسوس بمكانة « رع » بل لعلهم أرادوا القضاء عليه . ولو أنهم فى بعض الفترات كانوا يضمنون أسماءهم لفظ « رع » تقرباً للمصريين مثل خيان الذى سمى نفسه « ساوسر إن رع » و أبو فيس الذى حكم بعده وتسمى باسم « عاو سر رع » .

يوسف الصِّديق في مصر

قلنا إن قافلة الإسماعيليين أحضرت يوسف معها إلى مصر . وكان عمره حوالى خمسة عشر عاماً . وباعوه إلى رئيس جند مصر أو رئيس وزرائها وهو «فوتى فارع» وتسميه التوراة فوطيفار . وقال ابن عباس اسمه قطفير وبهذا تسميه أيضاً أغلب المراجع الإسلامية وقال محمد بن اسحق اسمه أطفير . وكان ملك الهكسوس هو «خيان» وتسميه المراجع الإسلامية – الريان كان ذلك فى العام ١٧٦٢ ق . م . تقريباً

تصف التوراة فوطيفار بأنه « خصىٌ فرعون رئيس الشرط » واعترض كثيرون على وصفه بأنه خصى . فلم تعرف مصر لا فى عهد الفراعنة ولا فى عهد الهكسوس الخصيان . كما أن

الخصى لا يتزوج وكان فوطيفار زوج أجمل امرأة فى الهكسوس . وليس معنى أنه لم ينجب أنه كان خصياً . كذلك اعترضوا على تسمية حكام الهكسوس باسم فرعون* لأنهم كانوا يُسمون ملوكاً . وكان القرآن الكريم هو الذى ميز بين الحكام فى عهد يوسف الصديق فسماهم ملوكاً فى حين أطلق على الحكام الذين كانوا معاصرين لموسى عليه السلام – إسم فرعون وهذا يدل على اختلاف نوع الحكم فى العهدين . ففى عهد موسى كان الحكم بأيدى المصريين ويسمى الحاكم فرعوناً . أما فى عهد يوسف فكان الحكام من الهكسوس ويُسمى الحاكم ملكاً . ويرى البعض أنه لا بأس من إطلاق وصف فرعون على بعض ملوك الهكسوس الذين حاولوا التقرب للمصريين فأعلنوا الولاء للآلهة المصرية وبعضهم أضاف إلى اسمه لقب « فرعون » زيادة فى التظاهر بمصريته .

أما عن امرأة فوطيفار الذى اشتراه – قال مجاهد : اسمها راعيل بنت رعابيل . وقال السدى : زليخا بنت تمليخا . وقالوا اسمها راعيل ولقبها زليخا ! وعلى كُلٍّ فإن الإسم فى حد ذاته لا أهمية له .

وقالوا إن فوطيفار تفرَّس فى يوسف فوجد فيه مخايل الرشد والنجابة فكان يرجو نفعه أو يكون عوناً له أو بمثابة الإبن إذ أنه لم ينجب . وعن ذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه : أفرس الناس ثلاثة : العزيز حين تفرَّس فى يوسف فقال لامرأته : أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا والمرأة التى أتت موسى فقالت لأبيها : يا أبت استأجره . وأبو بكر حين استخلف عمر .

« وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته . أكرمى مثواه . عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً . وكذلك مكَّناً ليوسف فى الأرض . ولنعلمه من تأويل الأحاديث . والله غالب على أمره . ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً . وكذلك نجزى المحسنين» . (٢١ – ٢٢ – يوسف)

قلنا إن فوطيفار – الذى اشتراه من مصر – أمر امرأته أن تكرم مثواه وتحسن معاملته . كان عمر يوسف حوالى ١٥ عاماً . فعاملته كما تعامل المرأة ولدها تحنو عليه وتحبه . وخاصة أنه كان بهى الطلعة – ولم يكن لها ولد .

وبدخول يوسف بيت العزيز بدأت مرحلة جديدة من حياته . هى بداية لما كان الله يدبره له من مكانة ومنزلة . وهذا هو التمكين فى الأرض الذى أشار إليه القرآن الكريم وكذلك علَّمه الله من تأويل الأحاديث أى الأحلام . وهو ما يجعل اسمه يشيع شيوعاً محببًا إلى النفوس ويُعلى

---

* التوراة . إصحاح ٣٩ تكوين .

مكانته . إذ يتيقن الجميع من بُعد نظره وصحة تأويله فيطمئنون لما يشير به . وهذا مع جعل اسمه يصل إلى حاكم البلاد ويطلبه بالذات . ثم يجعله – نائباً للملك أو رئيساً للوزراء – كما سيجيء فيما بعد . فكان تأويل الأحلام هو الباب الذى دخل منه يوسف ليكون هو المتصرِّف فى أمور مصر كلها . وهذا هو لطف الله فى تدبيره . وغلبة أمره . ولكن كثيراً من الناس قد لا ينتبهون لهذه الأمور ولا يعلمونها .

ولما بلغ أشده . أى أوج اشتداد قوته وجسمه . وقالوا إنها المرحلة بين الثلاثين والأربعين وفى المتوسط خمس وثلاثون سنة . عند هذه السن آتاه الله حكمة وتفقهاً فى الأمور . وكذلك آتاه الله علماً بوجوه مصالح الناس ليكون حكمه بينهم متفقاً مع العدل ومحققاً للخير ويرتضيه جميع الأطراف .

وعن ابن عباس : الحكم النبوة . والعلم الشريعة .

وما جزاء المحسن إلاَّ أن يغدق الله عليه من فضله . ومن الإحسان الصبر على البلاء . وقد صبر يوسف على البلاء الذى مر به فكان من المحسنين . وكان جزاؤه هذه المكانة الرفيعة التى وصل إليها فى مصر .

ومن هنا قال الحسن : من أحسن عبادة الله سبحانه وتعالى فى شبيبته آتاه الله تعالى الحكمة فى إكتهاله .

وقال بعضهم أيضاً : من عمل بما علم يسَّر الله تعالى له علم ما لم يعلم .

وتقول التوراه (إصحاح ٣٩ تكوين) :

كان الرب مع يوسف . فكان رجلاً ناجحاً وكان فى بيت سيده المصرى . ورأى سيده أن الرب معه . وأن كل ما يصنع الرب ينجحه بيده . فوجد يوسف نعمة فى عينيه وخدمه . فوكلَّه على بيته . ودفع إلى يده كل ما كان له . وكان من حين وكلَّه على بيته وعلى كل ما كان له أن الرب بارك بيت المصرى بسبب يوسف . وكانت بركة الرب على كل ما كان له فى البيت والحقل . فترك كل ما كان له فى يد يوسف . ولم يكن معه يعرف شيئاً إلا الخبز الذى يأكل . وكان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر .

وهنا نلاحظ العنصر البشرى فى السرد . من تكرار المعنى عدة مرات فى حين اختصر اللفظ القرآنى ذلك كله فى قوله تعالى : « **وكذلك مكنَّا ليوسف فى الأرض**» فالتمكين يشمل حب سيده له وثقته فيه وجعله المتصرف فى بيته . وحسن تصرفه بحيث يعود بالنفع على

سيده فيزداد ثقة فيه كل ذلك بالإضافة إلى نسبة كل هذه الأشياء إلى تدبير الله سبحانه وتعالى وتوفيقه .

وتمر السنون ويوسف يتفانى فى خدمة سيده . فيزداد تقديره له . وفى خدمة زوجته أيضاً فتزداد إعجاباً به . وكبر يوسف . واكتمل شبابه . لم يعد ذلك الطفل الذى تحبه حب الأم لولدها . ولم تعد نظرتها إليه فيها البراءة السابقة . بل أصبحت تنظر إليه نظرة جديدة . هى كأنثى وهو كرجل . وتسلل هذا الشعور الجديد إلى نفسها . وازداد شيئاً فشيئاً حتى ملك عليها كل حواسها . وكانت هى البادئة بدعوته إلى نفسها . والمرأة لا تكون البادئة إلاَّ أن يفيض بها الشعور وترى أن الطرف الآخر لا يبالى بما تبديه من تلميحات مستترة . ظنت أن تعففه عنها هو لشعوره بأنه عبد وهى سيدته أو زوجة سيده . فبدأت بالمبالغة فى الرقة حتى تزيل هذا الشعور إن كان هو السبب فى تمنعه عليها . ثم بدأت تظن أنه قد يكون يخاف أن يفاجئها أحد فيكون فيه سوء العاقبة بالنسبة له . لم يدر بخلدها أنه لا يمتنع عليها إلا لخوفه من الله – فصرفت الخدم من جناح قصرها . وطلبت إليهم أن لا يدخل عليها أحد سوى يوسف فهيأت له كل وسائل الطمأنينة . وزيادة فى الحيطة غلقت الأبواب ظنت أنها بهذا قد حققت له كل الإطمئنان بأن أحداً آخر لن يطلَّع على ما بينهما . وأن أحداً لن يشى إلى زوجها . ولكن يوسف الصديق كان يعلم أن عين الله ساهرة . لا تخفى عليه خافية . وعبَّر القرآن الكريم عن هذا الموقف بقوله تعالى :

« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه . وغلقت الأبواب . وقالت هَيْتَ لك. قال معاذ الله إنه ربى . أحسن مثواى . إنه لا يفلح الظالمون » . (٢٣ – يوسف)

وقالت **هَيْتَ لك** . أى أسرع وتعال أى هلم لك . وقال بعضهم إنها ليست عربية بل كلمة حورانية . وقالوا عبرانية . معناها حث وإقبال أيضاً . وقرأها آخرون هِئْتُ لك – وهِيتُ لك – بمعنى تهيَّأت لك . وممن روى عنهم هذه القراءة ابن عباس وعكرمة وقتادة .

وكان رد يوسف على هذه الدعوة السافرة . والتى تهيأت لها كل الظروف لإتمامها لو لم يكن هو الصديق يوسف عليه السلام . إذ استعاذ بالله . فقال معاذ الله . هذا هو السبب الأول للرفض . خوف الله سبحانه وتعالى . ومن هنا قال بعضهم إن إسم يوسف مشتق من فعل ياساب . العبرى بمعنى يخاف أو خائف فمعنى يوسف هو خائف الله (ص ٤٣٤) .

السبب الثانى هو الأمانة . فهو أمين على مال سيده وكل ما يخصه . استأمنه عليه . فكيف لا يكون أميناً على عرضه وشرفه ! ثم وضح أسباب حفظه لهذا الرجل . إنه سيده ومالكه . كما

أنه أحسن مثواه وأكرمه، إقامة ومعاملة . وكان القوم فى ذلك الوقت يطلقون على المالك كلمة رب، كما نقول فى أيامنا هذه رب العمل .

بعضهم قال إن الضمير فى « **إنه ربى** » راجع إلى الله سبحانه وتعالى . حيث أن الله هو الذى هيأ له هذا المثوى الحسن عند سيده .

ثم إن يوسف ذكَّرها بأنه لو فعل ما تطلب منه لكان ظالماً لسيده . قابل إحسانه بالإساءة إليه وقابل إئتمانه له بخيانته فى عرضه وهل بعد ذلك خيانة !! وأنى للظالم أن يفلح؟ « **إنه لا يفلح الظالمون** » !

موقف كله شرف وأمانة وخشية من الله تعالى

« **ولقد همت به . وهم بها . لولا أن رأى برهان ربه . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . إنه من عبادنا المخلصين** » . (٢٤ – يوسف)

ولقد قيل فى « **همت به . وهم بها** » أقوال كثيرة .

وفى رأينا أن هذه الجملة من جوامع الكلم . أوردها الله سبحانه وتعالى هكذا . مبهمة – ليذهب الناس فى تأويلها كلٌ حسب مراده ومبتغاه ويكون هذا التأويل حجة له أو عليه . فذهب الناس فى تأويل معناها مذاهب شتى :

فمن متشدد مغالى فى التشدد . لا يُجَوِّز أن تخطر الخاطرة على ذهن يوسف الصدِّيق . ولو لم تتعداها إلى ما هو أبعد من ذلك .

فيقول إنها همت بما أرادت . وهو هم بضربها . ويقول صاحب المنار إنها همت بضربه نتيجة إهانته لها بالإعراض عن رغبتها وهى السيدة الآمرة . وهم هو برد الإعتداء . وهذا تفسير لا دليل عليه وفيه تكلف وبُعْدٌ عن مدلول النص . فأنَّى لمملوك أن يضرب زوجة سيده . ولا يتفق مع القول « لولا أن رأى برهان ربه » فلو كان هم بضربها كما يقولون فما هى بالخطيئة التى تستدعى برهاناً من ربه لمنعها !

وفى المقابل من هذا التشدد نجد العكس تماماً .

مريض بالخيالات – تحت وهم «لولا أن رأى برهان ربه » يترك العنان لخيالاته تشطح كيفما تشاء أو كيفما يشاء هو لها ! واندفع البعض وراء الإسرائيليات والموضوعات يصورون فيها يوسف الصدِّيق . وكأن الغريزة قد تملكته . وانساق وراءها فقالوا أقوالاً . بل ونسبوا بعضها إلى الصحابة ليقنعوا السامع بصحتها . قالوا أقوالاً ونسبوا أفعالاً نعف القلم عن ذكرها . ثم

قالوا إنه رأى برهان ربه فامتنع عن الوقوع فى الخطأ . وذهب بعضهم فى بيان هذا البرهان مذاهب بعيدة . فعن ابن عباس أنه عليه السلام مثل له يعقوب عليه السلام فضرب بيده على صدره . وعن قتادة قال : مثل له يعقوب عاضاً على إصبعيه وهو يقول : يا يوسف . أتهم بعمل السفهاء وأنت مكتوب من الأنبياء ؟ وأخرج أبو نعيم عن على كرم الله وجهه أنها قامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت فى ناحية البيت فسترته بثوب أبيض . فقال عليه السلام : أى شىء تصنعين ؟ قالت : أستحى من إلهى أن يرانى على هذه السوأة . فقال تستحين من صنم لا يأكل ولا يشرب ولا أستحى أنا من إلهى الذى هو قائم على كل نفس بما كسبت . ثم قال : لا تناليها منى أبداً*

وقال ابن جرير عن آخرين عن محمد بن كعب القرظى قال : رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت فإذا مكتوب : **لا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلاً** .

وقال عبدالله بن وهب : سمعت القرظى يقول فى البرهان الذى رآه يوسف ثلاث آيات من كتاب الله :

« **وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن . ولا تعملون من عمل إلاَّ كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه** » . (٦١ – يونس)

و « **وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين** » . (١٠ – الإنفطار)

و « **أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت** » . (٣٢ – الرعد)

وقالوا : وحتى هذه البراهين لم تُجْدِ . فأرسل الله جبريل قائلاً له : أدرك عبدى . فجاء فضربه على صدره .

وهذه الروايات وغيرها واضحة التلفيق والإختراع . على أن أغلب المفسرين قالوا : إنها همَّت هما بالفعل . وهمَّ هو همًا بالنفس ثم تجلى له البرهان فتركه .

وحتى الهم بالنفس أنكره البعض إجلالاً لقدر يوسف عليه السلام . ويقول الإمام الفخر الرازى : الهَمُّ خطور الشىء بالبال أو ميل الطبع . كالصائم يرى فى الصيف الماء البارد فتحمله نفسه على الميل إليه وطلب شربه . ولكن يمنعه دينه عنه .

وقال أبو السعود : إن همه إليها بمعنى ميله إليها بمقتضى الطبيعة البشرية ميلاً جلياً . ولكن استعصامه أنبأ عن كمال كراهيته له . وقوله بعدم إفلاح الظالمين يسجِّل استحالة صدور

---

* تفسير الآلوسى : جزء ١٢ ص ٢١٤ .

الهم منه تسجيلاً محكماً . وقال البغوى عن بعض أهل التحقيق إن المراد بهمه بها خطرات حديث النفس . ثم أورد البغوى حديث عبد الرزاق عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى : إذا هم عبدى بحسنة فاكتبوها له حسنة . فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها . وإن همَّ بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة . فإنما تركها من جرائى . فإن عملها فاكتبوها بمثلها .

ونرى أن الاستشهاد بهذا الحديث لا يتفق مع هذا الموقف فالفاحشة ليست سيئة عادية .

من هذا يرون أن الهمَّ بمعنى ورود الفعل بالخاطر منفى عن يوسف عليه السلام لعصمة الأنبياء .

ومن خير ما قيل هو أن الكلام فيه تقديم وتأخير . بمعنى أنه : ولقد همت به . ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها . فامتنع عنه الهم بها حتى ولو فى أبسط صوره قياساً على قوله سبحانه وتعالى فى قصة موسى عليه السلام :

« وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها » . (١٠ - القصص)

« لولا » حرف امتناع لوجود. والمعنى لولا أن ربطنا على قلبها لأبدت ما بها فلم تبد ما بها . وبالمثل امتنع الهمَّ عن يوسف لوجود البرهان من ربه .

وهكذا صرف الله عنه السوء والفحشاء . ولم يخطر حتى على باله أو نفسه لأنه من عباد الله المخلصين . الذين أخلصوا دينهم لله تعالى .

وأخيراً فإنه يمكننا أن نفسر الهم بأنه هو ما يعتور النفس فى مثل هذا الموقف . النفس التى تأبى الفعل وهى قادرة عليه . فلو لم تكن هناك مقدرة على الفعل لما كانت هناك مجاهدة للنفس . فلو وضح شيخ هرم - ليس للنساء فيه مأرب - فى مثل هذا الموقف - لما كان هناك همٌّ ولا كانت هناك مجاهدة للنفس - ولما اعتبر امتناعه عن الفعل محمدة . ولهذا جاء فى الحديث عن السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم القيامة : شاب دعته امرأة ذات منصب وجمال . فقال إنى أخاف الله .

وهَمُّ يوسف عليه السلام - قد يكون - هو ما اعتور النفس من انفعالات وليس هما بمعنى الرغبة فى الفعل أو الشروع فى بعض مقدماته كما ادعى بعض ذوى الخيالات المريضة - بل هى انفعالات تتولد فى النفس تلقائياً لوجود الشخص - على غير إرادته - فى موقف هو له رافض وكاره . وقد لا يتعدى الأمر ازدياد ضربات القلب أو تصبب العرق أو التوقف هنيهة

للتفكير فى المأزق الذى هو فيه وفى كيفية التخلص منه . إذ الرفض معناه إغضاب سيدته وهذا قد يجر أفعالاً انتقامية قد يكون منها السجن أو التعذيب . وهنا جاء البرهان من ربه ليشد أزره فى هذه المعركة النفسية . ولتأكيد أن أى أذى جسمانى يهون من أجل مخافة الله وعدم خيانة سيده فى ما ائتمنه عليه .

ولينهى يوسف هذا الموقف استدار مسرعاً فى إتجاه الباب ليخرج . وهى أسرعت أيضاً فى إتجاه الباب لتمنعه من الخروج . وهذا هو معنى : **فاستبقا الباب** .

وكان هو الأسبق فى الوصول إلى الباب . وظهره إليها . ولتمنعه من الخروج جذبته من قميصه فتمزق من الخلف . أو أنها لحقته قبل أن يصل إلى الباب فأمسكت بقميصه من الخلف ولكنه استمر مسرعاً وجذبته فتمزق القميص .

« واستبقا الباب . وقَدَّت قميصه من دبر . وألفيا سيدها لدى الباب. قالت ماجزاء مَن أراد بأهلك سوءاً إلاَّ أن يسجن أو عذاب أليم . قال هى راودتنى عن نفسى . وشهد شاهد من أهلها . إن كان قميصه قُدَّ من قُبُلٍ فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من دُبُرٍ فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دُبُر . قال إنه من كيدكن . إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا . واستغفرى لذنبك إنك كنتِ من الخاطئين » .

(٢٥ - ٢٩ - يوسف)

تمزق القميص . وفتح يوسف الباب . وإذا بزوجها لدى الباب . قيل ومعه ابن عم لها . وكانت المرأة آنذاك تقول لزوجها سيدى . لذلك وصف بأنه سيدها . وكانت هي البادئة بالكلام . وهناك احتمالان :

- أن تكون « ما » **حرف استفهام** . فكأنها تسأل : ما هو جزاء من أراد السوء بأهلك. وتجيب هى على السؤال بأنه ليس له جزاء إلاَّ أن يسجن أو عذاب أليم . من ضرب بالسياط أو غيره . أو كأنها تقترح هذا الجزاء .

- أو تكون « ما » **حرف نفى** . وكأنها تقرر حقيقة معلومة وهى أنه ليس من جزاء لمن أراد السوء إلاَّ أن يسجن أو عذاب أليم .

دفع يوسف عن نفسه هذه التهمة بقوله إنها هى التى دعته إلى نفسها . ولم يستجب لطلبها « **قال هى راودتنى عن نفسى** » .

« **وشهد شاهد من أهلها** » . وذهب جمع إلى أنه كان ابن خالها . وقيل إنه كان طفلاً فى المهد عمره ثلاثة أشهر . قيل أنطقه الله تعالى ببراءة يوسف . ورووا حديثاً* عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : تكلَّم فى المهد أربعة وهم صغار : ابن ماشطة ابنة فرعون . وشاهد يوسف عليه السلام وصاحب جريج** وعيس ابن مريم عليهما السلام . قال الألوسى والحديث صحيح أخرجه أحمد فى مسنده وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه من حديث ابن عباس . ورواه الحاكم أيضاً من حديث أبى هريرة وقال صحيح علي شرط الشيخين .

إلاَّ أنه ورد حديث فى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لم يتكلم فى المهد إلاَّ ثلاثة : عيسى ابن مريم . وصاحب جريج . وصبى كان يرضع من أمه . فمر راكب حسن الهيئة فقالت أمه : اللهم اجعل ابنى مثل هذا . فترك الصبى الثدى وقال : اللهم لا تجعلنى مثله . وفى صحيح مسلم تكلم طفل فى قصة أصحاب الأخدود أيضاً . فإذا جمعناهم لوجدنا أنهم أصبحوا ستة .

ليس هنا مجال مناقشة ترجيح أحد الأحاديث على غيره . ولكن المؤكد أن بعضها به زيادات موضوعة . وما يهمنا فى هذا المقام هو مناقشة ما قالوه عن الطفل الذى تكلم ووصفوه بأنه « شاهد يوسف » !

من المؤكد أن تكلم طفل فى المهد هو معجزة كبرى . ولنا أن نتساءل من هو هذا الطفل ؟ قطعا هو ليس ابن العزيز صاحب القصر . ثانياً من كانت تحمله ؟ أمه أم مرضعة أم جارية؟ ثالثاً : ما سبب تواجده فى هذا الوقت بالذات مع العزيز وهو يزور جناح زوجته بالقصر وهو يعلم أن رؤية طفل صغير قد تؤذى مشاعرها لعدم إنجابها . وأخيراً فإن براءة يوسف عليه السلام لم تكن تستدعى مثل هذه المعجزة . لأن القوم استندوا إلى المنطق والدليل المادى لإثبات البراءة وهذا ما قرره القرآن الكريم . وليس بعد ما قرره القرآن الكريم فى هذا الشأن من حاجة لدليل آخر . وخاصة أن الأحاديث الواردة فى تكلم هذا الطفل غير متفق بعضها مع بعض .

« **وشهد شاهد من أهلها** » قيل رجل حكيم من أهلها . وقيل هو ابن عمها وكان مع زوجها لدى الباب . وقال البعض يجوز أن يكون بعض أهلها وكان معهما فى الدار بحيث لم يشعرا به فبصر بما جرى بينهما فأغضبه الله تعالى ليوسف فقال الحق . وهذا الافتراض

---

* تفسير الألوسى . جزء ١٢ ص ٢٢٠ .

** زاهد كان يتعبد فى صومعة . واتفق جماعة يكرهونه مع امرأة . أن تدعى أنه اعتدى عليها وأنجب منها طفلاً كان لها . فلما رموه بذلك أنطق الله الطفل ببراءته أمام الجميع .

الأخير ليس بصحيح – لأنها «غلّقت الأبواب» . كما أن دليل البراءة لم يكن عن مشاهدة عيان بل عن دليل منطقى . والأغلب أن سيد القصر رأى أن يستشير من كان يرافقه فكان أن وضع القاعدة القانونية التى يُستند إليها فى تحقيق الحادث . وهى قاعدة تستند إلى العقل والمنطق ، وهى : إن كان القميص قد من الأمام فمعناه أنه هو المتهجم وهى التى تدفعه عنها . أما إن كان القميص قد تمزق من الخلف فمعناه أنه كان مولّياً وجهه عنها وهى جذبته من الخلف . وتم فحص دليل الإتهام . فإذا القميص قد « **قُدَّ من دُبُر** » أى قطع من الخلف فظهرت براءة يوسف عليه السلام .

وفور ظهور الحقيقة . وكذب الإدعاء توجه العزيز إلى زوجته قائلاً لها إن الأمر كله من كيدها وتدبيرها . ولعله لم يشأ أن يوجه الإتهام إليها مباشرة . وخاصة أمام من شهدوا الموقف . فعمم الإتهام على النساء عموماً فقال .. إنه من كيدكن .. كما يعتذر رجل عن خطأ طفله وقد آذى طفلاً آخر فيقول : هذا لعب عيال . فيعمم الفعل كأنه يقول هذه طبيعة الأطفال فى اللعب . وكان تعميم العزيز للكيد على النساء يحمل معنى أن الكيد من طبيعة النساء عموماً . ثم وصف كيدهن بأنه عظيم .

ومن طريف ما قيل فى هذا* هو أن كيدهن أشد تأثيراً فى النفس . وقد ينتج عنه ما يورث العار . وأن ربات القصور أكثر تفرغاً لاختلاق الكيادات . وقيل : ولعظم كيد النساء اتخذهن إبليس وسائل لإغواء من صعب عليه إغواؤه . ففى الخبر : ما أيس الشيطان من أحد إلا أتاه من جهة النساء . وحكى عن بعض العلماء أنه قال : أنا أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان . فإنه تعالى يقول : «إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » وقال للنساء : « إن كيدكن عظيم » . ولا يخفى أن الإستدلال بالآيتين مبنى على ظاهر إطلاقهما . فإن ضعف كيد الشيطان إنما هو فى مقابلة كيد الله تعالى . وعظم كيدهن إنما هو بالنسبة إلى كيد الرجال !

ثم وجه سيد القصر الحديث إلى يوسف قائلاً **«أعرض عن هذا»** أى اكتم هذا الأمر ولا تتحدث به . لأنه الأليق والأحسن بنا . ولأنه قد ظهر صدقك وبراءتك .

ثم وجه الحديث مرة أخرى إلى زوجته وطلب إليها أن تستغفر لذنبها – الذى هو محاولة إغواء يوسف ثم اتهامه بأنه هو المعتدى – لأنه ظهرت براءته وكانت هى « من الخاطئين » وهنا أيضاً نلاحظ دقة العبير بكلمة « خاطىء » وليس « مخطىء » . فالمخطىء هو الذى يخطىء عن جهل بالأمر . من الفعل أخطأ . ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : من اجتهد فأخطأ فله أجر . أما

* تفسير الألوسى . جزء ١٢ ص ٢٢٤ .

خاطىء فهو الذى يرتكب الفعل وهو عالم بخطئه . فهو متعمد الخطأ من فعل خَطِىءَ . والمعنى أنها كانت تعرف خطأ ما تطلب من يوسف فكانت من الخاطئين .

وقيل إن طلب كتمان الأمر كان من الرجل الحكيم شاهد التحقيق . وقيل إن طلب المغفرة أن تطلب الغفران من زوجها لما دلَّت عليه الشواهد من همِّها بخيانته . وقيل أيضاً كان طلبا للمغفرة من الله . إذ أن القوم . ولو أنهم كانوا يعبدون الأصنام إلا أنهم كانوا يعتقدون فى إله من ورائها هو الذى يغفر الذنوب أو يؤاخذ بها .

غير أن أنباء هذا الحادث سرعان ما تنتشر إلى الباقين من أهل القصر . ثم إلى عامة الناس . وخاصة النساء . فهن مولعات بمثل هذه الأخبار والأحاديث ويكثرن من ترديدها وإذاعتها .

قالوا « **امرأة العزيز تراود فتاها** » وتطلب مواقعته . وتتحايل فى ذلك لتبلغ مرادها . وجاء الفعل بصيغة المضارع لإظهار كثرة مراودتها فلم تكن مرة واحدة وانتهت بل مرات متكررة .

وقالوا « **فتاها** » لأن يوسف كان مملوكاً لزوجها . وقيل إن زوجها قد وهبه لها . وكان قصد النسوة من وصفه بأنه فتاها هو لإظهار مدى الفرق الذى بينهما . فهى سيدة البيت وهو خادم بالبيت . ليظهرن مدى الهوة التى تردَّت فيها لما بينهما من فروق كبيرة .

كذلك أكثروا من ترديد أنها قد شغفت حباً به وأنها تنازلت عن كبريائها . وهى التى بدأته بالمغازلة وأنه رفض مسايرتها . وفى هذا جرح لكبريائها وإهانة لها . وأكثرن من تناقل الحادثة إمعاناً فى التشفى فيها إذ قيل إنها كانت تتيه عليهن بجمالها وسطوة زوجها .

والشغاف حجاب القلب أو هو الغشاء الذى يحيط بالقلب ومعنى « **شغفها حباً** » أى أن حبه قد تغلغل فى قلبها وملأه حتى وصل إلى شغافه . وقال الضحاك عن ابن عباس . الشغف هو الحب القاتل . ويقال شق حبه شغاف قلبها .

وأكثرت نسوة المدينة من القيل والقال واتهمنها بالضلال والنزق . إذ هى تتمتع بثراء زوجها ومركزه الإجتماعى . فماذا تريد بعد ذلك !

عبَّر القرآن الكريم عن هذا كله بإيجاز :

« **وقال نسوة فى المدينة . امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه . قد شغفها حباً . إنا لنراها فى ضلال مبين** » .   (٣٠ - يوسف)

وتناهى الكلام إلى امرأة العزيز . وما تلوكه الألسن فى سلوكها وما يقال فى الخفاء عنها . وأرادت أن توقفهن عند حد . وذلك يكون بأحد أمرين : إما إنكار من جانبها . وهذا مستحيل بعد أن شهد شاهد من أهلها على الواقعة . فلا سبيل إلى الإنكار . والحل الثانى هو أن تجعلهن يشتركن معها فى الشغف بيوسف . حتى يكون – كما نقول فى عصرنا – الكل فى الهم سواء . فيشعرن أن هذا الأمر خارج عن إرادتها . فيلتمسن لها العذر . وهذا ما أنتوته . وكان التدبير أن دعتهن إلى منزلها لتضيفهن . وأعتدت لهن مقاعد لها مساند ووسائد يتكئن عليها . وقيل المتكأ هو مجلس الطعام . وقد أخرج ابن أبى شيبة عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن أن يأكل الرجل بشماله . وأن يأكل مُتَّكِئاً لأن الأكل متكئاً كان عادة المترفين المتكبرين .

وقيل المتكأ هو من باب الكناية عن الطعام نفسه كأن يكون لحماً . وكان المصريون لا ينهشون اللحم . وإنما يأكلونه حزًّا بالسكاكين . فسمى متكئاً لأن عادة من يقطع اللحم بالسكين أن يتكىء عليه وهو يقطعه فسمى متكئاً . وقرئت « مُتْكاً » من مَتَكَ الشىء أى قطعة . والمتك كل طعام يقطع بالسكين .

فكان تدبير امرأة العزيز أن أعتدت لهن المقاعد المريحة ذات المساند والوسائد . وقدمت لهن طعاماً يقطع بالسكين **« وآتت كل واحدة منهن سكيناً »** .

كانت نساء المدينة لم ترين يوسف من قبل . فقد كان يعمل فى القصر وحديقته الواسعة . أما طلبات القصر من السوق فكان يكلَّف بها العبيد أو الجوارى . كانت النسوة قد سمعن عن يوسف وبهاء طلعته . كن يتخيلنه فتى . مثل كل الفتيان . ولكنه أكثر وسامة وشباباً .

وأثناء الأكل طلبت من يوسف أن يخرج عليهن . فلما رأينه . أعظمن شأنه . وأجللن قدره . وبهرهن جماله . وفقدن التحكم فى أنفسهن وحركات أيديهن فقطعت السكاكين أيديهن .

فى حديث الإسراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مَرَّ بيوسف عليه السلام فى السماء الثالثة . قال : فإذا هو قد أعطى شطر الحسن . وقال حمادة بن سلمة عن ثابت عن أنس . قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعطى يوسف وأمه شطر الحسن . ورواه الحسن البصرى مرسلاً : أعطى يوسف وأمه ثلث حسن أهل الدنيا وأعطى الناس الثلثين . أو قال : أعطى يوسف وأمه الثلثين والناس الثلث .

قلنا إن النسوة لما رأين يوسف هالهن جمال صورته وألهاهن عما يقطعنه من الطعام فقطعن أيديهن . وقلن حاشا لله . أى معاذ الله . ليس هذا بشر . فلم يعهدن مثل هذا الجمال فى بشر .

بل ويستحيل أن يكون مثل هذا الجمال فى بشر ، فهو بلا جدال ملك لأن الملائكة هم الذين يبلغون أقصى مراتب الحسن والكمال طبعاً . وصورةً . أى خَلْقاً وخُلُقاً . هذا إذا أمكننا أن نتصورً الملائكة فى صورة بشرية . ولم يكتفين بوصفه أنه ملك . بل زدن أيضاً بقولهن « ملك كريم » زيادة ومبالغة فى حسنه .

وكان تعبير القرآن الكريم عن هذا المشهد هو :

« فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن مُتَّكئاً . وآتت كل واحدة منهن سكيناً . وقالت أخرج عليهن . فلما رأينه أكبرنه . وقطعن أيديهن . وقلنا حاشا لله ما هذا بشرا . إن هذا إلا ملك كريم » . (٣١ – يوسف)

كان هذا ما تريده امرأة العزيز . إذ كان تصرفهن هذا اعترافاً منهن بقوة جاذبيته . وكأنهن قلن لها : ما نرى عليك من لوم بعد هذا الذى رأينا من حسنه . وهذا أعطاها الجرأة على الاعتراف الصريح لهن . وكأنها تقول وعلى الملأ . بأنه يستحق أن يُحَبَّ لجماله . وأنها فعلاً قد شغفت به حباً . وقد عيرتننى فى الافتتان به . ولمتننى أن أحببته . وها أنتن قد أصابكن منه من مجرد رؤيته ما جعلكن تقطعن أيديكن . فما بالكُنَّ وهو أمام ناظرى ليل نهار . ومن طبائع المرأة أنها قد تعترف لإحدى صديقاتها – سراً – بحبها لشخص ما . أما الإعتراف هكذا علانية فهو خروج عن المألوف ويدل على أن الإخفاء لم يعد يجدى . وخاصة أنها اعترفت بأنها هى التى بدأت وراودته عن نفسه . واعترفت كذلك بأنه قد رفض مبادرتها « فاستعصم» أى زاد فى طلب العصمة وتمسك بها .

من المرجح أن يوسف عليه السلام وقت إدلائها بهذا التصريح لم يكن موجوداً فى قاعة الطعام – إذ لا يَسُر المرأة أن تعترف بانهزامها أمام من تحب . ثم أعربت عن تصميمها على نوال ما تريد منه . وأخبرتهن أنه إذا لم يرضخ لمطالبها ويستجيب لما أرادت سيكون مصيره السجن . ويكون من الصاغرين الأذلاء المهانين . ولعلها بهذا التصريح فى حضور النسوة . أرادت أن تعبر عن مزيد غيظها من امتناعه . ولتعلن أنها بعد الآن ستكون أكثر جرأة وأكثر تصميماً فى طلب مرادها .

ولعل النسوة . من جانبهن طمعن أيضاً فى ما كانت تطمع فيه امرأة العزيز . كان يوسف . بحكم موقعه . يدور على النسوة لتقديم ما يطلبن من طعام وشراب . وبعضهن كن ذات جمال يضاهي جمال امرأة العزيز . ولكنهن كن أكثر حصافة ، فأدركن أن مثل هذا الأمر لا ينال بتهديد أو بوعيد . ولعله أثناء تقديمه الطعام والشراب لهن كانت إحداهن تهمس فى أذنه بدعوة

لبيتها . وتطمئنه من عدم وجود زوج غيور أو لغياب الزوج لكونه قائد فرقة تحمى حدود البلاد . وغير ذلك من الإغراءات التى كانت كفيلة بإدارة رأس أى شاب فى مثل موقعه - إلاَّ أنه هو - يوسف الصديق!! وعن على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما أن كل واحدة منهن أرسلت إليه سراً تسأله الزيارة .

وشعر أن الضغوط تزداد عليه من كل جانب .

وكان الملجأ إلى الله . فالتجأ إليه .

وقال إن السِّجنَ - كمكان - أو السَّجنُ - على أنه مصدر - أحب إليه مما كن يدعونه إليه. وطلب من الله تثبيته على العصمة . وإلا فإنه قد يضعف عن مقاومة إغراءاتهن ويميل إلى تنفيذ مطالبهن ويعمل عمل الجاهلين السفهاء . بمقتضى قوة الطبيعة البشرية التى قد تغلب طاقته على المدافعة . وهذا فزع منه عليه السلام إلى جانب الله تعالى جرياً على سنن الأنبياء والصالحين فى اللجوء إلى الله تعالى فى الملمات . وكان قوله « **وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن** » كقول المستغيث : أدركنى وإلا هلكت . فكما يكره المرء الهلاك كذلك كان يوسف عليه السلام يكره ما يدعونه إليه ولا يريده . ويريد معونة الله تعالى ومؤازرته فى صرف مكايدهن عنه . وكان أن أستجاب الله دعاءه . وثبته على العصمة والعفة .

« قالت فذلكن الذى لمتننى فيه . ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليُسجنن وليكوناً من الصاغرين . قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن . أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه . فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم » .

(٣٢ - ٣٤ - يوسف)

وقد ذكر القرطبى أنه عليه السلام لما قال : « رب السجن أحب إلىَّ .. الخ » أوحى الله تعالى إليه : يا يوسف أنت جنيت على نفسك . ولو قلت : العافية أحب إلى ، عوفيت . ولهذا يرى البعض أنه ينبغى على المرء أن يتخيَّر الدعاء . وقد روى الترمذى عن معاذ بن جبل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سمع رجلاً وهو يقول : اللهم إنى أسألك الصبر . فقال صلي الله عليه وسلم : سألت الله تعالى البلاء . فاسأله العافية .

وانتشر خبر الوليمة التى أقامتها امرأة العزيز لنسوة المدينة . لقد أرادت أن يلتمسن لها العذر فيما فعلت فيكففن عن أقاويلهن - ولكن ما حدث كان العكس . إذ إزداد الهمس . بل لم يعد همساً . وأصبح أقوالاً صريحة علنية . ووصلت الأقاويل إلى سمع العزيز وأصحابه . مما

فيه إساءة لهم . كان العزيز قد طلب من يوسف ألاَّ يخوض فى هذا الحديث حينما ظهرت براءته. وامتثل يوسف للأمر . ولكن ها هى امرأته بوليمتها قد زادت الأمر سوءاً . وساعدت على انتشار القصة وذيوعها . وكان لابد من أن يتخذ قراراً يُخرِس الألسنة . وكان القرار هو وضع يوسف فى السجن . كأنه قد تم التحقيق وأنه ثبت أنه هو المذنب . وبذلك تبرأ ساحة زوجته ويبرأ شرفه . مع أنهم رأوا جميع البراهين والآيات التى تدل على براءة يوسف .

« ثم بدا لهم من بعد ما رأووا الآيات ليسجننه حتى حين » . (٣٥ - يوسف)

بعضهم قال الحين هنا خمس سنوات . وقيل بل سبع . وقال مقاتل إنه عليه السلام حُبِسَ اثنتى عشرة سنة . كان هدف العزيز أن يبدو الأمر كأن يوسف هو المعتدى وبذلك استحق السجن فتموت هذه الإشاعات . ومن جانب امرأة العزيز لعلها كانت تأمل أن السجن سيذلله لها فيكون بعد ذلك أقرب إلى الإستجابة لمطلبها .

وتروى التوراة القصة (إصحاح ٣٩ تكوين) دون أن تبين براءة يوسف من التهمة التى وجهت إليه إذ تقول : فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذى كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بى عبدك . أن غضبه حمى . فأخذ يوسف سيده ووضعه فى بيت السجن . المكان الذى كان أسرى الملك محبوسين فيه .... وكل ما ركزت عليه هو أن رئيس السجن وثق فى يوسف وأوكل إليه كل شىء فى السجن .

وبعد فترة وجيزة من دخول يوسف السجن . دخل فتيان . غلامان كانا للملك الريان بن الوليد - واسمه فى كتب التاريخ « خيان » - أحدهما كان خبَّازه وصاحب طعامه . والآخر ساقيه وصاحب شربه . وكان الملك قد غضب عليهما لتورطهما فى مؤامرة لوضع السم له . قيل إن جماعة من أشراف مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله . وقد سبق أن ذكرنا أن الهكسوس كانوا يحكمون مصر . وكان بعض أمراء مصر يديرون الأمور فى مقاطعاتهم إلا أنهم يأتمرون بأمر ملك الهكسوس ومن المحتمل أن بعضهم كان يطمع فى اغتيال الملك ليتخلصوا من حكم الغزاة .

قالوا إن جماعة من هؤلاء الأمراء استمالوا الخباز والساقى وقدموا لهما المال على أن يضعا السم فى طعام الملك وشرابه . فأجابا إلى ذلك . ثم إن الساقى ندم . فرجع عن ذلك دون أن يخبر صاحبه . وقبل الخبازالرشوة ووضع السم فى طعام الملك .

فلما حضرا بين يدى الملك ليقدما الطعام والشراب . صاح الساقى : لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم . فقال الخباز : لا تشرب أيها الملك فإن الشراب مسموم . فأمر الملك الساقى

بالشرب مما قدم . فشرب فلم يضره وقال الملك للخباز . كل من طعامك . فأبى . فأطعم منه دابة فهلكت . فأمر الملك بحبسهما هما الاثنين لحين التحقيق فى المؤامرة والوصول إلى حكم بشأنهما . ودخلا السجن وهناك لقيا يوسف الصديق .

تقول التوراة (إصحاح ٤٠ تكوين) : وحلما كلاهما حلماً فى ليلة واحدة . كل واحد حلمه كل واحد بحسب تعبير حلمه . ساقى ملك مصر وخبازه المحبوسان في بيت السجن . فدخل يوسف إليهما فى الصباح ونظرهما فإذا هما مغتمان . فسألهما لماذا وجهاكما مكمدان اليوم ؟ فقالا له حلمنا حلماً وليس من يعبره . فقال لهما يوسف أليست لله التعابير؟ قُصَّا على . فقص رئيس السقاة حلمه على يوسف وقال له : كنت فى حلمى وإذا كرمة أمامى . وفى الكرمة ثلاثة قضبان. وهى إذ أفرخت طلع زهرها وأنضجت عناقيدها عنباً . وكانت كأس فرعون فى يدى . فأخذت العنب وعصرته فى كأس فرعون فأعطيت الكأس فى يد فرعون . فقال له يوسف هذا تعبيره . الثلاثة قضبان هى ثلاثة أيام . فى ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك ويردك إلى مقامك فتعطى كأس فرعون في يده كالعادة الأولى حين كنت ساقيه .وإنما إذا ذكرتنى عندك حينما يصير لك خير تصنع إلىَّ إحساناً . وتذكرنى لفرعون وتخرجنى من هذا البيت . فلما رأى رئيس الخبازين أنه عبر جيداً. قال ليوسف : كنت أنا أيضاً فى حلمى وإذا ثلاثة سلال على رأسى . وفى السل الأعلى من جميع طعام فرعون من صنعة الخباز والطيور تأكله من السل عن رأسى . فأجاب يوسف وقال هذا عبيره الثلاثة سلال هى ثلاثة أيام . فى ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك عنك ويُعلِّقك على خشبة وتأكل الطيور لحمك عنك .

فحدث فى اليوم الثالث . يوم ميلاد فرعون . أنه صنع وليمة لجميع عبيده ورفع رأس رئيس السقاة . ورأس رئيس الخبازين بين عبيده وردَّ رئيس السقاة إلى سقيه فأعطى الكأس فى يد فرعون . وأما رئيس الخبازين فعلقَّه كما عبر لهما يوسف . ولكن لم يذكر رئيس السقاة يوسف بل نسيه .

يذكر القرآن الكريم هذا الموقف فى إيجاز وبلاغة . ويضيف للقصة شيئاً لم يذكره كاتبو التوراة . ذلك أن يوسف عليه السلام قد انتهز فرصة وجوده في السجن فدعا صاحبيه إلى دين الله . لعلمه أن الإنسان فى وقت الشدة يتلمس قوة عليا يلجأ إليها لتعينه في محنته . والسجن هو ضيق وشدة . ويكون المرء فى شدته أقرب إلى الإستجابة لما يلقى إليه من أقوال . وقد أغفل كاتبو التوراة هذا الجانب الروحى والإيمانى فى القصة . ولنر قول القرآن الكريم فى ذلك :

« ودخل معه السجن فَتَيان . قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً . وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه . نبئنا بتأويله إنا

نراك من المحسنين . قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما . ذلكما مما علمنى ربى . إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب . ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء . ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس . ولكن أكثر الناس لايشكرون . يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلاَّ أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيِّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمراً . وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه . قضى الأمر الذى فيه تستفتيان . وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه . فلبث فى السجن بضع سنين » .

(٣٦ - ٤٢ - يوسف)

من الآيات السابقة وعددها ٧ آيات نجد قصة الحلم فى الآية ٣٦ وتفسيره فى الآية ٤١ . أما باقى الآيات فهى دعوة إلى التوحيد وتسفيه لعبادة الأصنام . وهذا شأن الأنبياء والمرسلين . لا يجدون فرصة للدعوة إلى الله إلا اقتنصوها .

وكان حلم الفتيان اللذين دخلا السجن معه فرصة لذلك . فهما - مع باقى المساجين - قد رأوا آيات الصلاح وحسن الخلق على يوسف فلجآ إليه . حيث أن من صفات الرجال الصالحين أنهم قادرون على تفسير الأحلام والرؤى .

أراد يوسف أن يضرب لهم مثالاً عملياً على قدراته وصدق تنبؤاته ليكونا أكثر اقتناعاً وأكثر تصديقاً لما سيقوله لهما . فأخبرهما أنه قبل أن يأتيهما الطعام الذى يوزع عليهم فى السجن سيخبرهم بماهيته ونوعه . ليبين لهم أن عنده نوعاً من المكاشفة والإخبار بالغيب . وكونه من المرضىّ عنهم من الإله .

ولما تأكد لهم صدق ما يقول . لعلهما سألاه كيف تأتى له ذلك وهو ليس من الكهنة ولا من المنجمين . وهنا أدرك يوسف أن قلوبهم قد أصبحت متشوقة لما سيقوله . وستكون عقولهم أوعى لما يلقيه إليهم . فقال لهم إن هذا العلم مما علمَّه الله « **ذلك مما علمنى ربى** » . ولا شك أن كلمة « **ربى** » كان لها وقع غريب على أسماعهم . ولعلهم تساءلوا : وهل لك رباً غير ربنا أى الملك ؟ أو لعله لم يترك لهم وقتاً ليتساءلوا بهذا السؤال . فعاجلهم بالإجابة : وقال لهم إنه ترك ملة قومهم لأنهم لا يؤمنون بالله ولا يؤمنون بالحياة الآخرة :

« **إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون** » . ولعلهم أيضاً تساءلوا : إذا كنت تركت ملة القوم ودينهم فأى دين تعبد؟ أو لعله لم يترك لهم أيضاً الفرصة ليسألوا هذا السؤال فعاجلهم بالإجابة : وقال إنه اتبع الدين الحنيف ملة آبائه وأجداده إبراهيم وإسحق ويعقوب . الأنبياء الكرام . المؤمنين بالله ولا نشرك به فى عبادته أحداً – من صنم أو ملك . أو نقول هو ابن الإله أو غيره كما كان ملوك ذلك العصر يدَّعون . وأخبرهم أن هذا الإيمان بالله وعدم الإشراك – هو من فضل الله عليه وعلى آبائه وأجداده . فضل علينا بالذات . لأن الله اصطفانا للنبوة . وفضل على الناس إذ كلفنا أن نبلغ عنه فكر التوحيد والدعوة إلى عبادته وحده . مما فيه خير الناس . وكان الواجب على الناس أن يشكروا الله على ذلك . ولكن أكثر الناس لا يشكرون .

ثم أراد أن يبين لهم أن حاله مثل حالهم – هو مسجون مثلهم – فقال « **يا صاحبى السجن** » ومراده أن السجن ضيق وشدة . وفى وقت الضيق والشدة لا يقول المرء إلا بما هو حق . ثم سألهم سؤال إقرار – سؤالاً بحيث تكون الإجابة نابعة من أنفسهم وإقراراً لما يقول . فسألهم « **أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟** » وبالطبع ستكون الإجابة : أن إلهاً واحداً خير – فالآلهة المتعددون المتفرقون سيكون لكل واحد منهم إرادة ومشيئة . وكلٌ منهم يريد من الناس أن يعبدوه هو لا غيره . وستتعارض الإرادات وفى هذا خراب للعالم . وبالطبع يكون الجواب أن الإله الواحد أقدر على تنفيذ مراده وكل المخلوقات خاضعة ومقهورة لإرادته . ثم فتح أعينهم على الحقيقة التى غابت عنهم . وهى أن هذه الآلهة ما هى إلاَّ تماثيل صنعوها بأيديهم وأعطوها هم وآباؤهم أسماءها . وليس لها من قوة ولا سلطان . أما الحكم كله فهو لله . وقد أمر الله أن لا نعبد أحداً سواه . وذلك هو الدين القويم والصراط المستقيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة وهذه البديهية .

« **ما تعبدون من دونه إلاَّ أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله . أمر ألا تعبدوا إلاَّ إياه . ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** » . (٤٠ – يوسف)

وهنا نتوقف قليلاً لنتساءل : هل كان يوسف عليه السلام مُكَلَّفاً بدعوة المصريين كلهم لنبذ عبادة الأصنام ودعوتهم إلى عبادة الله وحده؟ وهل كان عليه – فى المستقبل حينما آل إليه أمر مصر – أن يدخل إلى معابدهم ويكسِّر الأصنام كما فعل جده إبراهيم عليه السلام ؟ بالطبع لا .

فيوسف النبى – عليه السلام – يدعو إلى الله فى عشيرته ومحيطه وينتهز الفرصة الملائمة لذلك . ويكون أحد وسائله فى الدعوة إلى الله أن يكون قدوة حسنة فى خلقه ومعاملاته . فكان

يوسف الصديق مثالاً للعفة والطهارة والصلاح ، مثالاً محبباً إلى النفوس يُقتدى به . كما كانت له مهمة أخرى خطيرة ، وهى أن يعين مصر وأهلها على اجتياز محنة السنوات السبع العجاف.

نعود إلى يوسف عليه السلام فى السجن . وقد انتهى من إعلانه عن فكر التوحيد الذى يدين به ، أقبل على صاحبيه بما يودان سماعه من تفسير حلميهما . قال إن الأول سيفرج عنه ويعود لوظيفته التى كان عليها قبل سجنه ساقيا للملك . ويسقى سيده خمراً . أما الآخر فسيأمر الملك بقتله وصلبه وستأكل الطير رأسه ولحمه .

ويقال إنهما قالا له : إنما كنا نلعب ولم نر شيئاً . فقال لهما : « **قضى الأمر الذى فيه تستفيان** » لقد قضى الأمر سواء كان حلماً رأيتماه أم لم تريا شيئاً ولكن تستفهمان عن معنى هذه الحالة فإن ما أخبرتكما به هو أمر لابد حاصل .

وقد ورد فى الحديث الشريف – رواه أحمد عن معاوية بن حيدة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعَبَّر . فإذا عُبِّرت وقعت .

وقال مجاهد وغيره : من تحلَّم بباطل وفسَّره . فإنه يلزم بتأويله .

بعد أن أتمَّ تفسير الحلم لهما . قال للساقى وهو الذى أوَّل حلمه بأنه سينجو ويعود إلى وظيفته أى ساقيا للملك . قال له اذكرنى عند سيدك وربِّك أى الملك .

« وقال للذى ظن أنه ناج منهما . اذكرنى عند ربك . فأنساه الشيطان ذكر ربه . فلبث فى السجن بضع سنين » . (٤٢ – يوسف)

وقال وهب بن منبه : مكث أيوب فى البلاء سبعاً . ويوسف فى السجن سبعاً وقال الضحاك : أربعة عشرة سنة . وعن ابن عباس : اثنتا عشرة . سنة ويمكن استبعاد القولين الأخيرين لأن البضع هو ما بين الثلاث إلى التسع . والأرجح هو أنه مكث فى السجن سبع سنين .

وقال مجاهد ومحمد بن اسحق وغير واحد إن الضمير فى قوله : « **فأنساه الشيطان ذكر ربه** » عائد على يوسف عليه السلام . وأسند ابن جرير حديثاً عن آخرين عن ابن عباس مرفوعاً قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : لو لم يقل – يعنى يوسف – الكلمة التى قال ، ما لبث فى السجن طول ما لبث حيث يبتغى الفرج من عند غير الله . ويقول ابن كثير وهذا الحديث ضعيف جداً لأن من رواته سفيان بن وكيع ضعيف . وإبراهيم بن يزيد هو الجوزى أضعف منه . وقد روى هذا الحديث عن الحسن وقتادة مرسلاً عن كل منهما . وهذه المرسلات ههنا لا تقبل .

وروى عن أنس خبر يقول : أوحى الله تعالى إلى يوسف عليه السلام : من استنقذك من القتل حين هم إخوتك أن يقتلوك ؟ قال : أنت يارب . قال فمن استنقذك من الجب إذ ألقوك فيه؟ قال : أنت يارب . قال فمن استنقذك من المرأة إذ همت بك؟ قال : أنت يارب . قال : فما بالك نسيتنى وذكرت آدمياً ! قال : يارب كلمة تكلم بها لسانى . قال : وعزتى لأدخلنك فى السجن بضع سنين .

وجاء فى تفسير القرطبى مثل هذا الخبر : أن جبريل عليه السلام جاء إلى يوسف وهو بالسجن معاتباً . فقال له : من خلَّصك من القتل من أيدى إخوتك؟ قال : الله تعالى . ثم سأله عمَّن أخرجه من الجب ومن عصمه من الفاحشة . وفى كل منهما كان يجيب : الله تعالى . قال جبريل : فكيف تركت ربك فلم تسأله ووثقت بمخلوق. قال : يارب كلمة زلت منى . أسألك يا إله إبراهيم وإله يعقوب عليهما السلام أن ترحمنى . قال جبريل : فإن عقوبتك أن تلبث فى السجن بضع سنين .

والاستعانة بالعباد فى الخلاص من البلاء وتفريج الكرب - مما لا بأس به لعامة الناس . ولكن الأليق بالأنبياء ترك ذلك . والتوجه إلى الله فى كل شأنهم .

والأرجح أن الذى نسى هو ساقى الملك . ذلك أنه نسي يوسف تماماً . وبسبب ذلك النسيان بقى يوسف فى السجن بضع سنين . والدليل على ذلك أن القرآن بعد ذلك قال : « **وقال الذى نجا منهما . وادَّكر بعد أمَّة** » . (من الآية ٤٥ - يوسف)

ولو تصورنا أن الساقى لم ينَس . وذكر أمر يوسف للملك . وأن الملك أمر بالأفراج عنه ضمن من كان يشملهم العفو الملكى فى الأعياد . لو حدث هذا . لعاد يوسف إلى بيت العزيز كما كان . ولما تغير شيىء فى حياته بعد ذلك . فتأخير خروجه من السجن كان بتدبير من الله ولحكمة إلهية .

فقد حلم الملك حلماً حار فى تفسيره . رأى أنه على شاطىء النهر . وخرجت من النهر سبع بقرات سمان . ثم خرجت وراءهن سبع بقرات هزيلة عجاف . والتهمت البقرات الهزيلة البقرات السمان . ثم رأى سبع سنبلات خضر تنمو على شاطىء النهر ثم تغيب ويبقى مكانها سبع سنبلات جافة يابسة .

استيقظ الملك من نومه فزعاً . شاعراً بانقباض . واستدعى العرافين والكهنة وكبير وزرائه وقص عليهم رؤياه . وطلب منهم تفسيرها إن كان ذلك فى مقدورهم . ولكنهم عجزوا عن تفسيرها . وقالوا أضغاث أحلام أى تخاليط وأباطيل . والضغث هو ما جمع من أخلاط النبات . أى أنها لا تعبر عن شىء حقيقى . ثم اعترفوا بعدم علمهم بتأويل الأحلام .

والحلم والرؤيا شىء واحد . إلاَّ أنه جرى العرف على أن الرؤيا تطلق على ما يكون خير . أما الحلم فما هو غير ذلك .

« وقال الملك . إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف . وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » .

(٤٣ - ٤٤ يوسف)

تصف التوراة الحلم بشىء من التطويل (إصحاح ٤١ تكوين) :

وحدث من بعد سنتين من الزمان أن فرعون رأى حلماً . وإذا هو واقف عند النهر . وهو ذا سبع بقرات طالعة من النهر حسنة المنظر وسمينة اللحم . فارتعت فى روضة . ثم هو ذا سبع بقرات أخرى طالعة وراءها من النهر قبيحة المنظر ورقيقة اللحم . فوقفت بجانب البقرات الأولى على شاطىء النهر فأكلت البقرات القبيحة المنظر والرقيقة اللحم البقرات السبع الحسنة المنظر والسمينة . واستيقظ فرعون .

ثم نام فحلم ثانية . وهو ذا سبع سنابل طالعة فى ساق واحدة سمينة وحسنة . ثم هو ذا سبع سنابل رقيقة وملفوحة بالريح الشرقية نامية وراءها . فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل السبع السمينة الممتلئة واستيقظ فرعون . وإذا هو حلم .

وكان فى الصباح أن نفسه انزعجت . فأرسل ودعا جميع سحرة مصر وجميع حكمائها وقص عليهم حلمه فلم يكن من يعبِّر لفرعون .

جاء فى التوراة أن يوسف بقى فى السجن سنتان فقط . فى حين أن بضع سنين التى وردت فى القرآن الكريم تطلق على ما بين الثلاث إلى تسع سنوات ولو نظرنا فى جدول حياة يوسف (ص ٥٣٥) نجد أنه أمضى سبع سنوات فى السجن . إذ دخله وعمره ٣١ عاماً . وكان خروجه منه وعمره ٣٨ عاماً .

وتستمر التوراة : ثم كَلَّم رئيس السقاة فرعون قائلاً : أنا أتذكر اليوم خطاياى . فرعون سخط على عبديه فجعلنى فى حبس بيت رئيس الشرط أنا ورئيس الخبازين . فحلمنا حلماً فى ليلة واحدة أنا وهو . حلمنا كل واحد بحسب تعبير حلمه . وكان هناك معنا غلام عبرانى عبد لرئيس الشرطة فقصصنا عليه . فعبَّر لنا حلمينا . عبر لكل واحد بحسب حلمه . وكما عبر لنا هكذا حدث . ردنى أنا إلى مقامى وأما هو فعلَّقه .

فأرسل فرعون . ودعا يوسف . فأسرعوا به من السجن . فحلق وأبدل ثيابه ودخل على فرعون . فقال ليوسف . إنى كنت فى حلمى واقفاً على شاطىء النهر . وهو ذا سبع بقرات طالعة من النهر سمينة اللحم وحسنة الصورة . فارتَعَت فى روضة . ثم هو ذا سبع بقرات أخرى طالعة وراءها . مهزولة وقبيحة الصورة جداً ورقيقة اللحم . لم أنظر فى كل أرض مصر مثلها فى القباحة . فأكلت البقرات الرقيقة والقبيحة البقرات السبع الأولى السمينة . فدخلت أحوامها ولم يعلم أنها دخلت فى أجوافها . فكان منظرها قبيحاً كما فى الأول . واستيقظت . ثم رأيت فى حلمى وهو ذا سبع سنابل طالعة فى ساق واحدة ممتلئة وحسنة . ثم هو ذا سبع سنابل يابسة رقيقة ملفوحة بالريح الشرقية نابتة وراءها . فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل السبع الحسنة . فقلت للسحرة . ولم يكن من يخبرنى .

فقال يوسف لفرعون . حلم فرعون واحد . قد أخبر الله فرعون بما هو صانع . البقرات السبع الحسنة هى سبع سنين . والسنابل السبع الحسنة هى سبع سنين . هو حلم واحد والبقرات السبع الرقيقة القبيحة التى طلعت وراءها هى سبع سنين . والسنابل السبع الفارغة الملفوحة بالريح الشرقية تكون سبع سنين جوعاً . هو الأمر الذى كلمت به فرعون . قد أظهر لفرعون ما هو صانع . هو ذا سبع سنين قادمة شبعاً عظيماً فى كل أرض مصر . ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعاً . فينسى كل الشبع فى أرض . ويتلف الجوع الأرض . ولا يُعرف الشبع فى الأرض من أجل ذلك الجوع بعده . لأنه يكون شديداً جداً . وأما عن تكرار الحلم على فرعون مرتين فلأن الأمر مقرر من قبَل الله . والله مسرع ليصنعه . فالآن لينظر فرعون رجلاً بصيراً وحكيماً ويجعله على أرض مصر . يفعل فرعون فيوكّل نُظاراً على الأرض . ويأخذ خمس غلة أرض مصر فى سبع سنى الشبع فيجمعون جميع طعام هذه السنين الجيدة القادمة ويخزنون قمحاً تحت يد فرعون طعاماً فى المدن ويحفظونه . فيكون الطعام ذخيرة للأرض لسبع سنى الجوع التى تكون فى أرض مصر . فلا تنقرض الأرض بالجوع .

وعبَّر القرآن الكريم عن هذا كله فى قوله تعالى :

« وقال الذى نجا منهما وادَّكر بعد أمة . أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون يوسف أيها الصدِّيق . أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى لناس لعلهم يعلمون . قال تزرعون سبع سنين دأبا . فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلاً مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلاَّ قليلاً مما تحصنون . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » .

(٤٥ – ٤٩ – يوسف)

من أمثلة الإيجاز فى هذه الآيات كلمة « **فأرسلون** » ففيها معنى طلب الإذن بالإرسال ولا داعى لذكر أن الإرسال سيكون إلى السجن لأن المعروف سلفاً أن يوسف فى السجن . ويُفهم أنه قد سُمح له بدخول السجن ومقابلة يوسف . لأن الكلمة التالية موجهة إلى يوسف .

فسَّر يوسف عليه السلام الحلم للساقى فقال له : عليكم أن تزرعوا سبع سنين دأباً – أى بكد ومداومة على العمل والاجتهاد فيه . وستعطيكم الأرض غلة طيبة إذ هى سنين سمان . وما تحصدونه فدعوه فى سنابله . واختزنوا أغلبه . وبقاؤه فى سنبله يحميه من السوس . إلاقليلاً تطحنونه وتأكلون منه . وسيأتى بعد ذلك سبع سنين جفاف وقحط . ولا تجود الأرض بغلة . وستأكلون أثناءها ما اختزنتموه وتركتموه فى سنبله . وهذا هو ما قدمتم لهن – ولكن لا يجب أن تأكلوا كل ما اختزنتموه . بل يجب أن تحتجزوا جزءاً صغيرا « **تحصنون** » أى تحترزونه وتحافظون عليه ليكون بذوراً وتقاوى للزراعة فيما بعد سنوات الجدب . ثم يأتى بعد ذلك عام يكون فيه الغوث والمطر الغزير ويأتى الفرج . وتنبت الحبوب والأشجار التى تعصرون ثمارها مثل العنب والزيتون والسمسم وغيرها . وبعضهم قرأها تُعصرون أو تعصِرون والعصر هنا من أعصرت السحابة أى حان وقت عصر الرياح لها لتمطر فيغاث الناس ويُعصِرون . وقيل إن هذاالعام الأخير . لم يكن فى الحلم ما يشير إليه . بل هو علم آتاه الله يوسف . ووحياً أوحاه إليه .

وكانت مصر تمر بها فترات جفاف وجدب حينما يقل ماء النيل ولا يأتى الفيضان . وبعض هذه المجاعات حدثت فى أيام الأسرة الثالثة فى عصر الملك زوسر . وقد وجدت كتابات على الآثار تدل على ذلك . وفى عصر الأسرة الثالثة عشرة التى سبقت قليلاً جداً عصر يوسف . حدثت أيضاً مجاعة فى مصر . ولكن المجاعة التى حدثت فى عصر يوسف كانت أشدها وأطولها وقتاً . وعم الجدب – ليس مصر فقط بسبب قلة الفيضان – بل عم الجفاف منطقة الشرق الأدنى كله بما فيه فلسطين والشام . وكان بدو هذه المناطق يأتون مصر ليأخذوا من الحبوب التى اختزنها يوسف لمثل هذه الأيام الصعبة .

وكما نرى فقد جاء السرد القرآنى للقصة مختصراً . وفى نفس الوقت يصحح ما أغفله كاتبو التوراة :

١ – يوضح القرآن أن الذى قص الحلم على يوسف هو الساقى . وحدث ذلك فى السجن . وعبَّر يوسف الحلم للساقى وأوضح له ما يجب عمله . وعاد الساقى إلى الملك وأخبره بما قال يوسف فى تفسير الحلم . وبالاحتياطيات التى تتخذ لتلافى آثار الجدب . فأعجب الملك بهذا التفسير الذى يدل على بعد نظر وحكمة . فأمر بإحضار يوسف من السجن لمقابلته .

كاتبو التوراة جعلوا الساقى يستدعى يوسف من السجن فيخرج يوسف ويقص الملك بنفسه الحلم على يوسف ويسمع التفسير من يوسف .

٢ – يوضِّح القرآن بجلاء أن يوسف لم يرض أن يخرج من السجن دون أن تظهر براءته كاملة من التهمة التى ألصقوها به وزجوه فى السجن ظلماً . فى حين لم يركز كاتبو التوراة على تبرئته . بل جعلوه بمجرد أن يستدعيه الملك يسرع بالخروج من السجن .

ونستكمل القصة . ذلك أن الملك لما سمع تفسير الحلم الذى أدلى به يوسف إلى الساقى . أعجب بالتفسير . إذ هو ينبىء بما سيحدث فى المستقبل من مجاعة فى أرض مصر . ويوصى بما يجب اتخاذه لتخفيف وطأة المجاعة . كذلك أعجب الملك بأن يوسف لم يشترط مثلاً إخراجه من السجن أولاً . مقابل تفسيره للحلم . ولو فعل فلا شك أن الملك كان سيجيبه إلى طلبه . ولكنه رآه قد أدلى طواعية بتفسير الحلم للساقى . مما يدل على كرم أخلاق وحرص على المصلحة العامة . وليس عن رغبة فى الحصول على منفعة مقابلة .

« وقال الملك ائتونى به . فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن . إن ربى بكيدهن عليم . قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه . قلن حاش لله. ما علمنا عليه من سوء. قالت امرأة العزيز . الآن حصحص الحق . أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب . وأن الله لا يهدى كيد الخائنين. وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء . إلا ما رحم ربى . إن ربى غفور رحيم . وقال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى . فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين » . (٥٠ – ٥٤ – يوسف)

أمر الملك بأن يأتوا بيوسف من السجن وهذه المرة لم يكن الساقى هو الذى ذهب ليوسف فى السجن . بل كان رسولاً خاصاً موفداً من قبل الملك وأخبر يوسف أنه سيخرج من السجن لأن الملك يطلبه . كل هذا تضمنه لفظ « فلما جاءه الرسول » .

لم يرض يوسف أن يخرج من السجن خروجاً مبتوراً . بل أراد أن يكون خروجه مع تبرئته تبرئة كاملة . لذلك فقد طلب من الرسول أن يرجع إلى الملك ويبلغه – كما نقول بلغة عصرنا – أن يعيد التحقيق فى التهمة التى أدخل السجن بسببها . وسماع شهادة الشهود . وهن النسوة اللائى حضرن وليمة امرأة العزيز وقطعن أيديهن وفى قوله تعالى : **«إن ربى بكيدهن عليم»** قال الألوسى : جاء فى الكشاف أنه عليه السلام أراد بهذا أنه كيد عظيم لا يعلمه إلا الله

تعالى . أو استشهد بعلم الله على أنهن كدن له وأنه برىء مما اتهم به – أو أراد الوعيد لهن* . أى أن الله عليم بكيدهن ومجازيهن عليه . ويحتمل أيضاً أنه كان يقصد سيده أى العزيز وقال عنه قبل ذلك : إنه ربى أحسن مثواى . وخاصة أن العزيز بنفسه قال من قبل : « **إنه من كيدكن . إن كيدكن عظيم** » . وكأن يوسف بهذا القول يطلب أيضاً سماع شهادة سيده وهو العزيز لأنه عالم بمقدار الكيد الذى صنعته امرأته . وعالم بحقيقة الأمر .

وفى المسند والصحيحين من حديث الزهرى عن سعيد وأبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال – رب أرنى كيف تحيى الموتى – ويرحم الله لوطاً . لقد كان يأوى إلى ركن شديد – ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى**.

وفى لفظ لأحمد عن آخرين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر**.

وقد أخرج غير واحد عن ابن عباس وابن مسعود عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره . والله تعالى يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان . ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى اشترطت أن يخرجونى . ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال: ارجع إلى ربك . ولو كنت مكانه ولبثت فى لسجن ما لبث لأسرعت الإجابة . وبادرتهم الباب . ولما ابتغيت العذر . أن كان حليماً ذا أناة***.

وهكذا أعاد الملك التحقيق – بنفسه – فى الأمر واستدعى الشهود وهن النسوة اللاتى كن فى الوليمة وبالطبع كان لابد من استدعاء امرأة العزيز صاحبة الوليمة وما كانت لتحضر وحدها بل معها زوجها إذ أن يوسف قد استشهد بأنه يعلم الكيد من أوَّله . وأوجز القرآن الكريم وتجاوز عن ذكر هذا كله إذ أنه سيعلم من ثنايا الكلام التالى . فنجد أن الملك يسأل النسوة . ثم تتكلم امرأة العزيز . ثم توجه الكلام إلى زوجها . وهذا الإيجاز وجه من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم .

ويدأ التحقيق بأن سأل الملك النسوة عن شأنهن مع يوسف فقد نمى إليه أن كل واحدة منهن – يوم الوليمة – كانت تدعوه إلى بيتها – فأراد أن يستوثق هل لبى دعوة إحداهن « **ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه** » . وكان جوابهن حاش لله : تنزيهاً له وتعجباً من

---

* تفسير الألوسى جـ ١٢ ص ٢٥٧ .
** تفسير ابن كثير . جزء ٢ ص ٤٨١ .
*** تفسير الألوسى جزء ١٢ ص ٢٥٨ .

عفته عليه السلام وفى هذا نفى لأى ميل منه نحوهن أو إجابة دعواتهن . ثم بالغن فى نفى أى سوء من جانبه . ولا حتى أية مقالة سوء عنه « **ما علمنا عليه من سوء** » . كان فى هذه الإجابة تبرئة ليوسف عليه السلام من الإستجابة لمراودة النسوة . ولكن بقى الطرف الأهم وهو امرأة العزيز . ولابد أن الملك قد توجه إليها بنفس السؤال . ولعلها خشيت إن قالت غير الحقيقة أن تقوم النسوة بتكذيبها . فهى قد اعترفت أمامهن – يوم الوليمة – بأنها قد راودت يوسف عن نفسه فاستعصم . بل وهددت أنه إذا لم يرضخ لمطلبها سيكون مصيره السجن . وأسقط فى يدها . فلم تملك إلا الإعتراف بالحقيقة . فبادرت قائلة : الآن ظهر الحق واضحاً . وظهرت حصة الحق من حصة الباطل « **الآن حصحص الحق** » . أو من حصحص البعير إذا ألقى ما على ظهره ليُنَاخ ويستقر . فيكون معناها الآن استقر الحق أى وضح الحق تماماً . واعترفت بأنها هى التى راودته عن نفسه وأنه كان صادقاً حينما قال : هى راودتنى عن نفسى . فقالت « **وإنه لمن الصادقين** » .

وأكملت امرأة العزيز كلامها فى المجلس ولعلها توجه الكلام إلى زوجها . لتخبره أنها لم تخنه بالغيب من وراء ظهره . وقد ظهر الحق واضحاً لأن الله لا يخفى كيد الخائنين . وبهذا أبرأت ساحة زوجها مما شابها . وكان بعض القوم قد طعنوه فى شرفه بهذه الأراجيف وشككوا فى صلاحيته لمنصبه بهذا الإتهام الذى يحوم حول بيته وشرفه .

بعضهم نسب قول : « **ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب** » إلى يوسف عليه السلام موجها الكلام إلى العزيز ليطمئنه أنه لم يخنه خفية . ومن الموضوعات فى هذا المقام . أن جبريل عليه السلام . قال له وقتئذ : ولا يوم هممت بما هممت به ؟ فقال : « **وما أبرىء نفسى . إن النفس لأمَّارة بالسوء إلاَّ ما رحم ربى** » . نسبوا هذه الأقوال إلى مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم . ونفى ابن كثير* هذا الزعم وقال إن سياق الكلام يدل على أن الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك . ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم بل بعد ذلك أحضره الملك .

وتلك هى الحقيقة . فقد كان يوسف فى السجن متمسكاً بألا يخرج منه إلاَّ بعد أن ينتهى التحقيق وتظهر براءته واضحة ناصعة .

وهكذا كان كلامها لتطمئن زوجها أنها لم تخنه بالغيب . وأن الأمر لا يعدو كونه وسوسة فى النفس انقادت لها . والنفس أمارة بالسوء وهى لا تبرىء نفسها مما زينته لها « **وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء . إلاَّ ما رحم ربى . إن ربى غفور رحيم** » .

---

* تفسير ابن كثير. جزء ص٢ ص ٣٨١ .

لم يبد ابن كثير رأيه فى القول : « **إلاَّ ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم** » هل هى تطلب الرحمة والمغفرة من الله سبحانه وتعالى؟ وهل كان القوم – وهم يعبدون الأصنام يطلبون منها الرحمة والمغفرة بمثل هذه الألفاظ ؟ أم كانوا يؤمنون بأن هناك إلها – من ورائها – وهو الذى تطلب منه الرحمة والمغفرة – أم أنها تطلب الرحمة والمغفرة من زوجها . وكانت المرأة تقول عن زوجها إنه سيدها – « **وألفيا سيدها لدى الباب** » ومن المحتمل أن المرأة كانت أيضاً تقول عنه إنه ربها زيادة فى تعظيمه وإكباره . وموقف طلب الرحمة والغفران يوجد على طالب المغفرة أن يستصغر شأن نفسه . فشبهت نفسها بجارية وهو ربها .

يقول الألوسى* إن هذا القول : « **وما أبرىء نفسى ...** » كان من يوسف عليه السلام تواضعاً لله تعالى وتحاشياً عن تزكية نفسه . إذ أن النفس البشرية بطبيعتها كثيرة الميل إلى الشهوات وأمَّارة بالسوء . وأن رحمة الله هى التى تصرف السوء وتعصم من الزلل . وينفى هذا ما سبق أن ذكرناه من أن يوسف عليه السلام كان لا يزال فى السجن .

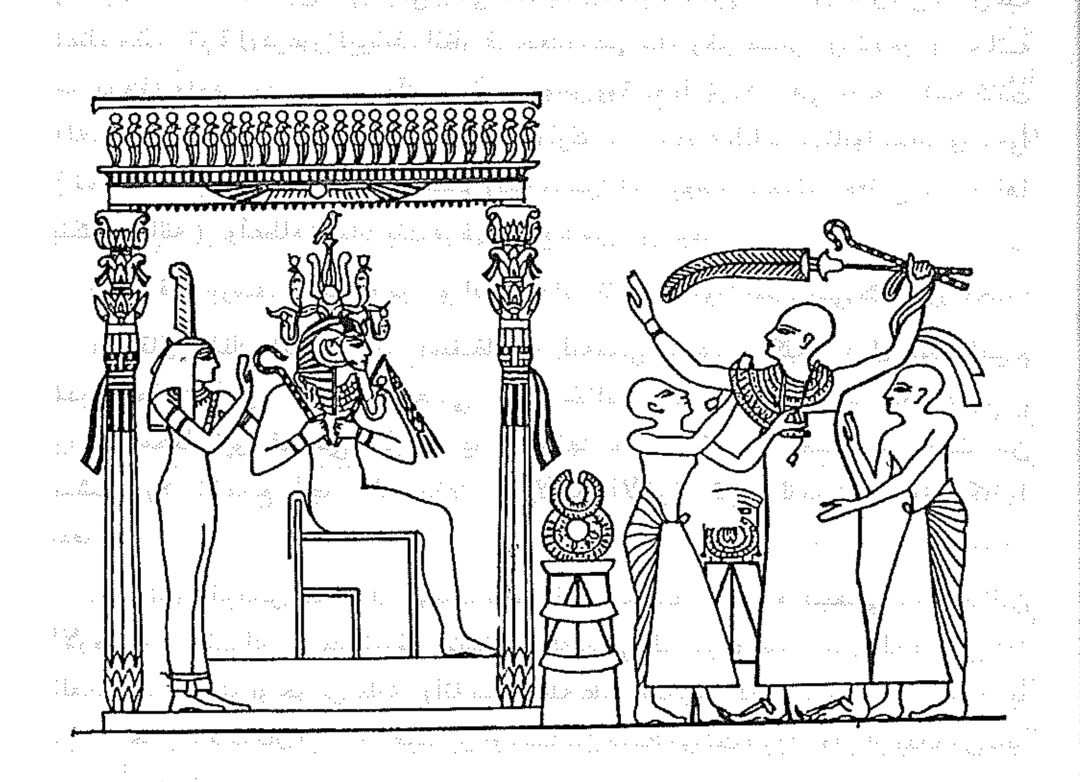
وانتهى التحقيق وتأكد للملك أن يوسف برىء من أى تهمة . وتأكد له أن وضعه فى السجن كان ظلماً . إذ لمس الملك مدى أمانته . والحفاظ على شرف سيده مع توافر كل الظروف التى كانت تغريه بغير ذلك . تأكد الملك من حسن خلقه . ونقاء سريرته . وأمانته . وأكبر فيه عدم ارتضائه أن يكون خروجه من السجن قبل أن تظهر براءته كاملة . لهذا رأى الملك أن الأجدر أن يكون مثل هذا الشخص من خاصته هو . ومن أهل مشورته .

« **قال الملك . أئتونى به أستخلصه لنفسى** » . والمعنى أن الملك أرسل رسولاً إلى يوسف . ومعه الإجابة على سؤال يوسف عندما قال «ارجع إلى ربك فاسأله ... » وأخبر الرسول يوسف أن الملك حقق فى الأمر بنفسه وظهرت براءته وأن الملك يريده أن يكون من خاصته . حينئذ – وليس قبله – خرج يوسف من السجن . وقابل الملك . ولما كلمه الملك ازداد اقتناعاً برجاحة عقله . وحسن خلقه . فقال له : إنك منذ اليوم تعمل لدينا . ولك مكانة عالية وسلطة . وموضع مكين أمين . آمن من كل مكروه . أو مؤتمن على كل شىء .

« **فلما كلَّمه . قال إنك اليوم لدينا مكين أمين** » . ويقال إن الملك قال له : إنى أحب أن أسمع رؤياى منك . فحكاها له طبق ما رواها سابقاً . فأجلسه الملك على السرير إلى جواره وفوض إليه أمر كل شىء فى مصر . وشكل ٩٧ عبارة عن لوحة وجدت فى مقبرة والكتابة بجوارها تقول : خلع فرعون خاتمة . وألبسه ثياب بيضاء ووضع طوق ذهب فى عنقه . ولعلها مقبرة رسول الملك أو مقبرة ساقى الملك الذى كان أحد صاحبى السجن مع يوسف (انظر أيضاً ص ٥٦٣) .

---

* تفسير الألوسى . جزء ١٣ ص ٢ .



شكل ٩٧ – لوحة وجدت فى مقبرة ومكتوب بجوارها
« خلع فرعون خاتمه وألبسه ثياب بيضاء ووضع طوق ذهب فى عنقه » .

تقول التوراة (إصحاح ٤١ تكوين) إن يوسف لما فسر الحلم للملك وأوضح له ما يجب إتخاذه من إجراءات لمعالجة آثار المجاعة التى ستحدث :

فحسن الكلام فى عينى فرعون وفى عيون جميع عبيده . فقال فرعون لعبيده وهل نجد مثل هذا . رجلاً فيه روح الله . ثم قال فرعون ليوسف : بعد ما أعلمك الله كل هذا ليس بصير وحكيم مثلك . أنت تكون على بيتى وعلى فمك يقبل جميع شعبى . إلاَّ أن الكرسى أكون فيه أعظم منك . ثم قال فرعون ليوسف انظر قد جعلتك على كل أرض مصر . وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله فى يد يوسف . وألبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب فى عنقه (وهذه كانت الملابس الرسمية التى يلبسها عظماء البلاد) وأركبه فى مركبته الثانية . ونادوا أمامه واركعوا (تحية له) . وجعله على كل أرض مصر ودعا فرعون إسم يوسف صفنات فعنيح (ومعناها يتكلم من الله) . وأعطاه أسنات بنت فوطى فارع كاهن أون زوجة .

وهكذا قُدر ليوسف أن يرتفع من رق العبودية إلى نائب الملك والمتصرف فى كل شئون مصر

« وقال الملك أئتونى به أستخلصه لنفسى . فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلنى على خزائن الأرض . إنى حفيظ عليم . وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء . نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » . (٥٤ - ٥٧ - يوسف)

وهنا آثار البعض مسألة أن يوسف طلب الولاية لنفسه بقوله : **« اجعلنى على خزائن الأرض »** . وطلب التولية محظورفى الإسلام لقوله صلى الله عليه وسلم : إنا والله لا نولىٍّ هذا العمل أحدا سأله أو حرص عليه . وأنه صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن سمرة : يا عبد الرحمن . لا تسأل الإمارة . فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها . وإن أوتيتها من غير مسأله أُعنت عليها .

كذلك أثاروا مسألة قوله : **« إنى حفيظ عليم »** وهى تزكية منه لنفسه . وذلك منهى عنه لقوله تعالى : **« فلا تزكوا أنفسكم »** . (٣٢ - النجم)

وقال بعض المفسرين إن يوسف إنماطلب الولاية رغبة فى العدل وإقامة الحق والإحسان . وليس هو من باب التزكية للنفس وإنما هو للإشعار بحنكته ودرايته لاستلام « وزارة المالية » وقال أبو السعود فى تفسيره* لقوله تعالى : **« اجعلنى لى خزائن الأرض »** أى أرض مصر . وولنى أمرها . إنى حفيظ لها ممن لا يستحقها . عليم بوجوه التصرف فيها . وفيه دليل على جواز طلب الولاية إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل .

---

* نقلاً عن : دراسات تاريخية من القرآن الكريم د . بيومى مهران . جزء ٢ ص ٦٦ .

وقال الخازن فى تفسيره* : يكره طلب الإمارة إذا لم يتعين عليه طلبها . فإذا تعين وجب عليه ولا كراهية عليه . وأما يوسف فكان عليه طلب الإمارة . لأنه مرسل من الله تعالى وكان مكلفاً برعاية المصالح بسبب ما سيحدث من قحط .

وذهب الإمام النسفى** فى تفسيره إلى أن يوسف عليه السلام وصف نفسه « **إنى حفيظ عليم** » أى بالأمانة والكفاية – ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله وإقامة الحق وبسط العدل . ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه فى ذلك . فطلبه ابتغاء لوجه الله . لا لحب الملك والدنيا .

أما ابن كثير*** فيقول إنه يجوز للرجل أن يمدح نفسه . إذا جُهِلَ أمره . وقال إنه حفيظ أى حافظ لما سيستودعه الملك من أمر مصر . وعليم بسنى الجدب ولعلمه بقدرته على العمل لما فيه مصالح الناس .

ويقول صاحب الظلال**** إن هذه القواعد – عدم طلب الولاية وعدم تزكية النفس – إنماتقررت فى النظام الإسلامى ولم تكن مقررة على أيام يوسف عليه السلام . وقد يُرَدُّ أن هذه مسائل تنظيمية تنصلح بها أحوال العباد فهى تصلح لكل زمان . ومطلوبة فى كل وقت . وليست من المسائل التعبُّدية التى تختلف باختلاف الشرائع .

وجاء فى رواية أن الملك لما علم تعبير الحلم قال ليوسف : ما ترى ؟ قال تزرع فى سنى الخصب . فإنك لو زرعت على حجر نبت . وتبنى الخزائن وتجمع فيها الطعام بقصبه وسنبله فإنه أبقى . ويكون القصب علفاً للدواب . فإذا جاءت السنوات العجاف . وجد الناس ما يأكلون. فقال الملك . ومن لى بهذا ومن يجمعه ويكفينى العمل فيه ؟ قال . اجعلنى على خزائن الأرض .

ومع كل ما تقدم . فقد ورد حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم يقول : رحم الله أخى يوسف . لو لم يقل اجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكنه أخر ذلك سنة . وهذا معناه أن الأليق بالأنبياء عليهم السلام ، ترك الأمر كله لله ، يدبره كما يشاء . وما دام الأمر فيه مصلحة العباد ولن يقوم به على خير وجه سوى يوسف عليه السلام . فإنه بمشيئة الله سيصير إليه دون طلب منه .

---

* تفسير الخازن . جـ ٣ ص ٢٩٢ .
** تفسير النسفى جـ ٢ ص ٢٢٧ .
*** تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٨٢ .
**** فى ظلال القرآن . جـ ٤ ص ٢٠٠٦ .

وهكذا توطدت مكانة يوسف عليه السلام فى مصر . إذ أصبح نائب الملك يتصرف فى جميع الأمور كما يشاء وينزل فى أى مكان من أرض مصر و « **يتبوأ منها حيث يشاء** » . وكان هذا عطاء ورحمة من الله تعالى . لأنه كان تقياً ورعاً محسناً . والله لا يضيع أجر المحسنين . هذا جزاؤهم فى الدنيا . ولهم جزاء آخر فى الآخرة أكبر وأكثر خيراً . جزاء لهم بإيمانهم وتقواهم .

« **نصيب برحمتنا من نشاء . ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون** » .

(٥٦ - ٥٧ - يوسف)

سبق أن ذكرنا (ص ٤٩٠) أن فرعون غير إسم يوسف إلى صفنات فعنيح وأعطاه أسنات بنت فوطى فارع كاهن أوف زوجة . وتستمر التوراة قائلة : وَوُلِدَ ليوسف ابنان قبل أن تأتى سنى الجوع ودعا يوسف إسم البكر **مَنَسَّى** قائلاً : لأن الله أنسانى كل تعبى وكل بيت أبى . ودعا الثانى **أفرايم** لأن الله جعلنى مثمراً فى أرض مذلتى . وكتب التفسير الإسلامية تذكر أسماءهم ميشا وأفرايثم .

تقول التوراة : وكان يوسف ابن ثلاثين سنة لما وقف قدام فرعون ملك مصر . فخرج يوسف من لدن فرعون واجتاز فى كل أرض مصر. ولكن لو نظرنا إلى جدول حياة يوسف (ص ٥٣٥) نجد أنه لابد كان قد بلغ من العمر ٣٩ سنة وليس ثلاثين .

مجىء إخوة يوسف :

بدأت السنوات السبع السمان . وكانت الأرض تعطى غلة كثيرة ومياه النيل متوافرة والفيضان يأتى غزيراً . وكل عود من نبات القمح وغيره يأتى بسبع سنابل ممتلئة بالحبوب . وأمر يوسف عليه السلام ببناء المخازن فى كل أنحاء مصر وعين لها حراساً وأمناء وأمر بوضع أغلب المحصول فى سنبله فى المخازن . إلاَّ القليل اللازم للأكل .

ومضت سنوات الرخاء السبع . وبدأت السنون العجاف . وقلت الأمطار أو امتنعت كلية - وجاء الفيضان منخفضاً جداً . وبالكاد تكفى مياهه للشرب . واجتاح الجفاف أرض مصر . وشمل أيضاً أرض كنعان (فلسطين) والشام وعمَّت المجاعة جميع بلاد الشرق الأدنى . وسمع الناس فى كل المنطقة أن بمصر وزيراً تنبأ بالمجاعة واحتاط للأمر فاختزن الحبوب . وتوافد الناس من البلاد المجاورة على مصر ليحصلوا على الغذاء .

وجاء إخوة يوسف . ودخلوا عليه فعرفهم . فإن أحوالهم وهيئتهم لم تتغير كثيراً عما كانت عليه منذ أنزلوه فى البئر .

أما هم فلم يعرفوه . لأنه لم يدر بخلدهم أنه لا يزال حيًا . فإن كان قد بقى فى البئر فلابد أنه قد هلك . وإن كانوا قد أخرجوه وباعوه إلى قافلة المديانيين أو أن المديانيين هم الذين أخرجوه من البئر . فلابد أنهم أخذوه معهم إلى أرض مدين واستقر هناك كعبد فى بيت أحد سادتها . ولم يخطر ببالهم أن المديانيين قد باعوه لقافلة الإسماعيليين المتوجهة إلى مصر وأن عزيز مصر اشتراه – ثم مكن الله له على النحو الذى رأيناه – حتى أصبح أهم رجل فى مصر ! فمن الطبيعى أنهم لم يتعرفوا عليه .

وأكرم يوسف وفادتهم . وسألهم عن حالهم وعددهم متظاهراً بأنه يريد معرفة ما يكفيهم من الحبوب . وعلم منهم أن والدهم (يعقوب) بخير وأن لهم أخاً صغيراً لم يحضر معهم لحب والده له ولخوفه عليه . وأعطاهم يوسف ما يلزم من الحبوب وطلب منهم أن يحضروا معهم فى المرة القادمة أخاهم الصغير ليتأكد من صدقهم . وإلا لو حضروا بدونه فلن يكون لهم كيل ولن يأخذوا حبوباً . فوعدوه أن يحاولوا إقناع أبيهم حتى يرسل أخاهم معهم فى المرة القادمة . ثم إنه أمر عمَّاله بأن يضعوا فى رحال إخوته – الأوانى الفضية وقطع الفضة التى دفعوها ثمناً للقمح الذى أخذوه . فوضعوها دون أن يشعروهم بذلك .

ولعل يوسف الصديق تحرَّج من أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام . وقيل أراد أن يردَّهم إذا وجدوا بضاعتهم فى متاعهم . ظناً منهم أنها قد وُضعت خطأ . فيعودوا لردِّها . أو أن يوسف عليه السلام خشى أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى فلا يرجعون لأخذ الحبوب مرة ثانية .

وفى طلبه أن يحضروا أخاهم الصغير فى المرة القادمة قالوا : إنهم سألوه حملاً زائداً عن عددهم لبنيامين . فأعطاهم ذلك وشرط عليهم أن يأتوه به مظهراً لهم أنه يريد أن يعلم صدقهم .

« وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم . وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم . ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين . فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون . قالوا سنراود عنه أباه . وإنا لفاعلون . وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » .

(٥٨ – ٦٢ – يوسف)

كان هذا مسلك يوسف الصدِّيق مع إخوته . فقد أحسن إليهم . ورد ثمن ما اشتروه من الحبوب دون أن يشعرهم بذلك . وبلطف طلب منهم أن يحضروا أخاه فى المرة القادمة .

تذكر التوراة سلوك يوسف عليه السلام مع إخوته بطريقة مغايرة . فتروى أنه اتهم إخوته بالتجسس على أرض مصر . ثم حبسهم ثلاثة أيام ثم استبقى شمعون محبوساً عنده وقيده أمام عيونهم !! هذه الصورة فيها من القسوة والعنف ما لا يليق صدوره من نبى كريم . فى حين أن القرآن الكريم يقرر أنه كان فى غاية الإحسان فى إنزالهم وضيافتهم بقوله : « **وأنا خير المنزلين** » .

ولننظر كيف وصف كاتبو التوراة هذا الموقف .

وكان الجوع على وجه الأرض . وجاءت كل الأرض إلى مصر . إلى يوسف لتشترى قمحاً لأن الجوع كان شديداً فى الأرض .

فلما رأى يعقوب أنه يوجد قمح فى مصر . قال يعقوب لبنيه : لماذا تنظرون بعضكم إلى بعض . وقال إنى قد سمعت أنه يوجد قمح فى مصر . انزلوا إلى هناك واشتروا لنا من هناك لنحيا ولا نموت . فنزل عشرة من إخوة يوسف ليشتروا قمحاً من مصر . وأما بنيامين أخو يوسف فلم يرسله يعقوب مع إخوته لأنه قال لعله تصيبه أذيَّة . فأتى بنو إسرائيل ليشتروا بين الذين أتوا لأن الجوع كان فى أرض كنعان . فأتى إخوة يوسف وسجدوا له بوجوهم إلى الأرض . ولما نظر يوسف إخوته عرفهم . فتنكر لهم وتكلم معهم بجفاء . وقال لهم : من أين جئتم ؟ قالوا : من أرض كنعان لنشترى طعاماً . وهم لم يعرفوه .

فقال لهم جواسيس أنتم . لتروا عورة الأرض جئتم . فقالوا له : لا يا سيدى . بل عبيدك جاءوا ليشتروا طعاماً . نحن جميعاً بنو رجل واحد نحن أمناء . ليس عبيدك جواسيس . فقال لهم : كلاَّ بل لتروا عورة الأرض جئتم . فقالوا : عبيدك اثنا عشر أخاً . نحن بنو رجل واحد فى أرض كنعان . وهو ذا الصغير عند أبينا اليوم . والواحد مفقود . فقال لهم يوسف : ذلك ما كلمتكم به قائلاً جواسيس أنتم بهذا تمتحنون وحياة فرعون (وما كان لنبى الله يوسف أن يحلف بغير الله!!) لا تخرجون من هنا إلاَّ بمجىء أخيكم الصغير إلى هنا . أرسلوا واحداً منكم ليجىء بأخيكم . وأنتم تُحبَسُون فَيُمتحن كلامكم هل عندكم صدق . وإلاَّ فوا حياة فرعون إنكم لجواسيس . فجمعهم إلى حبس ثلاثة أيام ! ثم قال لهم يوسف فى اليوم الثالث . افعلوا هذا وأحيوا أنا خائف الله . إن كنتم أمناء فليحبس أخ واحد منكم فى بيت حبسكم وانطلقوا أنتم . وخذوا قمحاً لمجاعة بيوتكم . وأحضروا أخاكم الصغير إلىَّ فيتحقق كلامكم ولا تموتوا . ففعلوا هكذا .

وقال بعضهم لبعض . حقاً إننا مذنبون إلى أخينا الذى رأينا ضيقة نَفْسه لما استرحمنا ولم نسمع . لذلك جاءت علينا هذه الضيقة . فأجابهم رأوبين قائلاً : ألم أكلمكم قائلاً : لا تأثموا بالولد وأنتم لم تسمعوا . فهو ذا دمه يُطْلَب . وهم لم يعلموا أن يوسف فاهم لأن الترجمان كان بينهم . فتحول عنهم وبكى ثم رجع إليهم وكلمهم . وأخذ منهم شمعون وقيده أمام عيونهم .

ثم أمر يوسف أن تملأ أوعيتهم قمحاً . وتُرد فضة كل واحد إلى عدله . وأن يعطوا زاداً للطريق . ففعل لهم هكذا . فحملوا قمحهم على حميرهم . ومضوا من هناك فلما فتح أحدهم عدله ليعطى عليقاً لحماره فى المنزل رأى فضته وإذا هى فى فم عدله . فقال لإخوته . رُدَّت فضتى وها هى فى عدلى . فطارت قلوبهم وارتعدوا بعضهم فى بعض قائلين : ما هذا الذى صنعه الله بنا .

فجاءوا إلى يعقوب أبيهم إلى أرض كنعان . وأخبروه بكل ما أصابهم قائلين : تكلم معنا الرجل سيد الأرض بجفاء وحسبنا جواسيس الأرض . فقلنا له نحن أمناء ولسنا جواسيس . نحن اثنا عشر أخاً بنو أبينا . الواحد مفقود . والصغير اليوم عند أبينا فى أرض كنعان . فقال لنا الرجل سيد الأرض . بهذا أعرف أنكم أمناء . دعوا أخاً واحداً منكم عندى وخذوا لمجاعة بيوتكم وانطلقوا . وأحضروا أخاكم الصغير إلىَّ فأعرف أنكم لستم جواسيس بل إنكم أمناء فأعطيكم أخاكم وتتجرون فى الأرض . وإذا كانوا يفرغون عدالهم إذا صُرَّة فضة كل واحد فى عدله . فلما رأوا صرر فضتهم هم وأبوهم خافوا .

فقال لهم يعقوب . أعدمتمونى الأولاد . يوسف مفقود وشمعون مفقود وبنيامين تأخذونه . صار كل هذا علىَّ . وكلَّم رأوبين أباه قائلاً . اقتل ابنىَّ إن لم أجىء به إليك . سلِّمه بيدى وأنا أرده إليك . فقال لا ينزل ابنى معكم . لأن أخاه قد مات وهو باقٍ وحده . فإن أصابته أذية فى الطريق التى تذهبون فيها تُنْزِلون شيبتى بحزن إلى الهاوية .

ملحوظة : نرى أن كاتبى التوراة ينسبون إلى يعقوب اعتقاده بوفاة يوسف فى حين أن يعقوب عليه السلام كان يشعر شعوراً داخلياً بأن يوسف لم يمت . وأنه حى يرزق فى مكان ما . ولذلك قال فيما بعد : « **عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً** » .

كذلك ينسبون إليه إعرابه عن خوفه على بنيامين من أخطار الطريق . وهذا ما نفيناه فى صفحة ٤٤٢ - إذ أن يعقوب عليه السلام أوكل أمر الحفظ كُلِّيَّة إلى الله تعالى قائلاً : « **فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين** » .

ويستمر كاتبو التوراة قائلين (إصحاح ٤٣ تكوين) : وكان الجوع شديداً فى الأرض وحدث لما فرغوا من أكل القمح الذى جاءوا به من مصر أن أباهم قال لهم : ارجعوا اشتروا لنا قليلاً من الطعام . فكلمه يهوذا قائلاً : إن الرجل قد أشهد علينا قائلاً لا ترون وجهى بدون أن يكون أخوكم معكم . إن كنت ترسل أخانا ننزل ونشترى لك طعاماً . ولكن إن كنت لا ترسله لا ننزل . لأن الرجل قال لنا لا ترون وجهى بدون أن يكون أخوكم معكم .

فقال إسرائيل : لماذا أسأتم إلىَّ حتى أخبرتم الرحيل أن لكم أخاً أيضاً . فقالوا إن الرجل قد سأل عنا وعن عشيرتنا قائلاً : هل أبوكم حَيٌّ بعد . هل لكم أخ . فأخبرناه بحسب هذا الكلام . هل كنا نعلم أنه يقول انزلوا بأخيكم . وقال يهوذا لإسرائيل أبيه . أرسل الغلام معنا لنقوم ونذهب ونحيا ولا نموت . نحن وأنت وأولادنا جميعاً . أنا أضمنه . من يدى تطلبه . إن لم أجىء به إليك وأوقفه قدامك أصر مذنباً إليك كل الأيام . فقال لهم إسرائيل أبوهم . إن كان هكذا فافعلوا . خذوا من أفخر جَنْى الأرض فى أوعيتكم وأنزلوا للرجل هدية . قليلاً من البلسان وقليلاً من العسل وفستقا ولوزا وخذوا فضة أخرى فى أياديكم . والفضة المردودة فى أفواه عدالكم رُدُّوها . لعله كان سهواً . وخذوا أخاكم وقوموا ارجعوا إلى الرجل . والله القدير يعطيكم رحمة أمام الرجل حتى يُطلق لكم أخاكم الآخر وبنيامين . وأنا إذا عدمت الأولاد عدمتهم .

ويتجلى إعجاز القرآن الكريم فى اختصاره لهذا كله فى أسطر قليلة تحمل نفس المعنى . وتزيد عنها نصائح يعقوب لبنيه فى كيفية دخول المدينة والحرص حتى لا يصيبهم مكروه :

« فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا : يا أبانا منع منا الكيل . فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون . قال هل آمنكم عليه إلاَّ كما أمنتكم على أخيه من قبل . فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين . ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم رُدَّت إليهم . قالوا : يا أبانا . ما نبغى . هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا . ونمير أهلنا . ونحفظ أخانا . ونزداد كيل بعير . ذلك كيل يسير . قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله . لتأتُنَّنى به إلا أن يحاط بكم . فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل » .

(٦٣ - ٦٦ - يوسف)

ونلاحظ أنهم قالوا لأبيهم عن بنيامين :

« فأرسل معنا أخانا نكتل . وإنا له لحافظون »

وهو نفس ما قالوه من قبل عند أخذهم ليوسف :

« أرسله معنا غداً يرتع ويلعب . وإنا له لحافظون » .

ولعل هذا ما جعل يعقوب عليه السلام يتوجَّس خيفة من أن يفقد بنيامين كما فقد يوسف من قبل . فقال :

هل آمنكم عليه إلاَّ كما أمنتكم على أخيه من قبل » .

وكما سبق أن ذكرنا (ص ٤٤٢) – أنه هذه المرة أوكل الحفظ كلية إلى الله سبحانه وتعالى . وشعر أنه فى ضيق وشدة فأحبُّ أبنائه « يوسف » قد فقد من قبل . وها هو يرسل أحبَّ الباقين – ولا يدرى ما يُفعَل به . وهو يطلب من الله ألاَّ يجمع عليه مصيبتين . لأنه لن يتحملهما معاً . فهو يرجو رحمة الله لأنه أرحم الراحمين . وطلب من الله أن يحفظ ابنه الثانى هذا . فقال :

« **فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين** » .

وهو قول يَجْمُلُ بالمرء أن يقوله إذا وُجِدَ فى مثل هذا الضيق فيرجو من الله الحفظ والرحمة .

ولما رأوا أن فضتهم قد رُدَّت إليهم قالوا لأبيهم : **ما نبغى** ؟ سؤال استفهام . كأنهم يقولون ماذا نريد وراء ما نراه من إحسان العزيز إلينا وكرمه . هذه فضتنا قد رُدَّت إلينا . وجلبنا الطعام والميرة لأهلنا . وسيكون حاله كذلك فى المرة القادمة فيعطينا الطعام . وسيكون من إحسانه أيضاً أن نتمكن من حفظ أخانا ونرجع به . ولما سيرى أخانا معنا سيزيد لنا كيل بعير . إذ سيعطينا أحد عشر حمل بعير بدلاً من عشرة .

وقرأ ابن مسعود : ما تبغى ؟ والخطاب حينئذ موجه إلى يعقوب عليه السلام . وقالوا روت عائشة رضى الله تعالى عنها ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم . والمعنى أى شىء تريد أكثر من هذه المطالب المشتملة على سلامة أخينا وإعطائنا كيل زائد . أو أى شىء أكثر مما وصفنا لك من إحسان هذا الرجل إلينا ليكون ذلك داعياً إلى التوجه إليه مرة أخرى ؟ وقد تكون ما . للنفى بمعنى أننا بهذا المطلب لا نبغى ولا نتجاوز الحد فى القول ولا نكذب فيما وصفنا لك من إحسان العزيز إلينا وكرمه مما يوجب إجابة مطلبه . وغير ذلك من الأقوال التى تؤيد ما سبق ذكره (ص ٤٣٥) من أن تعدد المعانى للفظ الواحد هو وجه من وجوه الإعجاز فى اللفظ القرآنى .

كذلك فى قوله تعالى : « **ذلك كيل يسير** » قالوا : كأن أباهم قال لهم لعل الملك لا يعطيكم فوق العشرة شيئاً فكان ردهم أن ذلك الحمل الزائد شىء يسير لا يتعاظمه العزيز ولن يبخل به لما لمسنا من إحسانه فى المرة السابقة . وجَوَّز بعضهم أن يكون ذلك من كلام يعقوب عليه السلام إشارة إلى أن كيل بعير واحد شىء قليل لا يُخاطر لمثله بالولد . ودليلهم على ذلك القول اللاحق : لن أرسله معكم .

لما رأى يعقوب عليه السلام ضرورة إرسال ابنه بنيامين معهم – وإلا فلن يحصلوا على الطعام – أخذ عليهم الموثق والعهد ليعودون به – ولكنه وضع فى الحسبان أن كل شىء بأمر الله

سبحانه وتعالى ومشيئته . ولا أحد يعلم الغيب إلا الله . فاستدرك قائلاً : إلاَّ أن يحاط بكم . أى إلاَّ أن تُغلبوا أو يحدث شىء لا تقدرون على دفعه ولا تطيقون رَدَّه . فلما آتوه موثقهم وعهدهم قال لهم إن الله مطلع على هذا الموثق ورقيب عليه . والمراد أنه سبحانه مجازيهم إن أخلُّوا بهذا الميثاق .

وقد أصبح قوله تعالى : « **والله على ما نقول وكيل** » جملة يختم بها كل عقد أو اتفاق بين طرفين للتأكيد على وجوب تنفيذه .

بعد أن أخذ يعقوب على بنيه ميثاقاً بأن يعودوا ببنيامين أعطاهم نصيحة يعملون بها عند دخولهم مصر :

« وقال يا بَنى لا تدخلوا من باب واحد . وادخلوا من أبواب متفرقة . وما أغنى عنكم من الله من شىء إن الحكم إلا لله . عليه توكلت . وعليه فليتوكل المتوكلون » . (٦٧ - يوسف)

قال بعضهم خوفاً عليهم من الحسد . وخاصة لما كان بنيامين معهم .

وقال بعضهم : حتى لا يستراب فيهم أنهم جواسيس إذا دخلوا معاً وهم أغراب فى لبسهم ولسانهم .

وقيل طمعاً فى أن يتسمعوا خبراً عن يوسف . فقد كان يشعر شعوراً داخلياً أنه لم يمت . ولكن أين هو ؟ لا يدرى !

أدلى بهذه النصيحة لهم . ثم قال لهم إنه لا راد لقضاء الله – ولا يغنى حذر من قدر – فالحكم لله وحده . دون غيره . وأخبرهم أنه يتوكل على الله . ويجب على المؤمنين أن يتوكلوا على الله .

« ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم . ما كان يغنى عنهم من الله من شىء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها . وإنه لذو علم لما علمناه . ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . (٦٨ - يوسف)

ودخلوا من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم . ولكن ذلك لم يكن يمنع قضاء الله عنهم . وذلك ما كان يعقوب يعرفه وهو يدلى لهم بهذه النصيحة . حتى يكون قد أدى الواجب نحوهم ولكنه

يعلم تمام العلم أن ذلك لا يغنى شيئاً . فالله قد أعطاه علماً جليلاً . ومتأكد أن مشيئة الله هى التى تنفذ وتكون . ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك . وقد يظنون أن اتخاذ الحيطة قد منع عنهم ضرراً ما . صحيح أن الأخذ بالأسباب واتخاذ الحيطة واجب على المؤمن . ولكن ليكن متيقناً فى قرارة نفسه أن الأمر مرده إلى الله . إن شاء أنفذ الأسباب . وإن شاء عطلها . وفى كلتى الحالتين لا ينفذ إلاَّ ما شاء الله وقدَّره .

وسار إخوة يوسف حتى وصلوا مصر . ودخلوا من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم . ثم التقوا عند بيت عزيز مصر . يوسف .

« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه . قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون » . (٦٩ - يوسف)

هكذا - فى إيجاز - يصف القرآن الكريم هذا المشهد .

ويقول تفسير الألوسى* : إنهم لما دخلوا على يوسف قالوا : أيها العزيز . هذا أخونا الذى أمرتنا أن نأتيك به . وقد جئناك به . فقال لهم : أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندى . وقال البعض إن يعقوب عليه السلام كان قد كلفهم برسالة تقول : بلِّغوا عزيز مصر سلامى وقولوا له إن أبانا يصلى من أجلك ويدعو لك ويشكر صنيعك معنا . وقال آخرون . كان ذلك مبلغاً فى كتاب . فلما قرأه يوسف عليه السلام بكى . ثم إنه أكرمهم وأنزلهم وأضافهم . وأجلس كل اثنين منهم على مائدة . فبقى بنيامين وحيداً فبكى وقال لو كان أخى يوسف حياً لأجلسنى معه . فقال يوسف . بقى أخوكم وحده . فقالوا له كان له أخ فهلك . قال . فأنا أجلسه معى . فأخذه معه وأجلسه على مائدته وجعل يؤاكله . وأَنِسَ بنيامين إلى يوسف . فقال له يوسف : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال : من يجد أخاً مثلك أيها العزيز . فقال يوسف : إنى أنا أخوك وعرَّفه بنفسه وطلب منه كتمان هذا الأمر عن إخوته . وطلب منه ألا يبتئس ولا يحزن على ما كان إخوته يفعلون به ويؤذونه .

وتقول التوراة (إصحاح ٤٣ تكوين) إن يوسف أمر بإدخال إخوته إلى بيته ليضيفهم . فتوجسوا خيفة ظناً منهم أنه يريد الانتقام منهم بسبب الفضة التى وجدوها فى عدالهم . ولكن كبير خدم البيت طمأنهم . وفك أسر شمعون وأدخله إليهم . وعند الظهر جاء يوسف للغذاء . وأجلس بنيامين إلى مائدته فبهت الرجال بعضهم إلى بعض لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين . وبالغ يوسف فى إكرام بنيامين فكان الطعام أمامه خمسة أضعاف ما أمامهم .

---

* تفسير الألوسى جـ ١٣ ص ٢٣ .

وفى الصباح أمر يوسف بتجهيز الكيل وأحمال الطعام لهم . ثم جعل السقاية – وهى إناء كان يشرب به الملك – وكان من الذهب . وقيل من الفضة . وقيل كان يكال به الحبوب . وضعها فى متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد . وقالوا* لم يضعها بنفسه . بل أمر كبير عماله بوضع طاس الفضة فى فم عدل الصغير وثمن قمحه . ففعل بحسب كلام يوسف الذى تكلم به .

وانصرف إخوة يوسف ومعهم حميرهم . وخرجوا من المدينة . ولكنهم لم يبتعدوا إلاّ قليلاً حتى وجدوا فرساناً من قبل يوسف يدركونهم ويستوقفونهم واتهموهم بأنهم سرقوا الكأس التى يشرب الملك بها . وأن الملك قد جعل جائزة لمن يرجعه له – حمل بعير من الحبوب – وقال كبير الفرسان أنه ضامن المكافأة لمن يرد الكأس .

وأنكر إخوة يوسف أنهم سرقوا شيئاً . وأخبروا الفرسان أنهم قد خبروهم من قبل وشاهدوا حسن سيرتهم . وأنهم لم يجيئوا ليفسدوا فى الأرض .

« فلما جهّزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه . ثم أذّن مؤذّنٌ أيتها العير إنكم لسارقون . قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون . قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم . قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين » . (٧٠ – ٧٣ – يوسف)

قالوا . وكان يوسف عليه السلام قد وصل بنفسه وكانت عقوبة السرقة فى مصر الضرب أو السجن . ولكن الله ألهمه الاحتكام إلى شريعتهم . فسألهم عن الجزاء الذى يوقعونه على السارق فقالوا إننا على شريعة إبراهيم عليه السلام وهى تقضى بأن السارق يُدفع إلى المسروق منه ليسترقه ويصير عبداً له .

وبدأ الحرس يفتشون أمتعتهم . وبدأ بتفتيش رحالهم قبل رحل بنيامين كى لا يثير شبهة فى الأمر . قال قتادة : إنه كان لا يفتح متاعاً ولا يجد به الكأس إلا استغفر الله مما قذفهم به . حتى بقى أخوه الصغير . فقال : ما أظن هذا أخذ شيئاً . فقالوا : والله لا نتركك حتى تنظر فى رحله . فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا . فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه . فلما استخرجها نكس الإخوة رؤوسهم من الحياء . وأقبلوا على بنيامين يلومونه . ويقولون له : فضحتنا وسوّدت وجوهنا يا ابن راحيل !

« قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه . كذلك نجزى الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه . ثم استخرجها من وعاء أخيه . كذلك كدنا ليوسف . ما كان ليأخذ أخاه فى دين

---

* التوراة . إصحاح ٤٤ تكوين .

الملك إلاَّ أن يشاء الله . نرفع درجات من نشاء . وفوق كل ذى علم عليم »
(٧٤ – ٧٦ – يوسف)

وهذا يدل على أن تدبير يوسف فى وضع السقاية فى رحل بنيامين كان بإيحاء من الله تعالى . ولذلك كان القول «كدنا» نسبة إلى الله سبحانه وتعالى وكذلك كان أخذه لبنيامين فى سلطان الملك بمشيئة الله تعالى . فكان فى الظاهر أنه أخذه استرقاقاً . وهو فى الحقيقة يريد ضمه إليه . وهذا رفع لدرجته وإبعاد له عن إخوته الذين يؤذونه . وتدبير الله فوق كل تدبير وعلم الله فوق كل عالم وكل ذى علم . وقالوا إن هذا من الكيد المحبوب لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة .

« قالوا* راح إخوة بنيامين يلومونه لوجود الصواع فى رحله وقالوا له : فضحتنا وسودت وجوهنا . يا ابن راحيل لا يزال لنا منكم بلاء إذ أخذت هذا الصاع . فقال بنيامين : بل بنو راحيل الذين لا يزال لهم منكم بلاء . ذهبتم بأخى إلى البرية فأهلكتموه . إن الذى وضع الصاع فى رحلى هو الذى وضع الدراهم فى رحالكم . وواضح من هذا أن بنيامين لم يكن يعرف كيف جاء الصواع إلى رحله . وتذكر أنهم لما عادوا بالميرة إلى أرض كنعان ووجد الفضة معهم اعتقد أنهم سرقوها من العزيز بعد ما أخذوا القمح . ولعله ظن أنهم دسوا الصواع فى رحله ليكيدوا له فقد كانوا يكرهونه كما كانوا يكرهون أخاه يوسف من قبل . ولعلهم – من جانبهم – ظنوا أن بنيامين قد سرق الصواع فعلاً ولحقدهم عليه – ولينفوا عن أنفسهم أى نقيصة – رأوا أن يُثبتوا عليه السرقة . بل وجعلوا السرقة طبعاً فى أبناء راحيل .

« قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل . فأسرَّها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم . قال أنتم شرٌّ مكاناً . والله أعلم بما تصفون » . (٧٧ – يوسف).

فقالوا إن أخاه – أى يوسف – قد سرق من قبل . وليس بمستبعد أن يسرق هذا أيضاً . فهو أخوه من ناحية الأم أيضاً .

واختلف العلماء* فى السرقة التى وصفوا بها يوسف : قال سعيد بن جبير وقتادة أنه سرق صنماً لجده فكسره وألقاه فى الطريق وقال ابن جريج أمرته أمه أن يسرق صنماً لخاله . وواضح أن هذه الأقوال تشير إلى الصنم الذى أخذته راحيل من أبيها لابان عند مفارقة يعقوب له وتركه «حاران» (ص ٤١٦) . ولكن نظرة إلى جدول حياة يعقوب (ص ٥٢٥) تبين أن يوسف كان عمره وقتئذ سنة واحدة مماينفى هذا الزعم . وهذا الصنم تم طمره فى الأرض فى بيت إيل (ص ٤٢١) .

---

* عرائس المجالس للثعلبى . ص ١٥٩ .

وقال مجاهد : جاء سائل يوماً فسرق يوسف بيضة من البيت وأعطاها السائل . وقال غيره: دجاجة . وقال وهب : كان يخبّىء الطعام من المائدة للفقراء . وهذا ليس بسرقة .

وقال الضحاك وغيره : كان ليوسف عمة ، وكانت تحبه حباً جمًّا ، إذ كانت هى التى تولت تربيته هو وبنيامين بعد وفاة راحيل ، فلما كبر وأراد يعقوب أخذه احتالت بأن دسَّت فى ثيابه بعض متاعها – قيل إنها منطقة أبيها إسحق ، وكانت هى أكبر من يعقوب فورثتها – واتهمت يوسف بسرقتها ، ووجدوها عنده وحسب شريعتهم – سلَّموا يوسف لها فبقى عندها حتى ماتت!! وواضح زيف هذه الرواية ، فإنه لم يُعرفْ أن ليعقوب أختاً أكبر منه – وكان جديراً بالذكر فى التوراة – كما أن يوسف عند وصوله إلى حبرون – حيث تعيش عمته المزعومة – كان عمره ١٠ أو ١١ سنة فلم يكن فى حاجة إلى رعاية النساء .

فمما لا شك فيه أن هذا الإتهام كان محض اختلاق من إخوته ليثبتوا براءتهم هم ويثبتوا السرقة على بنيامين بزعم أن ذلك طبع فى أبناء راحيل ، وهى ليست والدتهم .

وبالطبع فإن يوسف غضب لهذا الافتراء عليه ولكنه أخفى ذلك فى نفسه ، ولم يبدها لهم ، لا قولاً ولا فعلاً ، حِلماً منه . **قال أنتم شر مكاناً** . بعضهم* فسَّرها بأنه قالها فى نفسه ومعناه أنهم أليق بالوصف بالشر لما فعلوه به من قبل بإلقائه فى الجب . ويحتمل أنه أسرَّ الغضب لدى سماعه هذا الإتهام ولكنه قال لهم أنتم فى منزلة أكثر شراً من السرقة . ولعله يقصد الإتهام الزور الذى يرمونه به . والله أعلم بأنه لم تكن هناك سرقة كما يزعمون . والله أعلم كذلك أن بنيامين لم يسرق هو الآخر .

لما نفَّسوا عن مكنون حقدهم على يوسف وأخيه بهذا الإتهام . وبدأ الشرطة فى أخذ بنيامين لإلحاقه بيوسف . أفاقوا . وتذكروا موثقهم مع أبيهم يعقوب بأن يكون بنيامين معهم عند عودتهم ، فراحوا يستعطفون يوسف قائلين : إن له أباً شيخاً كبيراً يحبه كل الحب ولا يستطيع فراقه . وقد حل فى قلبه محل أخيه الذى فُقِدَ (يقصدون يوسف) وعرضوا على يوسف أن يأخذ واحداً منهم بدلاً من بنيامين لأن أباهم قد يهلك إذا علم بفقدان بنيامين أيضاً . وكان المتكلم هو يهوذا لأنه هو الذى تعهد ليعقوب بالعودة ببنيامين . والباقون أمَّنوا على هذا التعهد .

أطال كاتبو التوراة فى وصف هذا الموقف (إصحاح ٤٤ تكوين) . إذ قالوا : ثم تقدم إليه (أى إلى يوسف) يهوذا وقال استمع يا سيدى ليتكلم عبدك كلمة فى أذنى سيدى ، ولا يحم غضبك على عبدك . لأنك مثل فرعون . سيدى سأل عبيده قائلاً هل لكم أب أو أخ . فقلنا لسيدى لنا أب شيخ وابن شيخوخة صغير . مات أخوه وبقى هو وحده وأبوه يحبه . فقلت لعبيدك

* تفسير الألوسى . جـ ١٣ ص ٣٣

انزلوا به إلىَّ فاجعل نظرى عليه . فقلنا لسيدى لا يقدر الغلام أن يترك أباه . وإن ترك أباه يموت فقلت لعبيدك إن لم ينزل أخوكم الصغير معكم لا تعودوا تنظرون وجهى . فكان لما صعدنا إلى عبدك أبى أننا أخبرناه بكلام سيدى . ثم قال أبونا ارجعوا اشتروا لنا قليلاً من الطعام . فقلنا لا نقدر أن ننزل . وإنما إذا كان أخونا الصغير معنا ننزل . لأننا لا نقدر أن ننظر وجه الرجل وأخونا الصغير ليس معنا . فقال لنا عبدك أبى أنتم تعلمون أن امرأتى ولدت لى اثنين . فخرج الواحد من عندى وقلت إنما هو قد افترس افتراساً . ولم أنظره إلى الآن . فإذا أخذتم هذا أيضاً من أمام وجهى وأصابته أذية تنزلون شيبتى بشرٍّ إلى الهاوية . والآن متى جئت إلى عبدك أبى والغلام ليس معن. ونفسه مرتبطة بنفسه. يكون متى رأى أن الغلام مفقود أنه يموت . فينزل عبيدك شيبة عبدك أبينا بحزن إلى الهاوية . لأن عبدك ضمن الغلام لأبى قائلاً : إن لم أجىء به إليك أصر مذنباً إلى أبى كل الأيام . فالآن ليمكث عبدك عوضاً عن الغلام عبداً لسيدى ويصعد الغلام مع إخوته . لأنى كيف أصعد إلى أبى والغلام ليس معى . لئلاً أنظر الشر الذى يصيب أبى .

ونلمس هنا العنصر البشرى واضحاً فى سرد القصة بما فيها من تطويل وتكرار فى حين أوجز اللفظ القرآنى المشهد كله فى سطرين اثنين .

« قالوا يأيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً . فخذ أحدنا مكانه . إنا نراك من المحسنين . قال معاذ الله أن نأخذ إلاَّ من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون » . (٧٨ - ٧٩ - يوسف)

كذلك فقد أغفل كاتبو التوراة جزءاً مهماً من القصة . وهو عودتهم إلى أبيهم بدون بنيامين قبل أن يعرفوا أن العزيز هو نفسه أخوهم يوسف .

ونعود إلى سياق القصة كما وردت فى القرآن الكريم :

تأكد لهم أن يوسف - عزيز مصر - لن يقبل أن يأخذ أحداً منهم بدلاً من بنيامين . ويئسوا من مناشدته العطف بأبيهم الشيخ الكبير الذى ما إن يعرف بفقدان بنيامين فقد يودى به الحزن إلى الهلاك . عندئذ انتحوا جانباً . وخلصوا من الناس . وتشاوروا وتناجوا فيما بينهم . **« خلصوا نجيًّا »** . وذكرهم أخوهم الكبير - رأوبين - أنهم قد أعطوا أباهم عهداً وميثاقاً أن يعودوا بأخيهم بنيامين . وتعهد يهوذا بذلك أمام والده . وقد سبق أن فرطتم فى يوسف . ولأنه لا يستطيع مواجهة أبيه . فسيبقى فى مصر . ويعودون هم . فإن أذن له أبوه فى العودة

---

* تفسير الألوسى . جـ ١٣ ص ٣٣

يعود . وإلاً فلن يعود . أو يكون فى علم الله وحكمه تدبير آخر . فقد يقرر العزيز . مثلاً – أن يعفو عن بنيامين أو يستطيع هو بوسلية أو بأخرى تدبير إخراجه . المهم أنه فوض الأمر إلى الله . والله خير الحاكمين .

وقال لهم ارجعوا إلى أبيكم . وقولوا له إن بنيامين سرق . وأخذه العزيز عبداً له جزاء ذلك . وكنا شهوداً . إذ استخرجوا كأس الملك من متاعه . وهذا مبلغ علمنا . ولا ندرى أسرق حقيقة أم وُضع الصواع فى رحله دون أن يشعر . وعلى العموم هذا هو علمنا . وحين أعطيناك الميثاق لم نكن نعلم الغيب ولا كنا نعلم أن هذا سيحدث . وإن لم تصدقنا فاسأل أهل القرية الذين كانوا معنا . وأصحاب القافلة التى قدمنا معها لتعلم صدق ما أخبرناك به .

« فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً . قال كبيرهم . ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله . ومن قبل ما فرطتم فى يوسف . فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى . أو يحكم الله لى . وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق . وما شهدنا إلا بما علمنا . وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التى كنا فيها . والعير التى أقبلنا فيها. وإنا لصادقون » . (٨٠ – ٨٢ – يوسف)

وفعلوا كما قال أخوهم الكبير . وعادوا إلى يعقوب . وأخبروه بما حدث وطلبوا منه التأكد من صدقهم بسؤال الرجال الآخرين الذين معهم فى القافلة .

هنا قفز إلى ذهن يعقوب ما فعلوه بيوسف من قبل . لقد قالوا إن الذئب أكله . وأروه قميصه وعليه الدم ولكنه غير ممزق . فتأكد من كذبهم . وأنهم فعلوا به أمراً آخر فقال :

« قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً . فصبر جميل » . (من الآية ١٨ – يوسف)

وظن يعقوب أنهم فعلوا ببنيامين أمراً ليبعدوه عنه . ماذا فعلوا به ؟ لا يدرى . أكان كل ما أخبروه به من أن عزيز مصر رفض إعطاءهم قمحاً إلا إذا أحضروا أخاهم الصغير معهم – أكان ذلك مجرد خدعة ليأخذوه منه؟ فقال نفس ما قاله عند فقدان يوسف :

« قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً . فصبر جميل » . (من الآية ٨٣ – يوسف)

وهكذا فقد بنيامين – ويوسف من قبل فزاد حزنه واعتزل بنيه وأعرض عنهم فإن غياب بنيامين – كما نقول بلغة عصرنا – قلب عليه المواجع . وكما قال الشاعر :

ولم تنسنى أوفى المصيبات بعده   ولكن نكاء القرح بالقرح أوجع

وهكذا . ولو أن الموقف هو غياب بنيامين إلا أنه تذكر يوسف . وقال « **يا أسفا على يوسف** » . بمعنى يا أسفى على يوسف وأُبدلت ياء المتكلم ألفاً للتخفيف . أو أنها يا أسفاه وتسمى ألف الندبة . وحُذفت الهاء . وبكى كثيراً من شدة الحزن . وابيضت مقلة العين من كثرة البكاء – كناية عن العمى . وزاد غضبة على أبنائه . ولكنه كظم غيظه لا يظهره فهو كظيم .

وقال له أبناؤه . أنت لا تزال ولا تفتؤ تذكر يوسف وتبكى عليه وحذفت لا القسم – وستظل تفعل ذلك حتى تصبح ضعيفاً وتكون حرضاً . والحرض هو المهزول من المرض والمشرف على الهلاك . وإن استمر الحال بك هكذا فقد تهلك أى تموت .

« قال بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً . فصبر جميل . عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً . إنه هو العليم الحكيم . وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضَّت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا تالله تفتؤا تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين . قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله . وأعلم من الله ما لا تعلمون » . (٨٣ – ٨٦ – يوسف)

فى حديث قدسى* أخرجه ابن راهوية فى تفسيره . والحاكم والبيهقى عن أنس : كان ليعقوب عليه السلام أخ مؤاخ فى الله . فقال له ذات يوم : ما الذى أذهب بصرك؟ وما الذى قوَّس ظهرك؟ فقال : أما الذى أذهب بصرى فالبكاء على يوسف . وأما الذى قوس ظهرى فالحزن على ابنى بنيامين . فأتاه جبريل فقال يا يعقوب . إن الله تعالى يقرئك السلام . ويقول: أما تستحى تشكونى إلى غيرى؟ فقال : إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله . فقال جبريل أعلم ما تشكو يا يعقوب . ثم قال يعقوب . فاردد علىَّ ريحانتى أشمه شماً قبل الموت . ثم اصنع بى ما أردت . فأتاه جبريل فقال : إن الله يقرئك السلام ويقول لك ابشر وليفرح قلبك . فوعزتى وجلالى لو كانا ميتين لنشرتهما . فاصنع طعاماً للمساكين فإن أحب عبادى إلىَّ الأنبياء والمساكين . وتدرى لم أذهبت بصرك وقوست ظهرك وصنع إخوة يوسف به ما صنعوا؟ أنكم ذبحتم شاة فأتاكم مسكين يتيم وهو صائم . فلم تطعموه منها شيئاً . فكان يعقوب بعدُ إذا أراد الغذاء أمر منادياً فنادى : ألا من أراد الغذاء من المساكين فليفطر مع يعقوب .

قال يعقوب عليه السلام : « **إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله** » والبث هو إثارة الشىء وتفريقه كبث الريح للتراب . واستعمل فى الغم الذى لا يطيق صاحبه الصبر عليه كأنه ثقل عليه فلا يطيق حمله وحده فيفرقه على عدد من الناس . وقد يكون بمعنى الغم الشديد الذى يبث الفكر ويفرقه . وقالوا قال ذلك لأن أبناءه عابوا عليه شدة حزنه فكان جوابه أنه إنما يشكو

---

* الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية . محمد المدنى . ص ٢٤٤ .

إلى الله لا إليهم . وأنه يعلم من لطف الله ورحمته ما لا يعلمون . يعلم بيقينه أو وحياً من الله . وسبق أن قلنا إنه كان يشعر شعوراً داخلياً بأن يوسف حى يرزق . وأن الله سيجمعهم جميعاً فى النهاية . ولعل ذلك من إيمانه بأن حلم يوسف الذى حكاه له هى رؤيا من الله تعالى ولابد أن تتحقق فى يوم ما . وقيل* إن يعقوب عليه السلام رأى ملك الموت فى المنام . فأخبره أن يوسف حى . ذكره غير واحد ولم يذكروا له سنداً .

وروى عن ابن أبى حاتم عن النضر أنه قال : بلغنى أن يعقوب عليه السلام مكث أربعة وعشرين عاماً (من جدول حياة يعقوب ص ٥٢٥ ، ٥٢٦ هى ٣٦ عاماً) لا يدرى أيوسف عليه السلام حى أم ميت . حتى تمثل له ملك الموت فقال له : من أنت؟ قال ملك الموت . قال : أنشدك بإله يعقوب : هل قبضت روح يوسف ؟ قال لا . فعند ذلك قال :

« يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله . إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » . (٨٧ - يوسف)

فطلب من أبنائه أن يذهبوا إلى مصر . ويتسمعوا أو يتلمسوا من أخبار يوسف وبنيامين بلطف وفى خفاء . كأن المرء يتحسس شيئاً ليدرك ما هيته باللمس . بدون إثارة ضوضاء . وبعضهم قرأها فتجسسوا . وهو أيضاً بمعنى معرفة الأخبار . وقيل التحسس يكون فى الخير. والتجسس يكون فى الشر .

وحثهم على البحث بجد . وأن لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله وأن لا ييأسوا من رحمة الله وفضله . لأن رحمة الله واسعة . والعارف لا يقنط فى حال من الأحوال . قال ابن عباس : إن المؤمن من الله تعالى على خير يرجوه فى البلاء ويحمده فى الرخاء . لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون . إذ أن اليائس يظن أن الإله غير قادر على إجابة ما يطلب . أو غير كريم فيتفضل به وكلاهما موجب للكفر . ومثله القنوط وسنعود إلى ذلك بتفصيل أكثر فى قصة أيوب عليه السلام (ص ٦٢٤) .

عاد إخوة يوسف إلى مصر . كما أمرهم أبوهم . وكانت هذه هى المرة الثالثة . وكانت حالهم قد ساءت من حزن أبيهم وفقدانه للبصر . فلم يكن يقوى على العمل . كان قدومهم إلى مصر ليتسقطوا أخباراً عن يوسف مسايرة لما أمرهم به أبوهم مع علمهم بهلاك يوسف منذ ألقوه فى الجب قبل خمس وثلاثين سنة ظانين أن طلب أبيهم هذا هو من قبيل الأوهام . لشدة حبه ليوسف

* تفسير الألوسى : جـ ٣ ص ٤٤ .

. ولعدم تصديقه أنه قد هلك . كذلك ليتسمعوا أخباراً عن بنيامين . أين هو الآن . هل سجنوه؟ أم ضموه إلى العبيد الذين يعملون فى قصر العزيز . أم جعلوه يعمل فى أحد مخازن الحبوب المنتشرة فى طول البلاد وعرضها . وهل يستطيعون لقاءه والتكلم معه . وحينئذ هل يمكنهم - بوسيلة ما - تدبير هربه والعودة به إلى أبيهم؟ كل هذه الأسئلة والأفكار كانت تدور فى ذهنهم . كذلك كان قدومهم لمصر لطلب الطعام . ولكن ما كان معهم هذه المرة كان ثمناً قليلاً - دراهم قليلة - أو سمناً قليلاً - أو صوفاً غير جيد الصنع . فقد كانت المجاعة فى شدتها - إذ الجفاف مستمر منذ ثلاث سنوات . ولذلك وصفوا بضاعتهم التى سيقايضون عليها - بأنها مزجاة . اشتقاقاً من فعل أزجى - وأزجيته إذا دفعته وطردته - والريح تزجى السحاب أى تدفعه بعيداً . والمعنى أن هذه البضاعة لو قدمناها لتاجر آخر لما قبلها لرداءتها وقلتها . وأقرب لفظ لذلك من حياتنا المعاصرة هو قولنا بضاعة مضروبة أى كاسدة لرداءتها أو لعدم احتياج السوق لها وبوارها ، وما جئنا بها إلاَّ لأننا لا نملك غيرها فقد مسنا وأهلنا الفقر والضر . وكذلك ما جئناك أنت بها إلاَّ طالبين أن تتصدق علينا وتعطينا الميرة (الطعام) وهى أزيد من ثمن ما قدمنا . ونرجو أن تتم لنا الكيل ولا تنقصه لقلة بضاعتنا ولا تجعلها مقايضة بضاعة ببضاعة بل اجعلها صدقة منك علينا والله سيجزيك خير الجزاء لأنه هو الذى يجزى المتصدقين .

« فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسَّناً وأهلنا الضر . وجئنا ببضاعة مزجاة . فأوف لنا الكيل . وتصدق علينا . إن الله يجزى المتصدقين » . (٥٨ - يوسف)

بهذا الاستعطاف تقدموا إلى أخيهم يوسف وهم لا يعرفونه . وعلم ما فيه أبوه من حزن وغم . وكيف ساءت حاله وحال إخوته حتى إنهم لا يجدون الثمن الذى يشترون به طعامهم . ولعله قارن ذلك بما هو فيه من السعة والملك . فرقَّ قلبه . وأخذته رحمة وشفقة . ولابد أن عيناه أغرورقتا بالدموع أو ذرفتا دمعاً . ولعل إخوته استبشروا خيراً . من أن ضراعتهم قد رققت قلبه وأنه سيتصدق عليهم ويعطيهم الكيل مستوفياً . كما أعطاهم من قبل . ولكنه فاجأهم بالسؤال الذى لم يخطر لهم على بال .

قال لهم : هل تذكرون ما كنتم تعملون فى يوسف وأخيه من سوء معاملة وأذى ؟ وما كان هذا منكم إلاَّ جهلاً وحمقاً وسوء تصرف !

وبهتوا !!

فهم لم يذكروا قبلاً أمامه إسم أخيهم الغائب . بل كانوا يقولون دائماً : أخ لنا هلك أو فُقِد . فكيف عرف أن اسم ذلك الأخ هو يوسف ؟

وقفزت الظنون إلى أذهانهم .

أيكون هذا العزيز هو يوسف ؟

ولكن . كيف ؟ كيف يكون هو فى هذا المركز العظيم . وله كل هذا الجاه والسلطان . وفى أى بلد – فى مصر – أم الدنيا – بل هى الدنيا كلها فى ذلك الوقت !!

لا . مستحيل . ولكن كيف عرف أن أخينا اسمه يوسف ؟

هل سأل بنيامين عنه فأخبره ؟ ولماذا سأله ؟

وأى فائدة تعود عليه من معرفة إسمه ؟

ولماذا كان دائماً يسأل : هل أبوكم حى ؟ ألأنه هو أبوه أيضاً ؟

لا شك أنه هو يوسف !

لكن . لماذا تركنا فى المرتين السابقتين بدون أن يجازينا بما كنا نفعله به فى صغره وبإلقائنا له فى الجب ؟

لكم يكون كريماً إن كان هو يوسف !

ففى المرة الأولى ردَّ لنا الفضة التى دفعناها ثمناً للميرة .

وفى المرة الثانية أكرمنا وأولم لنا وليمة فى بيته . وأكل معنا . بل وأجلس بنيامين إلى مائدته !

أكان دس الصواع فى رحل بنيامين من تدبيره ليتمكن من أخذه وضمه إليه إنقاذاً له من أيدينا ومن أذيتنا له ؟

لئن كان يوسف فوا خجلاه ! لقد اتهمناه بالسرقة مواجهة ودون موارية وقلنا « إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » . ولم يرد علينا هذه الإساءة ...

ما أحلمك يا يوسف وما أكرمك!! إذ لم تجازنا بكل ما آذيناك به !

« قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه . إذ أنتم جاهلون . قالوا أإنك لأنت يوسف . قال أنا يوسف وهذا أخى . قد من الله علينا . إنه من يتق ويصبر. فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين . قال لا تثريب عليكم اليوم . يغفر الله لكم . وهو أرحم الراحمين » . (٨٩ – ٩٢ – يوسف)

يقال إنهم لما سألوه أإنك لأنت يوسف . رفع الغطاء عن رأسه وكانت جبهته فيها شامة . وقال لهم أنا يوسف وهذا أخى بنيامين وقد منَّ الله علينا بأن جمعنا بعد تفرقة . إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين .

قالوا والله لقد فضلك الله علينا . وأوصلك بفضله إلى ما أنت فيه من عز وسلطان . واعترفوا بأنهم قد أساءوا إليه . بل وتعمدوا الخطأ فى حقه . ومتعمد الخطأ خاطىء (أما من قصد الصواب فلم يوفق فهو مخطىء) . واعترافهم بخطئهم يحمل ضمناً طلب العفو .

ولعلهم ظنوا أنه يؤجل انتقامه منهم لوقت لاحق . ولكنه - عفا عنهم . وقال لا تثريب عليكم اليوم . والثرب هو الشحم الرقيق . ولو أزيل الثرب بدا الهزال وتقطع اللحم . وهذا هو التثريب ولا تثريب تحمل معنى عدم قطع حبال المودة . والإبقاء على أواصر الرحم بعدم اللوم أو التقريع. ودعا الله أن يغفر لهم وهو أرحم الراحمين .

تختلف رواية التوراة فى تحديد الوقت الذى كشف العزيز عن حقيقة أنه هو يوسف . فقد ذكرنا أنفاً أن ذلك حدث فى ثالث زيارة لأبناء يعقوب لمصر . أما التوراة فتقول إن ذلك حدث فى الزيارة الثانية . بعد أن احتجز يوسف أخاه بنيامين فتقدم يهوذا قائلاً : فالآن ليمكث عبدك عوضاً عن الغلام عبداً لسيدى ويصعد الغلام مع إخوته لأنى كيف أصعد إلى أبى والغلام ليس معى . لئلاً أنظر الشر الذى يصيب أبى (ص ٥٠٣) .

فلم يستطع يوسف* أن يضبط نفسه لدى جميع الواقفين عنده . فصرخ : أخرجوا كل إنسان عنى . فلم يقف أحد عنده حين عرَّف يوسف إخوته بنفسه . فأطلق صوته بالبكاء . فسمع المصريون وسمع بيت فرعون . وقال يوسف لإخوته أنا يوسف . أحىٌّ أبى بعد . فلم يستطع إخوته أن يجيبوه لأنهم ارتاعوا منه فقال يوسف لإخوته . تقدموا إلى . فتقدموا إليه . فقال : أنا يوسف أخوكم الذى بعتموه إلى مصر . والآن لا تتأسفوا ولا تغتاظوا لأنكم بعتمونى إلى هنا . لأنه لاستبقاء حياة أرسلنى الله قدامكم لأن للجوع فى الأرض سنتين . وخمس سنين أيضاً لا تكون فيها فلاحة ولا حصاد . فقد أرسلنى الله قدامكم ليجعل لكم بقية فى الأرض . وليستبقى لكم نجاة عظيمة . والآن لستم أنتم أرسلتمونى إلى هنا بل الله . وهو قد جعلنى متسلطاً على كل أرض مصر . أسرعوا واصعدوا إلى أبى وقولوا له هكذا يقول ابنك يوسف . قد جعلنى الله سيداً لكل مصر . انزل إلىَّ . لا تقف . فتسكن فى أرض جاسان . وتكون قريباً منى أنت وبنوك وبنو بنيك وغنمك وبقرك وكل ما لك . وأعولك هناك لأنه يكون أيضاً خمس سنين جوعاً لئلا تفتقر أنت وبيتك وهو ذا عيونكم ترى وعينا أخى بنيامين أن فمى هو الذى يكلمكم . وتخبرون أبى بكل مجدى فى مصر . وبكل ما رأيتم وتستعجلون وتنزلون بأبى إلى هنا .

---

* التوراة . إصحاح ٤٥ تكوين .

ثم وقع على عنق بنيامين أخيه وبكى . وبكى بنيامين على عنقه . وقبَّل جميع إخوته وبكى عليهم . وبعد ذلك تكلم إخوته معه . ونختصر ما جاء فى التوراة :

وسُمِع الخبر فى بيت فرعون وقيل جاء إخوة يوسف . فحسن فى عينى فرعون وقال فرعون ليوسف : قل لإخوتك اذهبوا إلى أرض كنعان وخذوا أباكم وبيوتكم وتعالوا إلىَّ فأعطيكم خيرات أرض مصر . وتأكلوا دسم الأرض . خذوا لكم من أرض مصر عجلات لأولادكم ونسائكم واحملوا أباكم وتعالوا . ولا تحزن عيونكم على أثاثكم . لأن خيرات جميع أرض مصر لكم .

ففعل بنو إسرائيل هكذا وأعطاهم يوسف عجلات بحسب أمر فرعون وأعطاهم زاداً للطريق . وأعطى كل واحد منهم حلل ثياب . وأرسل لأبيه هكذا : عشرة حمير حاملة من خيرات مصر . وعشر أتن حاملة حنطة وخبزاً وطعاماً لأبيه لأجل الطريق . ثم صرف إخوته فانطلقوا . وقال لهم : لا تتغاضبوا فى الطريق .

فصعدوا من مصر . وجاءوا إلى أرض كنعان إلى يعقوب أبيهم . وأخبروه قائلين يوسف حىٌّ بعدُ . وهو متسلط على كل أرض مصر . فجمد قلبه لأنه لم يصدقهم . ثم كلموه بكلام يوسف الذى كلمهم به . وأبصر العجلات التى أرسلها يوسف لتحملها (مع أن بصر يعقوب لم يكن قد ارتد بعد ! ولم يذكروا كيف ارتد بصره) فعاشت روح يعقوب أبيهم . فقال إسرائيل كفى . يوسف ابنى حى بعدُ . اذهب وأراه قبل أن أموت .

فارتحل إسرائيل وكل ما كان له وأتى إلى بئر سبع . وذبح ذبائح لإله أبيه إسحق . فكلم الله إسرائيل فى رؤى الليل وقال : يعقوب . يعقوب . فقال هأنذا . فقال : أنا الله إله أبيك . لا تخف من النزول إلى مصر . لأنى أجعلك أمة عظيمة هناك . أنا أنزل معك إلى مصر . وأنا أصعدك أيضاً ويضع يوسف يده على عينيك (يقصدون . فيرتد بصره) .

فقام يعقوب من بئر سبع وحمل بنو إسرائيل يعقوب أباهم وأولادهم ونساءهم فى العجلات التى أرسل فرعون لحمله . وأخذوا مواشيهم ومقتناهم الذى اقتنوا فى أرض كنعان وجاءوا إلى مصر . يعقوب وكل نسله معه بنوه وبنو بنيه معه وبناته وبنات بنيه . وكل نسله جاء بهم معه إلى مصر .

هذه رواية التوراة وبالرغم من إطالتها فى الوصف إلاَّ أنها أغفلت كثيراً من الحقائق . وجاء القرآن الكريم – فى إيجاز – ذاكراً هذه الحقائق وهى :

١ – شعور يعقوب بيوسف عن بعد .
٢ – كيفية ارتداد بصر يعقوب .
٣ – طلب إخوة يوسف من يعقوب أن يستغفر لهم .
٤ – كيفية تحقق حلم يوسف الذى رآه فى بداية القصة .

ذلك أن يوسف بعد أن جهز العجلات والزاد لإحضار والده وأهله إلى مصر قال لإخوته .

« اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً وأتونى بأهلكم أجمعين . ولما فصلت العير قال أبوهم . إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تُفَنِّدُون . قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً . قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون . قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا . إنا كنا خاطئين . قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم » . (٩٤ - ٩٨ - يوسف)

قال لهم يوسف اذهبوا بقميص هذا . وأعطاهم القميص الذى كان عليه حينئذ . وعن ابن عباس* أنه القميص الذى كان معه إذ ألقى فى الجب . وقد سبق أن ذكرنا ذلك ص ٤٤٥ وهو قول ضعيف . وقيل هو القميص الذى قُدَّ من دبر وأرسله ليعلم يعقوب أنه عُصِمَ من الفاحشة ولا يخفى ضعف هذا القول أيضاً . والأولى من ظاهر اللفظ أنه القميص الذى كان يلبسه وقتئذ .

وكانت قافلة خارجة من مصر . فخرج معها إخوة يوسف والعجلات التى أرسلها يوسف - بإذن من فرعون - لإحضار أبيه وأهله . والعير التى كانوا قد أتوا بها من أرض كنعان لحمل الحبوب . ولما فصلت العير أى خرجت من أرض مصر . واقتربت من أرض كنعان . قال يعقوب عليه السلام لمن حوله « **إنى لأجد ريح يوسف** » . ويحتمل أن الله سبحانه وتعالى جعله يشم ما عبق بالقميص من ريح يوسف بالرغم من بعد المسافة بينهما . أو أن ذلك كان نوعاً من مما يسمى بالحاسة السادسة . أو الإدراك بغير الحواس الخمس المعروفة . وهى قدرة يعطيها الله للبعض من عباده المخلصين . وهى تشبه الجلاء البصرى الذى حدث لعمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو يخطب يوم الجمعة . وأراه الله موقف جيوش المسلمين التى كانت تحارب بقيادة أسامة . ورأى عمر أن جيش المسلمين لو لجأ إلى الجبل لتحسَّن موقفه فقال : يا أسامة الجبل . ورددها مرتين أو ثلاثاً . وسمع أسامة ما قاله عمر وعمل به .

ولا شك أن يعقوب عليه السلام - وهو نبى - قد آتاه الله المقدرة على أن يشعر بما لا يدركه غيره . فقال : إنى لأجد ريح يوسف . لولا أن تتهمونى بالفساد أو ضعف الرأى والتخريف بسبب كبر السن والهرم (كان عمر يعقوب وقتئذ ١٠٢ سنة) .

ومما يروى فى ذلك أن ريح الصبا استأذنت ربها أن تأتى يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير بالقميص . فأذن لها فأتته بها . قال ابن عباس : وجد يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثمان ليال ! فقال :

---

* تفسير الألوسى . جـ ١٣ ص ٥٢ .

« إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون » . (٩٤ – يوسف)

والفند ضعف الرأى من الهرم . والتفنيد اللوم وتضعيف الرأى* . فقال لمن حوله من ولده وأمهاتهم – إنى أشم رائحة يوسف . فقالوا له إن شدة حبك ليوسف – وهو شىء قديم – هو الذى جعلك تتخيل هذا الأمر . ولظنهم أن يوسف قد مات من زمن بعيد (منذ ٣٦ عاماً) . فإن قوله بالشعور بريح يوسف هو باطل وضلال . وقالوا له ستظل فى أوهامك – وضلالك القديم من التوقع للقائه – حتى تهلك .

ومما يروى أيضاً** . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان يعقوب عليه السلام أكرم أهل الأرض على ملك الموت . وإن ملك الموت استأذن ربه فى أن يأتى يعقوب فأذن له . فجاءه فقال له يعقوب : يا ملك الموت . أسألك بالذى خلقك هل قبضت نفس يوسف فيمن قبضت من النفوس؟ قال لا . ثم قال له ملك الموت . يا يعقوب . ألا أعلمك كلمات؟ قال بلى . قال : قل يا ذا المعروف الذى لا ينقطع أبداً ولا يحصيه أحد غيرك . فدعا يعقوب بها فى تلك الليلة . فلم يطلع الفجر حتى طرح القميص على وجهه فارتد بصيراً .

وقالوا : قال يهوذا ليوسف : أنا ذهبت بالقميص ملطخاً بالدم إلى يعقوب . فأخبرته أن يوسف أكله الذئب . فأعطنى اليوم قميصك لأخبره أنك حى . فأفرحه كما أحزنته .

وقال مجاهد . قال يهوذا لإخوته . قد علمتم أنى قد ذهبت فيما مضى بقميص يوسف الذى لطخناه بالدم . فدعونى أذهب إليه بقميص الفرحة .

وألقى القميص على وجه أبيه فارتد إليه بصره ، فى حين أن التوراة تفيد أن يعقوب عليه السلام لم يرتد إليه بصره إلاَّ فى مصر بعد أن قابل يوسف الذى وضع يديه على عينه فارتد بصيراً . وكان هذا إيحاءاً من الرب إلى يعقوب قائلاً : ويضع يوسف يده على عينيك . ولو أن الكلام ليس به نص على ارتداد البصر ولكن وضع يوسف يديه على عينى يعقوب ليس له معنى إلا أن يكون ارتداد البصر . ولكن جاء القرآن الكريم ليصحح هذه المعلومة بذكره أن ارتداد بصر يعقوب حدث فى أرض كنعان بعد أن ألقى البشير قميص يوسف على وجهه **« فلما أن جاء البشير . ألقاه على وجهه فارتد بصيراً »** .

وجاء فى الأخبار*** أن يعقوب قال للبشير : كيف يوسف ؟ قال إنه ملك مصر . فقال يعقوب . ما أصنع بالملك . على أى دين تركته ؟ قال : على دين الإسلام . فقال يعقوب : الآن تمت النعمة .

---

* مختار الصحاح . ص ٢١٤ .

** عرائس المجالس للثعلبى ص ١٦٦ .

*** عرائس المجالس للثعلبى . ص ١٦٧ .

قال يعقوب لبنيه ومن كان حاضراً : **« ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون »** . وأعلم من الله أن يوسف حىٌ وأننا سنلتقى فى يوم من الأيام .

الأمر الثالث الذى أغفل كاتبو التوراة ذكره هو أن بنى يعقوب طلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم . واعترفوا أنهم أذنبوا فى حق أبيهم وفى حق يوسف وأنهم كانوا خاطئين .

ووعدهم أبوهم بأنه سيستغفر لهم الله :

« قال سوف أستغفر لكم ربى » .

وسوف تعنى تأجيل الاستغفار بعض الوقت .

وقيل* أخَّر الإستغفار إلى وقت السحر من يوم الجمعة . وأوردوا حديثاً عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «سوف أستغفر لكم ربى » ويقول : حتى تأتى ليلة الجمعة . وقال ابن كثير . وهذا غريب من هذا الوجه وفى رفعه نظر . ولعل غرابته فى أن السبت هو يوم بنى إسرائيل وفيه صلاتهم . أما الجمعة فهو يوم المسلمين . وقال الشعبى : أخره (الإستغفار لبنيه) حتى يسأل يوسف عليه السلام . فإن عفا عنهم استغفر لهم . وقيل أخر ليعلم حالهم فى صدق التوبة .

ادخلوا مصر :

وسار الركب – يعقوب عليه السلام وبنيه وأهله وأحفاده . وكل ممتلكاتهم . من أرض كنعان . حتى دخلوا سيناء . ثم عبروها إلى الصحراء فى شرق الدلتا . ولما أُخبر يوسف عيه السلام باقترابهم خرج لتلقيهم . قيل** خرج يوسف فى أربعة آلاف من الجند وكذلك خرج أكابر القوم وكثير من الناس . وكان يعقوب يمشى متوكئاً على يهوذا ! (والأقرب للعقل أنه كان يركب إحدى العجلات التى أرسلها يوسف لتحملهم) ونظر يعقوب إلى الجند والناس . فقال : يا يهوذا هذا فرعون مصر الأكبر؟ فقال : لا هذا ابنك . فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف – يبدؤه بالسلام فمنعه الله من ذلك وكان يعقوب أفضل وأحق بذلك منه . فابتدأه يعقوب بالسلام . فقال : السلام عليك يا مذهب الأحزان .

وساروا معاً . ثم ادخلهم القصر الذى ينزل به . وبه قاعة كبيرة . فيها عرش كبير كان يجلس عليه وهو يصدر الأوامر التى تسير أمور الدولة .

---

* تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٩٠ .

** عرائس المجالس للثعلبى . ص ١٦٧ .

وكان أبواه يسيران على بعد خطوات منه . فوصل إلى العرش قبلهما . كانت أمه قد ماتت بعد ولادة بنيامين . فكانت خالته ليا أو ليئة له بمثابة الأم ولذلك قيل أبواه . ولعلهم وقفوا برهة يتأملون روعة العرش وفخامته . وكان يوسف قد وصل إلى الكرسي وجلس عليه فخروا له سُجَّدا . أبوه وخالته وإخوته الأحد عشر . لما رأى يوسف ذلك قال : « **يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل . قد جعلها ربى حقاً** » مذكِّرا أباه بحلمه الذى حكاه له فى طفولته من أنه رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رآهم له ساجدين .

وهذا هو الأمر الرابع الذى أغفله كاتبو التوراة . فمع أن التوراة قد زادت على حلم الكواكب حلماً آخر هو حزم الحقل . وأن حزم إخوته قد سجدت لحزمته – إلاَّ أنها لم تشر إلى سجودهم له فعلاً تحقيقاً لهذه الأحلام . وإن قيل تكفى رفعة المكانة وعظم المنزلة لتكون تحقيقاً لما أشار إليه الحلم . إلاَّ أن السجود الفعلى يكون أوقع فى المطابقة بين الحلم وتحقيقه . ولهذا قال يوسف « **قد جعلها ربى حقاً** » .

أغلب الظن أنه لم يكن سجوداً بمعنى ملامسة الجباه للأرض . بل كان انحناء بالجسد وكان هذا سائغاً فى شريعتهم . ولكن الإسلام أبطله .

« **فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه . وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش . وخروا له سُجَّداً . وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل . قد جعلها ربى حقاً . وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن . وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى . إن ربى لطيف لما يشاء . إنه هو العليم الحكيم** » . (٩٩ – ١٠٠ – يوسف)

ونلمس هنا تعدد المعانى فى قوله تعالى : « **ورفع أبويه على العرش . وخروا له سُجَّداً** » فقيل : رفع أبويه على العرش . أجلسهم معه على سرير الحكم فلم يسجدوا له . وقيل صعدوا ثم سجدوا وكان السجود لله تعالى . واستبعدوا أن يكون السجود ليوسف وبهذا يقول الألوسى* : إذ يقول وهو متعين عندى لأنه يبعد عن عقل يوسف عليه السلام ودينه أن يرضى بأن يسجد له أبوه مع سابقته فى حقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدين وكمال النبوة . ويستدرك قائلاً : ويحتمل أن يكون الله تعالى قد أمر يعقوب . بذلك لحكمة لا يعلمها إلا هو . وكان يوسف عليه السلام عالماً بالأمر فلم يسعه إلا السكوت والتسليم . وكأن فى قوله « يا أبت » إشارة إلى ذلك كأنه يقول : يا أبت لا يليق بمثلك على جلالتك فى العلم والدين والنبوة أن تسجد لولدك إلا أن هذا أمر أُمرت به .

---

* تفسير الألوسى جـ ١٣ ص ٥٨ .

ولا شك أن من استعظموا السجود ليوسف فهموا أنه كان سجوداً كاملاً بوضع الجباه على الأرض . والرأى أنه كان انحناء بالجسم كتحية اليابانيين وشارك فيه يعقوب عليه السلام ليتبعه الأبناء ولأن الرؤيا كانت « **أحد عشر كوكباً والشمس والقمر** » أى شارك فيها الأبوان . وكان السجود ليوسف « **رأيتهم لى ساجدين** » وإذا كانت التحية وقتئذ هى الإنحناء بالجسد فلابد أنهم بالغوا فى ذلك حتى ينطبق عليه وصف « **وخروا له سُجَّداً** » .

وجاء عن ابن عباس* أن يوسف عليه السلام لما رأى سجود أبويه وإخوته له هاله ذلك واقشعر جلده منه . واجلس أبويه على العرش بجانبه وراح يُعدِّد نعم الله عليه . ذكر منها مسألة خروجه من السجن – واجتماعهم ثانية بمجيئهم من البادية بعد أن أفسد الشيطان ما بينه وبين إخوته وهو ما جعلهم يدبِّرون إبعاده ولكن الله بلطف تدبيره جمعهم ثانية وهو العليم بمصالح العباد . فقيَّض حضور يوسف لمصر ليتدبر أمر الناس فى سنى المجاعة . وهو الحكيم فى أفعاله وفى قضائه وقدره .

وفى فترة غياب يوسف عن أبيه قال محمد بن اسحق : ثمانى عشرة سنة وبعضهم قال أربعين سنة وقال قتادة خمس وثلاثون سنة . وهذا أقرب الأقوال : إذ أن الجدول فى صفحة ٥٣٥ يبين أنها ست وثلاثون سنة .

ويختتم القرآن الكريم قصة يوسف عليه السلام بقوله تعالى :

« **رب قد آتيتنى من الملك . وعلمتنى من تأويل الأحاديث . فاطر السموات والأرض . أنت وليى فى الدنيا والآخرة . توفنى مسلماً . وألحقنى بالصالحين . ذلك من أنباء الغيب . نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون** » . (١٠١ – ١٠٢ – يوسف)

فقد ذكر يوسف – من بين النعم التى أنعم الله بها عليه – نعمة الملك العظيم والسلطان الذى كان له فى مصر . وكذلك نعمة تأويل الأحاديث وهو تفسير الأحلام كما فى ظاهر اللفظ . وقالوا أيضاً فَهْم غوامض وأسرار الكتب الإلهية . ثم ذكر قدرة الله التى تفوق كل قدرة . وملكوته الذى يعلو كل ملك ، فهو خالق السموات والأرض . ونسب إلى الله تعالى تولِّيه كل أموره فى الدنيا والآخرة وطلب من الله أن يتوفاه – حين يحين الأجل – على ملة الإسلام وأن يلحقه بالصالحين . وقيل هم آباؤه يعقوب وإسحق وإبراهيم عليهم السلام . وليس ذلك تمنياً للموت كما قد يتوهم البعض بل هو طلب الموافاة على الإسلام . وإن قيل إنه من المعلوم أن الأنبياء لا يموتون إلاَّ مسلمين . فالجواب أن ذلك لم يكن إلاَّ بإرادة الله وبمشيئته .

---

* تفسير الألوسى جـ ١٣ ص ٥٩

وكان ختام القصة خطاباً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **ذلك** » إشارة إلى ما ذكر من أنباء يوسف عليه السلام – من الغيب – الذى لا يعلمه أحد إلا الله – ونرى فيه إشارة إلى أن فيه تصحيح للتحريف الذى أدخل على القصة فى الكتب السابقة . فجاء القرآن الكريم ليرد القصة إلى أصلها وحقيقتها التى لا يعلمها إلا الله . أوحاه إلى رسوله الكريم .

من دخلوا مصر ؟

قال أبو أسحق السبيعى عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود . قال دخل بنو إسرائيل مصر وهم ثلاثة وستون إنساناً . وخرجو منها وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً .

وقال أبو إسحق عن مسروق : دخلوا وهم ثلاثمائة وتسعون بين رجل وامرأة . وقال موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب عن عبدالله بن شداد : اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر وهم ستة وثمانون إنساناً . صغيرهم وكبيرهم وخرجوا منها وهم ستمائة ألف .

وتقول التوراة (إصحاح ٤٦ تكوين)

وهذه أسماء بنى إسرائيل الذين جاءوا إلى مصر :

أبناء يعقوب الأحد عشر (بدون يوسف) .

بنو رأوبين بكر يعقوب : حنوك – فلُّو – حصرون – كرمى.

بنو شمعون : يموئيل – يامين – أوهد – ياكين – صوحر – شأول .

بنو لاوى : جرشون – قهات – مرارى

بنو يهوذا : عير وأونان وقد ماتا فى أرض كنعان – شبيلة – فارص – زارح . وكذلك ابنا فارص : حصرون وحامول .

بنو يسَّاكر : تولاع – فوَّة – يوب – شِمرون .

بنو زبولون : سارد – إيلون – ياحلئيل .

بنو جاد : صِفيون – حجِّى – شونى – أصبون – عيرى – أرودى – أرئيلى .

بنو أشير : يمنة – يشوه – يشوى – بريعة وأختهم سارح وابنا بريعة : جابر وملكيئيل .

وبنو دان : حوشيم

وبنو نفتالى : يا حصئيل – جونى – يصر – شلَّيم .

بنو بنيامين : بالع – باكر – أشبيل – جيرا – نعمان – إيحى – روش – مُفَّيم – حُفَّيم – أرد . فهؤلاء عددهم ٦٥ .

بالإضافة إلى يوسف وابنيه اللذين ولدا بمصر : منَسَّى وأفرايم . بالإضافة إلى يعقوب نفسه وليئة زوجته .

فيكون مجموع بنى إسرائيل فى أول مجيئهم مصر ٧٠ نفساً .

ثم قال يوسف لإخوته ولبيت أبيه – أصعدُ وأُخبر فرعون . وأقول له إخوتى وبيت أبى الذين فى أرض كنعان جاءوا إلىَّ والرجال رعاة غنم . فإنهم كانوا أهل مواشى وقد جاءوا بغنمهم وبقرهم وكل ما لهم . فيكون إذا دعاكم فرعون وقال ما صناعتكم أن تقولوا : عبيدك أهل مواشى منذ صبانا إلى الآن . نحن وآباؤنا جميعاً . لكى تسكنوا فى أرض جاسان .

فكلَّم فرعون يوسف قائلاً : أبوك وإخوتك جاءوا إليك . أرض مصر قدامك . فى أفضل الأراضى أسكن أباك وإخوتك . ليسكنوا أرض جاسان .

أرض جاسان أو جوشن :

أرض جاسان أو أرض جوشن – فى أغلب الأقوال وأصحِّها – تقع فى وادى طميلات . وتمتد من بحيرة التمساح حتى فرع النيل الشرقى (شكل ٩٨) وتقع على الحد الشرقى لدلتا نهرالنيل . مجاورة لصحراء سيناء التى تبدأ من شرق بحيرة التمساح . ولم تكن إقليماً زراعياً . بل كان مكاناً ملائماً لرعى الماشية . وتذكر فى الآثار المصرية باسم أرض « جسم » أو «جاسم» بعضهم قال إنها تقع فى شمال سيناء بين تانيس والعريش .

وفريق آخر قال بوجودها فى جنوب فلسطين .

ولكن هذين القولين الأخيرين يتعارضان مع الحقائق التاريخية من أن بنى إسرائيل عاشوا فى مصر واستعبدوا فى بناء مدن بمصر – وكان « الخروج » من مصر فى عهد موسى عليه السلام .

أما وجود منطقة فى جنوب فلسطين اسمها جوشن . فربما كان إحياء لذكرى مصر التى امتد نفوذها حتى شمل هذه المنطقة .

ولعل يوسف عليه السلام اختار أرض جاسان بالذات لإسكان أبيه وإخوته . لملاءمتها لرعى مواشيهم – ولأنها بعيدة نسبياً عن المصريين إذ كان المصريون لا يرحبون برعاة الغنم والمواشى – وتقول التوراة : « لأن كل راعى غنم رجس للمصريين » . فأراد باختيار هذا المكان أن لا يكون هناك احتكاك كثير بين قومه وبين المصريين مما قد يولِّد خلافات ومصادمات .

سبب ثالث لاخيار أرض جاسان – ذلك أن الهكسوس بعد احتلالهم مصر . اتخذوا عاصمة لهم تسمى أفاريس – وقد أثبتت الأبحاث الحديثة أن أفاريس هى تانيس أو صان الحجر .

مركز فاقوس . محافظة الشرقية (ص ٤٥٨) ووقوع أرض جاسان فى وادى طميلات فإنها تكون قريبة من العاصمة حيث يحكم ملك الهكسوس ومعه يوسف . وكما سبق أن قلنا بعيدة عن المصريين الذين لم يكونوا ليقبلوا العبرانيين – رعاة المواشى – بينهم .

قد يكون للمكان رقم ٢ (شكل ٩٨) فى شمال سيناء نفس هذه الميزات ولكنه مكان أقل خصباً وأقل ملاءمة للمراعى والأغنام . وهو أكثر بعداً عن المصريين . وإن كان هذا أدعى لعدم حدوث احتكاك بين بنى يعقوب والمصريين . إلاَّ أنه قد يكون – من وجهة نظر الهكسوس – أقل ملاءمة لأغراضهم . فهم قد لمسوا رفض المصريين لحكمهم . والذى لم يتعدى الدلتا والجزء الشمالى من الوجه القبلى . ولعلهم رأوا فى العبرانيين – بني يعقوب – وهم أهل بداوة مثلهم – رأوا فيهم مدداً يعينهم وينجدهم عند الضرورة – عند ثورة المصريين عليهم مثلاً . وتكون جموعهم فى جاسان بالشرقية أقرب لنجدتهم عما إذا كانت جاسان بعيداً فى شمال سيناء .

لكل هذه الأسباب فإن وضع أرض جاسان أو أرض جوشن فى وادى طميلات . فى المنطقة بين بحيرة التمساح إلى فرع النيل الشرقى . أنسب الأماكن من جميع النواحى .

سكن بنو إسرائيل أرض جاسان . وعاشوا فى دعة من العيش – إذ تقول التوراة (إصحاح ٤٧ تكوين) : وعال يوسف أباه وإخوته وكل بيت أبيه بطعام على حسب الأولاد . وهذا معناه أنه كان يجرى عليهم الأرزاق والطعام من مخازن الدولة . ولم يكن لهم – وهم أهل نائب الملك – أن يدفعوا ثمناً للميرة . وهكذا فإن كل نتاج المراعى والأغنام كانت تبقى لهم بأكملها . فكثرت أموالهم . وعاشوا فى بحبوحة من العيش .

إخوة يوسف يطلبون المغفرة :

روى* عن صالح المرِّى ويزيد الرقاشى عن أنس بن مالك : قال إن الله تعالى جمع ليعقوب شمله بولده . فقال بعضهم لبعض : ألستم قد علمتم ما صنعتم وما لقى منكم الشيخ وما لقى منكم يوسف ؟ قالوا : بلى . قال : فيغركم عفوهما عنكم . فكيف لكم بربكم ؟ فاستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ فجلسوا بين يديه ويوسف إلى جنب أبيه قاعد . قالوا يا أبانا إنا أتيناك لأمر . فقال ما لكم يا بنى ؟ قالوا ألست قد علمت ما كان منا إليك وما كان منا إلى أخينا يوسف ؟ قال بلى . قالوا : أو لستما قد غفرتما لنا ؟ قالا بلى . قالوا فإن عفوكما لا يغنى عنا شيئاً إن كان الله لم يعف عنا . قال : فما تريدون يا بنى ؟ قالوا نريد أن تدعو الله لنا . فإذا

---

* تفسير ابن كثير . جـ ٢ ص ٤٩٣ .

شكل ٩٨ – أرض جاسان

جاءك الوحى من الله بأنه قد عفا عنا قرَّت أعيننا واطمأنت قلوبنا . وإلا فلا قرة عين فى الدنيا لنا أبداً . قال فقام الشيخ فاستقبل القبلة وقام يوسف خلف أبيه وقاموا خلفهما أذلة خاشعين قال : فدعا وأمَّن يوسف، فلم يجب فيهم عشرين سنة . حتى إذا كان على رأس العشرين . نزل جبريل عليه السلام على يعقوب عليه السلام . فقال إن الله تعالى قد بعثنى إليك أُبَشِّرك بأنه قد أجاب دعوتك فى ولدك . وأن الله تعالى قد عفا عما صنعوا وأنه قد اعتقد مواثيقهم من بعدك على النبوة .

ويقول ابن كثير . هذا الأثر موقوف عن أنس . ويزيد الرقاشى وصالح المرى ضعيفان جداً .

الأسباط :

جاء ذكر الأسباط فى القرآن الكريم فى عدة سور . كما يلى :

« قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط . وما أوتى موسى وعيسى . وما أوتى النبيون من ربهم . لا نفرق بين أحد منهم . ونحن له مسلمون » . (١٣٦ - البقرة)

« قل آمنا بالله وما أنزل علينا . وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط . وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم . لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » . (٨٤ - آل عمران)

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده . وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان . وآتينا داود زبوراً » . (١٦٣ - النساء)

« وقطَّعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً ، وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً . قد علم كل أناس مشربهم » . (١٦٠ - الأعراف)

قال الربيع وقتادة : الأسباط بنو يعقوب . اثنا عشر رجلاً . وَلَدَ كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط .

وقال الزمخشرى فى الكشاف : الأسباط حفدة يعقوب . ذرارى أبنائه الإثنى عشر .

وقال الخليل ابن أحمد والبخارى : الأسباط قبائل فى بنى إسرائيل .

وجاء قوله تعالى :

« أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى . قل أأنتم أعلم أم الله » . (١٤٠ - البقرة)

فى هذه الآية توبيخ لإدعاء اليهود أن الأسباط كانوا هودا - أى فى عهد موسى - أو نصارى أى فى عهد عيسى . ورد الله بأنه أعلم منهم . أى أنهم لم يكونوا هودا أو نصارى أى كانوا قبل عهد عيسى وقبل عهد موسى ولكنهم بعد يعقوب .

والترتيب الذى ورد فى الآيات السابقة كان دائماً : إبراهيم - إسماعيل - إسحق - يعقوب - الأسباط وهو ما يفيد بأنهم هم أبناء يعقوب .

وتفيد الآية ١٦٣ من سورة النساء أن الأسباط أنبياء . إذ ذُكر أنهم أوحى إليهم كما أوحى إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب . وذكر أنبياء قبلهم وأنبياء بعدهم . فالنبوة ثابتة إلى الأسباط بغير شك .

أخذ البعض من كيد إخوة يوسف له دليلاً على أنهم ليسوا المقصودين بكلمة الأسباط التى وردت فى القرآن الكريم . لأن التفكير فى قتل أخيهم - أو ماعملوه من إلقائه فى الجب - والكذب على أبيهم كلها أفعال لا تتفق مع مقام النبوة* . ويقول الألوسى : وكونه وقع قبل البلوغ غير مؤكد لأن فيه أفعالا لا يقدر عليها إلا البالغون . ولكن هذا لا ينفى أن بعضاً منهم لم يكن موافقاً بقلبه لما يفعله الآخرون . ولذلك فلا مانع من أن ينتفى عنهم الفعل ويكونوا أهلاً للنبوة .

ويقول الدكتور محمد وصفى** : لا يطعن فى أولاد يعقوب أن حدثتهم أنفسهم أن يقتلوا يوسف بسبب عارض من الغيرة لم يلبث أن انتهى ولو أنهم كانوا أشراراً لقتلوه فعلاً . ولا يدين المرء أن تحدثه نفسه باقتراف ذنب . وتغلَّب على نفسه فلم يقترفه . بل إن من صفات المؤمن أن يقاوم ما تحدثه به نفسه من شر . كما أنهم لم يكونوا أنبياء فى ذلك الوقت . فكل خطأ وقعوا فيه كان قبل النبوة . ولعله بذلك يشير إلى إلقاء يوسف فى الجب والكذب على أبيهم يعقوب .

---

* تفسير الألوسى جـ ١ ص ٣٩٥ .

** الارتباط الزمنى والعقائدى بين الأنبياء والرسل . ص ١٢٨ .

يمكننا أن نخلص من هذا إلى أن الأسباط هم أبناء يعقوب الإثنا عشر . وأن ما فعلوه بيوسف كان عرضاً من الغيرة وكان قبل النبوة وغفر يعقوب ويوسف عليهما السلام ما كان من إساءة إليهما . وطلب أبناء يعقوب من أبيهم أن يستغفر لهم الله واعترفوا بخطئهم وندموا عليه . وقال لهم يعقوب إنه سوف يستغفر لهم الله .

« قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا . إنا كنا خاطئين . قال سوف أستغفر لكم ربى . إنه هو الغفور الرحيم » . (٩٨ - يوسف)

ولا شك فى أن استغفار يعقوب عليه السلام لبنيه قد قبل . وعفا الله عنهم فهو الغفور . وكان من رحمته أن جعلهم من عداد الأنبياء . وأوحى إليهم ليقوم كل واحد منهم بتنفيذ شريعة الله فى أبنائه وأحفاده أى فى سبطه .

« وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط » .

وعندما حضر يعقوب الموت أوصي بنيه جميعاً . بما فيهم يوسف . وساوى بينهم جميعاً فى التوصية .

« أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى. قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون » . (١٣٣ - البقرة)

فالأسباط هم أبناء يعقوب الإثنا عشر . وكانوا أنبياء يوحى إليهم .

كانت نبوَّة الأسباط قاصرة على الجيل الأول وهم أبناء يعقوب . أما الجيل الثانى . أى جيل الأحفاد فلم يكونوا أنبياء . ولكن يحتمل أن يكون ولدا يوسف عليه السلام - أفرايم ومَنَسَّى - أنبياء . إذ أن يعقوب عليه السلام قد باركهما بوضع يديه على رأسيهما . أو على الأقل أفرايم لأن جده وضع يده اليمن على رأسه . وقد رأينا كيف أن مباركة إسحق ليعقوب - قد انتهت به إلى أن صار نبياً .

وتكاثر بنو يعقوب أى بنو إسرائيل . حتى بلغ عددهم عند الخروج كما تقول التوراة - ستمائة ألف . ولكنهم لم يندمجوا فى كيان واحد بل ظلوا أسباطاً متميزة . فيما يشبه القبائل . كل قبيلة تكاد تكون مستقلة بنفسها .

وجاء موسى عليه السلام . وكان الخروج من مصر .

وفى سيناء لما عطشوا استسقى لهم موسى :

« وإذ استسقى موسى لقومه . فقلنا اضرب بعصاك الحجر . فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا . قد علم كل أناس مشربهم » . (٦٠ - البقرة)

وكان هذا العدد : اثنتا عشرة عينا – لكونهم كانوا اثنى عشر سبطا . وقال الألوسى* : وكان بينهم تضاغن وتنافس . فأجرى الله تعالى لكل سبط عينا يشرب منها . لا يشترك فيها أحد من الأسباط الأخرى دفعاً لإثارة الشحناء .

وسنرى فى الجزء الرابع إن شاء الله كيف تكرَّس هذا الانفصال الذى يكاد يكون تاماً – بين الأسباط . فعند صنع « خيمة الإجتماع » : « إحدى عشر شقة تصنعها »** . بعدد الأسباط . لأن سبط لاوى كانوا هم الكهنة الموكل إليهم إقامة الطقوس الدينية كلها فلم تكن لهم شقة .

وكان من المكونات الكهنوتية (إصحاح ٢٨ خروج) : وتأخذ حجرى جزع وتنقش عليها أسماء بنى إسرائيل . ستة من أسمائهم على الحجر الواحد . وأسماء الستة الباقين على الحجر الثانى . وكذلك كانت هناك « صديرية » تسمى صدرة قضاء*** يلبسها الكاهن الأكبر . والصدرة مرصَّعة بأربعة صفوف من الحجارة الكريمة . كل صف به ثلاث أحجار : وتكون الحجارة على أسماء بنى إسرائيل . اثنى عشر على أسمائهم . كنقش الخاتم كل واحد على اسمه تكون للإثنى عشر سبطا .

وسنرى كذلك فى التمهيد لدخول أرض كنعان أن موسى عليه السلام أرسل رسلاً ليستطلعوا وليأتوا بأخبار القوم فأخذ رجلاً واحداً من كل سبط .

« ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل . وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً وقال الله إنى معكم » . (من الآية ١٢ – المائدة)

وتقول التوراة . (إصحاح ١٣ عدد) :

ثم كلَّم الرب موسى قائلاً أرسل رجالاً ليتجسَّسوا أرض كنعان التى أنا معطيها لبنى إسرائيل . رجلاً واحداً لكل سبط من آبائه ترسلون .

وفى أثناء الأربعين يوماً التى استغرقتها بعثه الاستطلاع كان موسى عليه السلام يجهز الأفراد الذين أعمارهم فوق عشرين سنة . وكوَّن من أفراد كل سبط كتيبة ورتبهم حول خيمة الإجتماع . ثلاث كتائب فى كل من الجهات الأربع حول الخيمة فيكون المجموع اثنى عشر كتيبة من اثنى عشر سبطاً .

وحينما دخل بنو إسرائيل أرض كنعان . استقل كل سبط بجزء من الأرض وكوَّن ما يشبه ولاية مستقلة ولم تتكون منهم دولة واحدة . وهكذا انطبق عليهم قوله تعالى :

---

* تفسير الألوسى جـ ١ ص ٢٧٠ .
** التوراة . إصحاح ٢٦ خروج – ٧ .
*** التوراة . إصحاح ٢٨ خروج – ١٥ .

« وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمما » . (١٦٠ - الأعراف)

وهكذا بدأ الأسباط . أنبياء . هم أبناء يعقوب الإثنا عشر . ولما ماتوا وفى جيل الأحفاد يحتمل أن أحد ولدى يوسف أو كليهما كان نبياً . ثم بعد ذلك فيما تلى من أجيال كان الأسباط هم الذرية وعلى هيئة قبائل أو كانوا أسباطاً أمماً وليسوا أنبياء حتى جاء موسى عليه السلام .

ثم حدث تغيير آخر . ذلك أن سبط لاوى أوكلت إليه مهمة الكهانة وخدمة خيمة الاجتماع - كما سيجىء فى الجزء الرابع إن شاء الله - واعتمد ابنا يوسف أفرايم ومنسيّ سبطين منفصلين وبذلك ظل عدد الأسباط اثنتى عشرة أسباطاً أمماً .

أمّا عن ولدى يوسف فتقول التوراة (إصحاح تكوين ٤٨)

ورأى إسرائيل (أى يعقوب) ابنى يوسف فقال من هذان ؟ فقال يوسف لأبيه هما ابناى اللذان أعطانى الله ههنا . فقال قدِّمهما إليَّ لأباركهما . وأما عينا إسرائيل فكانتا قد ثقلتا من الشيخوخة . فقربهما إليه فقبلهما واحتضنهما . وقال إسرائيل ليوسف . لم أكن أظن أنى أرى وجهك . وهو ذا الله قد أرانى نسلك أيضاً . وأخذ يوسف الاثنين أفرايم عن يسار إسرائيل ومنسى عن يمين إسرائيل وقربهما إليه . فمد إسرائيل يمينه ووضعها على رأس أفرايم (مع إن أفرايم كان واقفاً على يساره) ووضع يساره على رأس منسى .. فلمارأى يوسف أن أباه وضع يده اليمنى على رأس أفرايم ساء ذلك فى عينيه . فأمسك بيد أبيه لينقلها عن رأس أفرايم إلى رأس منسى . وقال يوسف لأبيه . ليس هكذا يا أبى لأن منسى هو البكر . ضع يمينك على رأسه . فأبى أبوه وقال : علمت يا بنى علمت . هو أيضاً يكون شعبا وهو أيضاً يصير كبيراً . ولكن أخاه الصغير يكون أكبر منه . ونسله يكون جمهوراً من الأمم . وباركهما فى ذلك اليوم . وقدَّم أفرايم على منسي .

وفاة يعقوب عليه السلام :

تقول التوراة (إصحاح ٤٧ تكوين) وعاش يعقوب فى أرض مصر سبع عشرة سنة فكانت أيام يعقوب سنو حياته مائة وسبعاً وأربعين سنة .

ولكن لو نظرنا إلى جدول حياة يعقوب فى الصفحة التالية نجد أن يعقوب جاء إلى مصر وعمره ١٠١ سنة وعاش إلى أن بلغ ١٤٧ سنة - أى عاش فى مصر ٤٦ سنة وليس ١٧ سنة كما تقول التوراة إلاَّ إذا كان قد مات عن عمر ١١٨ سنة فقط وليس ١٤٧ .

ولما قربت أيام إسرائيل أن يموت دعا ابنه يوسف وقال له : إن كنت قد وجدت نعمة فى عينيك فضع يدك تحت فخذى واصنع معى معروفاً وأمانة (وكانت هذه طريقتهم فى أخذ تعهد وموثق من شخص - وهذا نفس ما فعله إبراهيم عليه السلام وهو يأخذ عهداً على اليعازر حتى

جدول أحداث حياة يعقوب (١)

مصر	ق.م تقريباً	حياة يعقوب: العمر	حياة يعقوب: الحدث	الأحداث المتزامنة
أمنمحتب الثالث	١٨٢٩	٠	ولادة يعقوب – وعيسو	٥٠ سنة عمر إسحق . وفاة سارة
	١٨١٩	١٠		
	١٨٠٩	٢٠		
	١٨٠٣	٢٦		٧٦ عمر إسحق . وفاة إبراهيم
أمنحتب الرابع	١٨٠٠	٢٩	أخذ البكورية من عيسو	
	١٧٩٩	٣٠	أخذ البركة من إسحق	٨٠ عمر إسحق
			ثم الفرار إلى حاران	
		٣١	الوصول إلى حاران	
		٣٢	٧ سنوات مهر	
أخت	١٧٩٥	٣٩	الزواج من ليئة – ثم راحيل	
بداية الأسرة ١٣	١٧٨٩	٤٠	ولادة رأوبين (مـن ليئـة)	٩٠ سنة عمر إسحق
التفكك الداخلي		٤١	ولادة شمعون (مـن ليئـة)	
		٤٢	ولادة لاوى (مـن ليئـة)	
		٤٣	ولادة يهوذا (مـن ليئـة)	
		٤٤	ولادة دانا (من بلهة جارية راحيل)	
		٤٥	ولادة نفتالى (من بلهة جارية راحيل)	
		٤٦	ولادة جاد (من زلفة جارية ليئة)	
		٤٧	ولادة أشير (من زلفة جارية ليئة)	
		٤٨	ولادة دينة (من ليئة)	
دخول الهكسوس	١٧٨٠	٤٩	ولادة يساكر (من ليئة)	
	١٧٧٩	٥٠	ولادة زبولون (من ليئة)	إسحق عمره ١٠٠ سنة
		٥١	ولادة يوسف (من راحيل)	
		٥٢	ترك حاران بعد ٢١ سنة	
		٥٢٫٥	لابان يلاحق يعقوب عند سهدوثا وجلعاد	
		٥٣	عيسو يقابل يعقوب عند محنايم	
		٥٤	يعقوب ومصارعة الملاك	

جدول أحداث حياة يعقوب (٢)

مصر	ق.م تقريباً	حياة يعقوب: العمر	حياة يعقوب: الحدث	الأحداث المتزامنة
		٥٥	يعقوب فى شكيم	
		٥٨	دينة عمرها ١١ سنة	
		٥٩	اغتصاب دينة ونزل شكيم	
	١٧٦٩	٦٠	بيت إيل وبناء المذبح	١١٠ عمر إسحق ٩ عمر يوسف
	١٧٦٨	٦١	ولادة بنيامين – ووفاة راحيل	
		٦٢	السير إلى حبرون	
	١٧٦٦	٦٣	وفاة إسحق والده عن عمر ١٣ سنة	١١٣ سنة عمر إسحق
الملك خيان – ملك الهكسوس (حكم ٥٠ سنة)	١٧٦٥	٦٤	افتراق عيسو عن يعقوب	يوسف عمره ١٣ سنة
		٦٥	عمر يوسف	١٤ حلم يوسف . وإلقاؤه بالجب
		٦٦		١٥ وصول يوسف إلى مصر
		٨١		٣٠ بلغ أشده وامرأة العزيز تراوده
				٣١ دخول يوسف السجن
				٣٨ خروج من السجن بعد حلم الملك
				٣٩ يوسف يصبح عزيز مصر
				٤٠ بدء سبع سنوات سمان
				٤٧ بدء سبع سنوات عجاف
				٤٨ مجيء إخوة يوسف أول مرة
				٤٩ مجيء إخوة يوسف ثانى مرة
				٤٩ر٥ مجيء إخوة يوسف ثالث مرة
	١٧٢٨	١٠١	مجيء يعقوب إلى مصر	٥٠
				٥٤ انتهاء سنوات المجاعة
				٥٥ عام الغوث
		١١٠		
أبو فيس الأول	١٧١٥	١١٤		
		١٢٠		
		١٣٠	لو عاش إسحق إلى عمر ١٨٠ سنة كما تقول التوراة	
	١٦٨٩	١٤٠		
	١٨٦٢	١٤٧	وفاة يعقوب فى مصر ودفنه فى حبرون	٩٦ عمر يوسف عند وفاة والده يعقوب

لا يزوج ابنه إسحق من بنات الكنعانيين – انظر الجزء الثانى ص ٣٨١) . لا تدفنِّى فى مصر . بل أضطجع مع آبائى . فتحملنى من مصر وتدفننى فى مقبرتهم . فقال أنا أفعل بحسب قولك. فقال احلف لى . فحلف له .

قبل وفاته جمع يعقوب بنيه وأوصاهم وصيتين . واحدة تتعلق بالدين والثانية تتعلق بالدنيا . وقد ذكر القرآن الكريم الوصية المتعلقة بالدين أما التوراة فقد ذكرت تلك التى تختص بالدنيا .

وصية يعقوب لبنيه في القرآن الكريم :

« أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى، قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً . ونحن له مسلمون » . (١٣٣ – البقرة)

وفى الآيات الثلاث التى تسبق هذه الآية . أوضح القرآن الكريم أن الملة التى يعبدون الله عليها هى ملة إبراهيم عليه السلام . دين الله الحنيف – الإسلام .

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه . ولقد اصطفيناه فى الدنيا . وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم . قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب . يابنىَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » . (١٣٠ – ١٣٢ – البقرة)

كان بنو يعقوب فى فلسطين بعيدين عن مراكز عبادة الأصنام التى كانت متمركزة فى بابل ونينوى ودمشق . صحيح أن عبادة الأصنام كانت فى كل مكان . إلاَّ أن معابدها العظيمة كانت فى المدن الكبرى . وكان بنو يعقوب فى البادية بعيدين عنها . أما فى مصر . فكانوا قريبين جداً من معابد المصريين الضخمة وخاف عليهم يعقوب أن يُفتنوا بها وبما يقام بها من طقوس وصلوات . لذلك أراد أن يؤكد عليهم التمسك بعبادة التوحيد وأخذ عليهم العهد بذلك . لم يكن يخشى عليهم هذا الافتتان وهو حى بينهم . ولكن ما كان يخشاه هو بعد وفاته . لذلك قال : ما تعبدون من بعدى ؟ فأعطوه عهدهم بأن يلتزموا بعبادة التوحيد التى كان عليها آباؤه – أى أبوه وجده .

ولكن بنى إسرائيل من طول معايشتهم للمصريين استهوتهم عبادة الأصنام وكان أكثر ما مالوا إليه هو عبادة عجل أبيس . وكان بين الحين والآخر يظهر بين أبقارهم ومواشيهم عجل فيه المميزات التى كان المصريون يتطلبونها فى العجل المقدس . فكان بنو إسرائيل يحيطون هذه

العجول بالرعاية وينظرون إليها نظرة تقديس . وبمضى السنين تشربت عبادة العجل فى نفوسهم :

« **وأشربوا فى قلوبهم العجل** » . (من الآية ٩٣ - البقرة)

وصية يعقوب لبنيه في التوراة :

جاءت وصية يعقوب لبنيه فى الإصحاح ٤٩ تكوين . وهى تتعلق بأمور الدنيا وما سيحدث لهم فى قابل الأيام فتقول :

ودعا يعقوب بنيه وقال اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم فى آخر الأيام . اجتمعوا واسمعوا يابنى يعقوب . واصغوا إلى إسرائيل أبيكم :

رأوبين : أنت بكرى وقوتى وأول قدرتى . فضل الرفعة وفضل العز . فائراً كالماء لا تتفضَّل. لأنك صعدت على مضجع أبيك . حينئذ دنسته . على فراشى صعد . (وكان هذا معناه حرمانه من البكورية ولا تكون له الرئاسة) .

وهى إشارة إلى ما ذكرته التوراة (إصحاح ٣٥ تكوين - ٢١) : بعد وفاة راحيل رحل إسرائيل ونصب خيمته وراء مَجْدَلْ عدر .. وحدث إذ كان إسرائيل ساكناً فى تلك الأرض أن رأوبين ذهب واضجع مع بلهة . سُرِّيَّة أبيه . وسمع إسرائيل (وقد ذكرنا ذلك فى ص ٤٢٢) .

ولا نظن ذلك حدث حقيقة . فإن الزنا بسرية أبيه التى هى فى مقام والدته أو خالته فاحشة كبيرة - ثم هى أم أخويه : دانا ونفتالى . ومن المؤكد أن الغيرة على والدتهما . قد تجعلهما يقتلان رأوبين لهذا العمل المشين لو كان حدث فعلاً . وما نعتقده هو أن كاتبى التوراة رأوا أن يعقوب عليه السلام قد حرم رأوبين من البكورية فأرادوا أن يبرروا ذلك بالإدعاء بأنه اضطجع مع سرية أبيه .

ولو كان هذا الأمر هو سبب حرمان رأوبين من البكورية . لكان حريًا بيعقوب عليه السلام أن يحرم يهوذا أيضاً من البكورية . لأن كاتبى التوراة قد نسبوا إليه (إصحاح ٣٨ تكوين) أنه قد زنى بثامار - زوجة ابنه .

وعليه فإننا نتفق مع رأى كثيرين علقوا على هاتين الحادثتين بأنهما محض اختلاق .

فضلاً عن أن رأوبين ويهوذا هما من الأسباط (ص ٥٤٤) ويجب تنزيههما عن الفاحشة . حتى ولو كانتا قد حدثتا قبل نبوَّتهما .

شمعون ولاوى أخوان . آلات ظلم سيوفهما . فى مجلسهما لا تدخل نفسى . بمجمعهما لا تتحد كرامتى . لأنهما فى غضبهما قتلا إنساناً (ربما إشارة إلى المذبحة الفظيعة فى شكيم . ص ٤٢٠) . وفى رضاهما عرقبا ثوراً . (تعبير مجازى عن قتل إنسان كان أميرا) . ملعون غضبهما فإنه شديد وسخطهما فإنه قاس . أقسمهما فى يعقوب وأفرقهما فى إسرائيل . (وهى دعوة عليهما بالتشتت والتوزع فى كل بنى إسرائيل) . وقد تحقق هذا فى المستقبل . عند تقسيم الأرض . إذ اقتطع ميراث شمعون من ملكية يهوذا . ثم ابتُلع شمعون فى يهوذا تحقيقاً للعنة والدهما . كما لم تكن لسبط لاوى أرض خاصة بهم – بل تولوا أعمال الكهانة وخدمة المذبح فى كل أنحاء الأراضى التى استولى عليها بنو إسرائيل . .

يهوذا : إياك يحمد إخوتك . يدك على قفا أعدائك . يسجد لك بنو أبيك (وهذه بركة الابن البكر . فبعد حرمان رأوبين من البكورية ثم شمعون ولاوى أيضاً . صار يهوذا هو الابن البكر) . يهوذا جرو أسد . (وهى إشارة إلى قوة يهوذا الحربية) من فريسة صعدت يا ابنى . جثا وربض كأسد وكلبؤة – من ينهضه . (لعلها إشارة إلى مملكة يهوذا وسقوطها بالسبى البابلى) . لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب (فى هذه الفقرة إشارة إلى عصا الحاكم التى كانت توضع عادة بين الرجلين* ولعل فى هذا إشارة إلى رجوع شعب يهوذا إلى بلادهم وإن كانوا تحت حكم الفرس ثم الرومان) وعن معنى « حتى يأتى شيلون » قالوا إنها إشارة إلى مجىء المسيا* . رابطاً بالكرمة جحشه . وبالجفنة ابن أتانه . غسل بالخمر لباسه . وبدم العنب ثوبه . مُسْوَدٌّ العينين من الخمر . ومُبْيَضٌّ الأسنان من اللبن (كل هذا يعنى النجاح المستمر*) .

زبولون : عند ساحل البحر يسكن وجانبه عند صيدون . وقد قصَّر سبط زبولون فى طرد سكان الأرض الأصليين بل وخالطوهم وصاهروهم . فكانوا أسرع الأسباط إلى عبادة الأوثان .

يَسَّاكر : حمار جسيم . رابض بين الحظائر . فرأى المحل أنه حسن . والأرض أنها نَزِهة. فأحنى كتفه للحمل . وصار للجزية عبدا . وقد تمت النبوءة فإن سبط يساكر سكنوا سهل يزرعيل الخصب . غربى نهر الأردن . حول رافده المسمى نهر جالود . واشتغلوا فى الفلاحة وكانوا مكدودين فيها . وكانت أرضهم تغزوها القبائل الرحَّل وتفرض عليهم الجزية .

دان : يدين شعبه كأحد أسباط إسرائيل . يكون حية على الطريق . أفعواناً على السبيل . يلسع عقبى الفرس فيسقط راكبه إلى الوراء . لخلاصك انتظرت يارب . والنبوءة تشير إلى دهاء ذريته ومكرهم . وشمشون من سبط دان . وله مواقف تدل على كثير من الدهاء .

---

* تفسير الكتاب المقدس جـ ١ ص ٢١٠ .

جاد : يزحمه جيش . ولكنه يزحم مؤخره .

ولعل فى هذا إشارة إلى كبر عدد سبطه . فقد كان له سبعة بنين كل منهم أسس عشيرة من قبائل الجاديين . كما أن جبابرة سبط جاد كانوا مرافقين لداود فى حروبه .

أشير : خبزه سمين . وهو يعطى لذات ملوك .

وهذا تنبؤ بالنجاح . لأن أرضهم كانت غنية بأشجار الزيتون . وكانت نبوءة موسى : بأن أشير يغمس فى الزيت قدمه .

نفتالى : آيلة مسيبة . يعطى أقوالاً حسنة .

والأيلة حيوان شديد السرعة خفيف الحركة والقفز على الصخور وإذا جاع هزل وضعفت قوته . ولعل فى هذا إشارة إلى أنهم سيضعفون . وهم فعلاً لم ينجحوا فى طرد الكنعانيين من الأرض المخصصة لهم . أما قول « يعطى أقوالاً حسنة » فقد اشترك ممثل نفتالى فى لعن الخارجين على الشريعة (إصحاح ٢٧ تثنية) .

يوسف : غصن شجرة مثمرة على عين . أغصان قد ارتفعت فوق حائط فمررته ورمته واضطهدته أرباب السهام . ولكن ثبتت بمتانة قوسه وتشددت سواعد يديه . من يدى عزيز يعقوب من هناك من الراعى صخر إسرائيل . من إله أبيك الذى يعينك . ومن القادر على كل شىء الذى يباركك . تأتى بركات السماء من فوق وبركات الغمر الرابض تحت بركات الثديين والرحم . بركات أبيك فاقت كل بركات أبوىَّ . إلى منية الآكام الدهرية تكون على رأس يوسف وعلى قمة نذير إخوته .

ولعل فى هذا إشارة إلى أنه كان خيراً على مصر عند جفاف نيلها . وأنه ارتفع فوصل إلى مركز مرموق . وأنه قد اضطهد وأصابته سهام الغيرة من إخوته . وقد يكون السجن بسبب كيد امرأة العزيز . ولكنه ثبت فى كلتيهما . وقد يكون فى باقى النبوة إشارة إلى أنه سيسود إخوته فى المملكة الشمالية .

بنيامين : ذئب يفترس . فى الصباح يأكل غنيمة . وعند المساء يقسم نهباً .

جميع هؤلاء هم أسباط إسرائيل الإثنا عشر . وهذا ما كلمهم به أبوهم وباركهم كل واحد بحسب بركته باركهم . وأوصاهم وقال لهم أنا أنضم إلى قومى . ادفنونى عند آبائى فى المغارة التى فى حقل المكفيلة التى اشتراها إبراهيم فى الحقل من عفرون الحثى . هناك دفنوا إبراهيم وسارة امرأته . وإسحق ورفقة امرأته وهناك دفنت ليئة .

ولما فرغ يعقوب من توصية بنيه . أسلم الروح وانضم إلى قومه وتستمر التوراة (إصحاح ٥٠ تكوين) :

فوقع يوسف على وجه أبيه وبكى عليه وقبَّله . وأمر يوسف الأطباء أن يُحَنِّطوا أباه . فحنط الأطباء إسرائيل . وكمل له أربعون يوماً . ثم كلم يوسف بيت فرعون قائلاً أبى استحلفنى قائلاً ها أنا أموت . فى قبرى الذى حفرت لنفسى فى أرض كنعان هناك تدفننى . فالآن أصعد لأدفن أبى وأرجع . فقال فرعون : اصعد وادفن أباك كما استحلفك .

فصعد يوسف ليدفن آباه . وصعد معه بعض من شيوخ أرض مصر . وكل بيت يوسف وإخوته وبيت أبيه . غير أنهم تركوا أولادهم وغنمهم وبقرهم فى أرض جاسان . وصعد معه مركبات وفرسان . وحمله بنوه إلى أرض كنعان ودفنوه فى مغارة حقل المكفيلة . ثم رجع يوسف إلى مصر . هو وإخوته وجميع الذين صعدوا معه لدفن أبيه .

ولما رأى إخوة يوسف أن أباهم قد مات . قالوا لعل يوسف يضطهدنا ويرد علينا جميع الشر الذى صنعنا به . فأوصوا إلى يوسف قائلين : أبوك أوصى قبل موته قائلاً : هكذا تقولون ليوسف : اصفح عن ذنب إخوتك وخطيتهم . فبكى يوسف حين كلموه . وأتى إخوته أيضاً ووقعوا أمامه وقالوا ها نحن عبيدك . فقال لهم يوسف : لا تخافوا . أنتم قصدتم لى شراً . أما الله فقصد بى خيراً لكى يفعل كما اليوم . ليحيى شعباً كثيراً . (يقصد شعب مصر لما عبر به السنوات السبع العجاف) . فالآن لا تخافوا . أنا أعولكم وأولادكم فعزَّاهم وطيب قلوبهم .

وهكذا عاش إخوة يوسف وبنيهم . فى مصر . فى سعة من العيش بما كان يجريه يوسف عليهم من الجراية من الحبوب مجاناً . وما كانت تدره عليهم أغنامهم ومواشيهم .

يقابل هذا ما كان فيه المصريون من ضيق وضنك بسبب السنين الجدباء التى مرت بها البلاد وترويه التوراة هكذا (إصحاح ٤٧ تكوين) :

ولم يكن خبزٌ فى الأرض لأن الجوع كان شديداً جداً . فجمع يوسف كل الفضة الموجودة فى أرض مصر بالقمح الذى اشتروا . وجاء يوسف بالفضة إلى بيت فرعون . فلما فرغت الفضة من أرض مصر أتى جميع المصريين إلى يوسف قائلين . اعطنا خبزاً فلماذا نموت قدامك لأن ليس لنا فضة ؟ فقال يوسف هاتوا مواشيكم فأعطيكم بمواشيكم . فجاءوا بمواشيهم إلى يوسف . فأعطاهم يوسف خبزاً بالخيل وبمواشى الغنم والبقر والحمير فقاتهم بالخير تلك السنة بمواشيهم .

ملحوظة : من المؤكد أن يوسف لما أخذ المواشى . لم يجد من المصريين من يرعاها . فضمها إلى مواشى إخوته فى أرض جاسان .

ولما تمت تلك السنة أتوا إليه فى السنة التالية . وقالوا له : لا نخفى عن سيدى أنه إذ قد فرغت الفضة . ومواشى البهائم عند سيدى . لم يبق قدام سيدى إلاً أجسادنا وأرضنا . لماذا نموت أمام عينيك ؟ اشترنا وأرضنا بالخبز فنصير نحن وأرضنا عبيداً لفرعون . فاشترى يوسف كل أرض مصر لفرعون . إذ باع المصريون كل واحد حقله لأن الجوع اشتد عليهم . إلا أن أرض الكهنة لم يشترها . إذ كانت للكهنة فريضة من الحبوب من قبل فرعون يأكلون منها لذلك لم يبيعوا أرضهم .

يقول الألوسى* إن يوسف عليه السلام قال للملك : كيف ترى فى هؤلاء ؟ فقال الملك : الرأى رأيك . فقال يوسف : إنى أشهد الله تعالى أنى قد اعتقتهم ورددت إليهم أملاكهم .

وتقول التوراة** : إن يوسف أعطاهم بذوراً ليزرعوا . ويكون عند الغلة أن يعطوا خمس المحصول لفرعون والأربعة أخماس الباقية ليأكلوا منها ويحفظوا جزءاً كبذور للعام التالى . وجعلها يوسف فرضاً علي أرض مصر . لفرعون الخمس ما عدا أرض الكهنة .

وتستمر التوراة فتقول : وسكن بنو إسرائيل فى مصر فى أرض جاسان وتملكوا فيها وأثمروا وكثروا جداً .

مما لا شك فيه أن المصريين تضايقوا لما باعوا مواشيهم . ثم أرضهم للك الهكسوس الذى كان يوسف عليه السلام يمثله . وهو وإن كان قد أعتقهم إلاً أنه فرض عليهم « الخُمس » يعطوه لفرعون . كانوا فى قرارة أنفسهم يحمدون ليوسف حسن تدبيره للأمور فى سنوات المجاعة — فقد كانت الأخبار ترد إليهم عن موت الآلاف فى فلسطين والشام بسبب القحط والجفاف الذى عم منطقة الشرق الأدنى . لقد سلَّموا بأن الفاتح المنتصر — وهم الهكسوس — تكون لهم امتيازات بحق الفتح . ولكنهم قارنوا بين حالهم وحال بنى إسرائيل . الذين وفدوا على البلاد . وسندهم قرابتهم لنائب الملك . فأقطعهم أرضاً مراعى لمواشيهم . وأجرى عليهم العطايا والأرزاق . فعاشوا فى بحبوحة من العيش . وتكاثروا بسرعة وكان هذا هو مبدأ الشعور غير الودى الذى بدأ المصريون يحسونه تجاه بنى إسرائيل .

وفاة يوسف عليه السلام :

ومرت السنون . وتوفى الملك خيان . ملك الهكسوس حوالى عام ١٧١٥ ق.م وكان عمر يوسف حينئذ ٦٣ عاماً . وتولى أبو فيس الأول حكم الهكسوس وحكم لمدة ٤٠ سنة . حفظ

---

* تفسير الألوسى . جـ ١٣ ص ٦ .

** التوراة . إصحاح ٤٧ تكوين .

خلالها ليوسف مكانته فى البلاد . ومات أبو فيس الأول . وتولى بعده أبو فيس الثانى . وكان يوسف قد بلغ من العمر ١٠٣ عاماً . وبعد سبع سنوات من حكم أبو فيس الثانى توفى يوسف إلى رحمة الله تعالى . وكان قد بلغ من العمر مائة وعشر سنين .

ويقال إنه أوصى إلى أخيه يهوذا .

وتقول التوراة (إصحاح ٥٠ تكوين) : ورأى يوسف لأفرايم أولاد الجيل الثالث . وأولاد ماكير بن منسى أيضاً ولدوا على ركبتى يوسف وقال يوسف لإخوته . أنا أموت . ولكن الله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التى حلف لإبراهيم وإسحق ويعقوب . واستحلف يوسف بنى إسرائيل : الله سيفتقدكم . فتصعدون عظامى من هنا .

ثم مات يوسف وهو ابن مائة وعشر سنين . فحنطوه فى تابوت فى مصر .

قيل* لما مات . تعارك الناس عليه . كلٌ يحب أن يدفن فى محلتهم لما يرجون من بركته حتى هموا بالقتال . فرأوا أن يدفن فى النيل حيث تتفرق المياه بمصر فيمر الماء عليه ثم يصل إلى جميع مصر فيصيب الخير الجميع ففعلوا ذلك . وكان قبره فى النيل إلى أن حمله موسى عليه السلام معه حين خرج من مصر ببنى إسرائيل .

وروى يونس بن عمران عن أبى موسى قال : نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعرابى فأكرمه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . أكرمتنا فأحسنت . سل حاجتك . فقال : ناقة نرحلها وعنزة تحلبها أهلى . فقال صلى الله عليه وسلم : أعجز هذا أن يكون مثل عجوز بنى إسرائيل ؟ فقالوا يا رسول الله . وما عجوز بنى إسرائيل ؟ فقال : إن بنى إسرائيل لما خرجوا ضلوا الطريق وأظلم عليهم الليل . فقالوا : ما هذا ؟ فقال علماؤهم : إن يوسف لما حضرته الوفاة أخذ علينا موثقاً من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا . قال موسى : فمن يعلم موضع قبره؟ قالوا : عجوز لبنى إسرائيل . فبعث إليها موسى . فأتته . فقال : دلينى على قبر يوسف . فقالت له : وتعطينى حكمى ؟ قال : وماحكمك ؟ قالت : أن أكون معك فى الجنة . فكره أن يعطيها حكمها . فأوحى الله إليه أن اعطها حكمها ففعل .

ويروى من طريق آخر – أن هذه العجوز كانت مقعدة عمياء . فقالت لموسى : ألا أخبرك بموضع قبر يوسف ؟ قال : نعم . فقالت له : لا أخبرك حتى تعطينى أربع خصال : تطلق رجلى

* عرائس المجالس للثعلبى ص ١٧٠ .

وتعيد إلى بصرى . وشبابى . وتجعلنى معك فى الجنة . قال . فكبر ذلك على موسى . فأوحى الله تعالى إليه . أن اعطها ما سألت . فإنك إنما تعطى علىَّ . ففعل . فانطلقت بهم إلى موضع عين فى مستنقع ماء فاستخرجوه من شاطىء النيل فى صندوق من مرمر . فلما حملوا تابوته طلع القمر وأضاء الطريق مثل النهار فاهتدوا به وحملوه وساروا .

ولا ندرى مدى صحة هذا الحديث . وقد يرى البعض أن القصة من الإسرائيليات أو الموضوعات . ولكن لو تمعنَّا فى الأمر لوجدنا فيها بعضاً من المعقولية . ولعلها كانت إرادة الله أن يُجهل مكان قبر يوسف على مر الأزمنة . ففى غمار التعذيب والتسخير والتنكيل الذى تعرض له بنو إسرائيل . ما كان الأمر ليخلو من متعصب ينقب قبره – لو كان ظاهرا للعيان – أو لو كان معروفاً مكانه . انتقاماً ممن كان سبباً فى مجيئتهم إلى مصر !!

كما أننا ندرك مدى سطوة لصوص المقابر التى جعلت الفراعين – عند بناء الأهرامات – يعمدون إلى إخفاء مكان توابيتهم والتمويه بسراديب وحجر دفن كاذبة . وما كان هؤلاء اللصوص ليتورعوا عن ممارسة نشاطهم لما قد يعتقدون من ثروة فى قبر نائب الملك . وما نظن أن الفراعين – فى فترة تعذيب بنى إسرائيل – كانوا يهتمون بوضع حراسة على قبره لمنع ذلك . بل لعلهم كانوا يغضون الطرف عمداً لتشجيع مثل هذا الفعل – لكل هذه الاعتبارات لعلها كانت إرادة الله سبحانه وتعالى – حفظاً لقبر نبيه يوسف عليه السلام – من أى مساس به – أن يُجهل مكانه . حتى يحين موعد الخروج من مصر فيحملونه معهم ليدفن بعد ذلك بجوار أبيه وأجداده .

جدول أحداث حياة يوسف عليه السلام

ملوك مصريون	ملوك الهكسوس	ق.م تقريباً	حيـــاة يوسف		الأحداث المتزامنة
			العمر	الحـــدث	
الأسرة الثالثة عشرة فى غرب الدلتا . الأسرة الرابعة عشرة فى طيبة .	سمقن رع		٠	مولد يوسف فى حاران	٥١ سنة عمر يعقوب
		١٧٦٨	١٠	ولادة بنيامين .	٦١ عمر يعقوب – وفاة راحيل
	عانت هر	١٧٦٦	١٢		٦٣ عمر يعقوب – وفاة إسحق
		١٧٦٥	١٣		افتراق يعقوب وعيسو
	الأسرة الخامسة عشرة . خيان ملك الهكسوس (حكم ٥٠ سنة)		١٤	حلم يوسف وإلقاؤه فى الجب	
			١٥	وصول يوسف إلى مصر	
			٣٠	بلغ أشده	محنة امرأة العزيز
			٣١	دخول يوسف السجن	
			٣٨	خروج يوسف من السجن	
			٣٩	يوسف عزيز مصر	حلم الملك
			٤٠	بدء سبع سنوات سمان	
			٤٧	بدء سنوات المجاعة ٧ سنوات	
			٤٨	مجيء الإخوة أول مرة	
			٤٩	مجيء الإخوة ثانى مرة	
			٥٠	مجيء الإخوة ثالث مرة	مجيء يعقوب لمصر
			٥١		
			٥٤	انتهاء سنوات المجاعة	
			٥٥	عام الغوث	
			٥٩		
			٦٠		
	الأسرة السادسة عشرة . أبو فيس الأول (٤٠ سنة)	١٧١٥	٦٣		
		١٧٠٨	٧٠		
		١٦٩٨	٨٠		
		١٦٨٨	٩٠		
		١٦٨٢	٩٦	عمر يوسف عند وفاة والده	وفاة يعقوب عن ١٤٧ سنة
الأسرة السابعة عشرة فى طيبة		١٦٧٨	١٠٠		
	أبو فيس الثانى	١٦٧٥	١٠٣		
		١٦٦٨	١١٠	وفاة يوسف	

مصر بعد يوسف عليه السلام

قلنا سابقاً إن الهكسوس كانوا يسيطرون على الوجه البحرى وجزء من الوجه القبلى . كان يـزداد أو ينقص حسب قوة الهكسوس وضعفهم . ولكنه فى معظم الأوقات كان يصل إلى القوصية شمال أسيوط . اللهم إلاَّ فى فترة قصيرة جداً امتد إلى الجبلين (الأقصر) ولكنه تقلص ثانية إلى القوصية (ص ٤٦٠) .

توفى يوسف عليه السلام فى عام ١٦٦٨ ق.م. تقريباً أثناء حكم ملك الهكسوس الملقب أبو فيس الثانى . ثم تعاقب من ملوك الهكسوس عدة ملوك سموا أنفسهم بلقب ابن الشمس . تقرباً للمصريين . فأضافوا « رع » فى نهاية أسمائهم . عُرف منهم : عنت رع وسمقن رع وعار رع وسمع رع . واستغرق حكمهم مدة ٦٨ عاماً تقريباً . ثم جاءت المجموعة الأخيرة من ملوك الهكسوس وهم ثلاثة : عاقن ثم شارك ثم أبيبى وانتهت مدة حكمهم بطرد الهكسوس من البلاد حوالى عام ١٥٧٥ ق . م .

كانت الأسرة ١٧ – تحكم فى طيبة ابتداء من عام ١٦٥٥ ق . م . وكان حكامها يلمسون مدى الظلم الواقع على إخوانهم فى شمال الوجه القبلى وفى الدلتا وفى كل المناطق التى كان يحكمها الهكسوس .

وطيبة هى عاصمة الإقليم الرابع من أقاليم الصعيد – وكانت من أهم مدن مصر . إذ كانت مقر معظم الفراعين . ومركز عبادة آمون رع . الإله الرئيسى للبلاد . وعرفت طيبة باسم « مدينة المائة باب » ووصفت بأن كل باب كان يتسع لمائتى رجل . وتخرج منه جيوش فرعون . وعرفها اليونانيون باسم « ديوس پوليس ماجنا » أى « مدينة زيوس العظمى » أو « مدينة الله الكبرى » أما العرب فقد تخيلوا معابدها قصوراً ومن ثم سموها مدينة الأقصر . وشبهوا المعبد الكبير بها بقصر النعمان بن المنذر المسمى « الخورنق » فسموا المعبد باسم الخورنق والذى حرف فيمابعد لاسم الكرنك* .

طرد الهكسوس :

لعل فكرة التحرير قد بدأت فى عهد « **تاعا** » أول ملوك الأسرة السابعة عشرة وزوجته « تتى شرى » التى كانت متحمسة لفكرة التحرير . وكان لها أثر كبير فى إذكاء روح الحماسة فى الشعب .

---

* مصر والشرق الأدنى القديم . د . نجيب ميخائيل إبراهيم . جـ ٢ ص ٤ .

ثم تولي الحكم « **تاعا الشجاع** » أو « **تاعا قن الشجاع** » أو « **سقنن رع** » وفى عهده بدأ الكفاح الفعلى . كان ملك الهكسوس المعاصر له هو « أبيبى » أو « أپوپى » . وقد وصلت معلومات إلى أبيبى ببدء تجميع الصفوف وتجنيد الجنود فى الجنوب . فأراد أن يستوثق من هذه المعلومات . وأشار عليه مستشاروه بأن يرسل رسالة لجس نبض ملك طيبة ، فيها بعض الاستفزاز ليعرف من ردّه مدى قوته . « ولسوف نرى إذن قدرة ربه الذى يحتمي به . وهو الذى لا يعتمد على إله غير آمون رع ملك الأرباب ! » . فأرسل أبيبى رسالة إلى « تاعا » يقول فيها :

« اعمل على أن تطرد أفراس البحر الذى فى حوش مدينتك (طيبة) لأنها تقضّ مضجعى نهاراً وليلاً . والضوضاء تؤذى أذنى ! »

ومن المعلوم أن « أفاريس » التى يحكم منها أبيبى تبعد عن طيبة حوالى ٨٠٠ كيلو متراً . وأدرك تاعا قن مغزى الرسالة . ولم يوجه رفضاً صريحاً لها . بل عمد إلى اللين حتى يكمل استعداده للحرب . فعامل الرسل معاملة كريمة وحمّلهم هدايا للملك أبيبى .

بعد أن تأكد تاعاقن من مقدرته الحربية . بدأ يشن الحرب على حاميات الهكسوس . وحرّر الوجه القبلى حتى مصر الوسطى . ووُجدت على لسانه كتابات تقول : أيها الأسيوى الوضيع . يا حائر القلب . يا من كنت تردد . أنا المولى وليس من يداينني .. كذلك فإن « تاعا الشجاع » دمّر مدن الخونة من المصريين الذين مدوا يد العون للمحتل . ولابد أن الحرب كانت شرسة . وقد قتل « تاعا الشجاع » أو « سقنن رع » فى إحدى المعارك . وقد وجدت مومياؤه وبها خمسة جراح عميقة من ضربات سيف وآثار سهام ،. ومات وهو فى أوائل الثلاثينات من عمره . وعلى ما يبدو فإن « إياح حتب » زوجة « سقنن رع » أخفت خبر وفاته حتى لا يفت إعلان وفاته – فى عضد الجنود . واستمرت تقود المعركة . إذ وجدت كتابة تصفها بأنها : ربة الأرض . رفيعة السمعة التى دبّرت سياسة القوم . القديرة الجليلة التى أحكمت شئون مصر . أميرة الفيالق . التى تقود الشعب . زوج ملك . وأم ملك . العظيمة التى تسهر على شئون المصريين . التى جمعت صفوف جيشها . ورعت أهلها . وأعادت الفارين . ولمّت شتات المهاجرين . وهدّأت قلق الصعيد . وأرهبت عصاته . الملكة إياح حوتب . لها الحياة* .

واستكملت المعركة . وتولى ابنها « **كامس** » الحكم تحت رعايتها .

كان لمقتل « سقنن رع » أثر سيء على معنويات المستشارين . وبدأوا يخشون الحرب . وجاء فى وثيقة كتبت فى السنة الثالثة من حكم كامس جدال طويل بين كامس ورجال حاشيته وفيها يقول :

---

* الشرق الأدنى القديم . د .عبد العزيز صالح . جـ ١ ص ٢١٤ .

أريد أن أعرف ما هى قوتى . ولم اشتُهرت بالشجاعة مادام هناك أمير فى حت وعرت (أواريس – يقصد ملك الهكسوس) وأنا هنا فى طيبة . وكل واحد تحت نصيبه جزء من أرض مصر . يشاركنى فى الأرض . وليست لدى فرصة للوصول إلى منف . انظروا . تجدوا الأسيويين يحكمون مصر حتى الأشمونين . وقد هدموا كل الأبنية وخربوها . ولكنى سأهاجم ملكهم . وسوف أبقر بطنه بيدى . إن كل أملى أن أخلص مصر من تعسف الأسيويين وأطردهم شر طردة .

فأجاب رجال الحاشية قائلين . إذا كان الأسيويون قد توغلوا فى مصر حتى القوصية . وإذا كانوا يلفقون التهم ضدنا . ويسحبون لسانهم علينا (إشارة لرسالة أبيبى إلى سقنن رع) إلاَّ أننا نعيش فى سلام فى منطقتنا . وجزيرة فيلة محصنة تحصيناً قوياً . ونحن نحكم مصر الحقيقية !

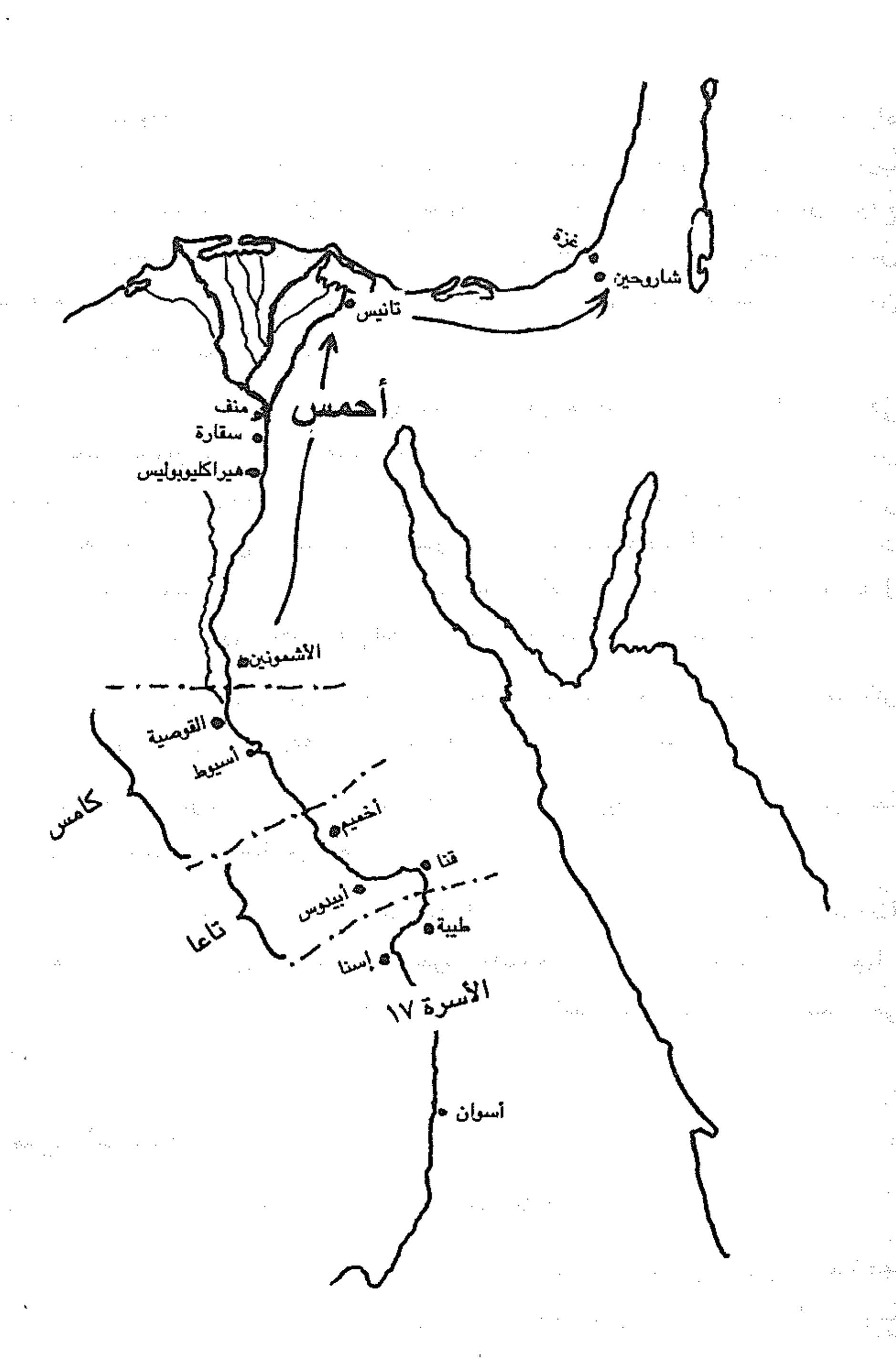
وهنا غضب الملك كامس وقال : يجب أن يلهج المصريون باسمى ويتحدث الكل عنى قائلين : هو ذا مخلص مصر .

ثم جمع كامس جيشاً من رجاله البواسل . والفرقة النوبية . مطيعاً بذلك أمر الإله « آمون » وسار بهذا الجيش شمالاً . وهاجم « تيتى » . أحد الأمراء الموالين للهكسوس وهزمه . وواصل زحفه شمالاً .

وقُتِل « كامس » هو الأخر فى أثناء معركة . وتماسك الجند بفضل حزم والدته « إياح حوتب » إلي أن تولى أخوه « أحمس » الحكم . وليتم رسالة التحرير التى بدأها أبوه وجده .

أحمس : عاحموزة :

لا تزال تفاصيل المرحلة النهائية لطرد الهكسوس فى عهد أحمس شحيحة للغاية إلاَّ أن النزر اليسير الذى وصلنا يفيد أن أحمس واصل تقدمه شمالاً . فحرر الأشمونين . ثم هيراكليوپوليس. ثم منف . ثم استمر فى تحرير الدلتا حتى وصل إلى عاصمة الهكسوس «حت وعرت » أو « أواريس » . وقد وجدت مذكرات كتبها أحد القادة فى جيش أحمس ذكر أنه اشترك فى محاصرة عاصمة الهكسوس . وأن المعارك دارت حولها وإلى الجنوب منها فى البر وعلى الماء عدة مرات . وأن الجنود المصريين دخلوها عنوة ودمروها وأسروا حاميتها وأجبروا الأسيويين على الخروج منها . إلا أن المؤرخ يوسيفيوس اليهودى يدَّعى أن الهكسوس أعلنوا التسليم لأحمس بشرط أن يدعهم يغادرون مصر آمنين . فرضى وخرجوا بأمتعتهم . وأن عدد



شكل ٩٩ – مراحل تحرير مصر من الهكسوس

الجنود وعائلاتهم والأهالى من الهكسوس بلغ حوالى ٢٤٠ ألفاً . وليس لنا أن نصدق ما رواه يوسف اليهودى* فهو غير منصف بلا شك حين يروى أن المصريين وعدتهم ٢٤٠٫٠٠٠ محارب حاصروا أواريس ولكنهم عجزوا عن اقتحام حصونها . لأن ظواهر الأمور تشير إلى أن إخراج الهكسوس كان طرداً ثم تبعته مطاردة خارج حدود مصر أيضاً . وكان قد خرج مع الهكسوس بعض الأفراد من بنى إسرائيل لارتباط مصالحهم بالهكسوس . وتكاثروا وأصبحوا يسمون « العابيرو» تمييزاً لهم عن الهكسوس .

بعد أن خرج الهكسوس من مصر . عبروا سيناء وجمعوا فلولهم فى مدينة « شاروحين » فى جنوب فلسطين بجوار غزة . (تل العجول أو تل قرعة الحالية) وتحصنوا بها . فأدرك أحمس أنه لن يأمنهم . ولن يأمن حدوده ماداموا قريبين منها . فلحقهم بجيشه وفرض الحصار على شاروحين ثلاث سنوات حتى اضطرهم إلى الخروج منها . ويعتبر علماء التاريخ حصار « حت وعرت » وحصار « شاروحين » أول حصارين طويلين فى التاريخ . واستمر فى مطاردة فلول الهكسوس حتى حدود لبنان . وحاصرهم أيضاً فى مدينة « زاهى » إحدى مدن سوريا .

بعد أن أتم أحمس تأمين الحدود الشمالية الشرقية للبلاد . كر راجعاً إلى الجنوب . حيث كان النوبيون قد انتهزوا الفرصة وتمردوا فأخضعهم فاستتب له الأمر فى البلاد .

كان خروج الهكسوس من مصر فى سنة ١٥٧٥ ق . م . تقريباً . وكانوا دخلوهم فى سنة ١٧٨٠ أى أنهم مكثوا ٢٠٥ سنة فى مصر .

ويقول علماء التاريخ إن أحد أسباب انتصار المصريين أنهم أخذوا بآلات الحرب الحديثة التى تعلموها من الهكسوس وهى العجلات الحربية فقد وجدوا كتابة لأحد الضباط يقول فيها : كنت أتبع الملك فى سيره حيثما أقلته عجلته . وهذه أول مرة تظهر فيها هذه الكلمة « عجلته » فى الكتابات المصرية .

الأسرة الثامنة عشرة :

لئن كنا سنتناول تاريخ هذه الأسرة بشىء من التفصيل فذلك لعدة أسباب :

١ – هذه الأسرة هى التى وضعت أسس الدكتاتورية العسكرية المصرية وكان من نتائجها تكوين الامبراطورية المصرية . وكان أيضاً من نتائجها إعطاء الفراعين سلطات مطلقة وهو ما انعكس فيما بعد على إدعاء بعضهم الألوهية . بدلاً من الاكتفاء بأنه ابن الإله .

---

* مصر والشرق الأدنى القديم . د . نجيب ميخائيل إبراهيم جـ ٢ ص ٦ .

٢ – أخناتون هو أحد ملوك هذه الأسرة واختلفت الآراء حوله اختلافاً كبيراً . فريق يرى أنه « نبى » استناداً إلى دعوة التوحيد التى نادى بها . وأنه أحد الأنبياء أو الرسل الذين أشار إليهم القرآن الكريم بقوله : « **ورسلاً لم نقصصهم عليك** » . وفى المقابل نظرة إلحادية تقول إنه هو الذى « اخترع » التوحيد . فكان بذلك « أول الموحدين » وأن ديانة موسى ما هى إلا تطوير للأخناتونية .

٣ – أنه فى زمن هذه الأسرة بدأ الشعود المعادى لبنى إسرائيل يظهر ويتعاظم حتى بلغ أقصاه فى عهد الأسرة التاسعة عشرة .

بتولى أحمس العرش بعد طرد الهكسوس عام ١٥٧٥ ق . م . تقريباً تبدأ الأسرة الثامنة عشرة . ويبدأ عصر « **الدولة الحديثة** » فى مصر القديمة . واستعادت مصر هيبتها التقليدية وهيبة ملوكها . واستمرت الأسرة الثامنة عشرة تحكم البلاد أكثر من قرنين ونصف قرن . تعاقب على الحكم أثناءها اثنا عشر ملكاً . كما هو مبين فى الصفحة التالية وتبلغ الدولة الحديثة أوجها فى عهد الأسرة التاسعة عشرة . ثم تبدأ مرحلة الأفول والاضمحلال بعد الأسرة العشرين لتنتهى تماماً بنهاية الأسرة الحادية والعشرين فى العام ٩٥٠ أو ٩٤٥ ق . م .

أحمس :

قام أحمس – بعد طرد الهكسوس – بتأليف حكومة عسكرية بحتة واصطبغ حكمه بالصبغة العسكرية . وكان الأمراء وحكام الأقاليم ضعافاً قانعين . فقد فقدوا أثناء حكم الهكسوس كل ما كانوا يتمتعون به من نفوذ . وبذلك كان أحمس حاكماً مطاعاً . واستمر هذا الحكم الدكتاتورى المطلق وبلغ ذروته فى الأسرة التاسعة عشرة فى عهد الرعامسة .

قلنا إن أحمس طارد الهكسوس خارج مصر – فى فلسطين وسوريا – وعاد محملاً بالغنائم. فرأى أن الغزو الخارجى يعود على البلاد بثروة ومكاسب . كانت مصر قبل هذه الفترة منغلقة على نفسها . مكتفية بخيراتها وثرواتها وكل همها الحفاظ عليها من هجمات الأسيويين من الشرق – أو الليبيين من الغرب – أو النوبيين من الجنوب . ولكن بعد احتلال الهكسوس وطردهم تفتحت عقول الحكام المصريين على العالم الخارجى . وأدركوا أهميته بالنسبة لأمن البلاد وأمنهم هم كذلك . وأدركوا الفوائد التى تعود على البلاد من إخضاع بعض البلاد الأسيوية لحكمهم . وكانت هذه هى النواة الأولى فى التفكير لبناء امبراطورية مصرية . لذلك أولى أحمس الجيش عناية عظيمة . وأجزل الرواتب للجنود والضباط . ورأى المصريون أن الإندماج فى الجيش يحقق لهم ميزات من حيث المرتب والمكانة الاجتماعية .

إسم الملك	من عام ق٠م	إلى عام ق٠م	مدة الحكم
أحمس	١٥٧٥	١٥٥٠	٢٥
أمنحتب الأول	١٥٥٠	١٥٢٨	٢٢
تحوتمس الأول	١٥٢٨	١٥١٠	١٨
تحوتمس الثانى	١٥١٠	١٤٩٠	٢٠
حتشبسوت	١٤٩٠	١٤٦٨	٢٢
تحوتمس الثالث	١٤٦٨	١٤٣٦	٣٢
أمنحتب الثانى	١٤٣٦	١٤١٣	٢٣
تحوتمس الرابع	١٤١٣	١٤٠٥	٨
أمنحتب الثالث	١٤٠٥	١٣٦٧	٣٨
أمنحتب الرابع	١٣٦٧	١٣٥٠	١٧
= أخناتون			
سمنخ كارع	١٣٥٠	١٣٤٧	٣
توت عنخ أمون	١٣٤٧	١٣٣٩	٨
الكاهن آى	١٣٣٩	١٣٣٥	٤
حور محب	١٣٣٥	١٣٠٨	٢٧
			٢٦٧

واستعمل المصريون أدوات الحرب الحديثة من عجلات تجرها الخيول والأقواس البعيدة المرمى . والنبال . وتمرنوا على تسديدها . ولكن الخيل كانت لجر العربات . ولم تظهر فرقة « فرسان » أى جنود يركبون الخيل . ومن ذلك التاريخ أيضاً تأسست وتأصلت دكتاتورية الفراعين . وصارت لهم الكلمة العليا . ولم يكن هناك من يسألهم عما يأتون به من أعمال . وأصبحوا مطلقى السلطة . يحكمون حكماً دكتاتورياً مطلقاً . استمر فى كل ملوك الأسرة بعد ذلك . وبلغ ذروته فى عهد الأسرة التاسعة عشرة وخاصة فى عهد رمسيس الثانى .

بنو يعقوب بعد طرد الهكسوس :

مما لا شك فيه أن المصريين كانوا ينظرون إلى بنى يعقوب – أى بنى إسرائيل نظرة غير ودية للأسباب التالية :

١ – أنهم أسيويون . مثل الهكسوس الذين احتلوامصر .

٢ – أنهم قدموا إلى مصر فى عهد الهكسوس . وتربوا فى أحضانهم وتضاعفت أعدادهم كثيراً .

٣ – كان يوسف عليه السلام قد أقطعهم أرض جاسان . وأجرى عليهم الأرزاق والحبوب والعطايا . فكانوا فى بحبوحة من العيش فى حين أن المصريين – كما سبق أن قلنا فى صفحة ٥٣١ و ٥٣٢ – انتهى بهم الأمر إلى أن باعوا ماشيتهم وأرضهم إلى ملك الهكسوس . وأصبحوا يدفعون الخمس . بدلاً من الجزية المفروضة وهى العشر .

٤ – لا ندرى إن كان بعض من بنى إسرائيل قد ساعدوا الهكسوس فى حربهم ضد المصريين أو أثناء حصار عاصمتهم ولكن الأغلب أنهم وقفوا على الحياد . ولعل هذا قد أحفظ المصريين عليهم . إذ أنهم كانوا يتوقعون أن بنى إسرائيل – وقد استوطنوا مصر – وأكلوا من خيراتها – كان عليهم ، أن يساعدوهم لطرد المحتل الغاصب .

٥ – مما لا شك فيه أن « **الأرض الموعودة** » كانت إحدى العقائد الثابتة لدى بنى إسرائيل . وقال لهم يوسف قبل موته (إصحاح ٥٠ تكوين) : ولكن الله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التى حلف لإبراهيم وإسحق ويعقوب . واستحلف يوسف بنى إسرائيل قائلاً : الله سيفتقدكم فتصعدون عظامى من هنا .

من هنا كان بنو إسرائيل يعلمون أن وجودهم بمصر هو وجود مؤقت . ولو أنهم قد استناموا عن هذا الأمر لرغد العيش فى مصر . ولرهبة المجهول الذى ما كانوا يعرفون عنه شيئاً . وإن كانوا يعرفون من سابق خبرتهم فى أرض كنعان أنها أقل خيراً من أرض مصر . وأن قومها أقسى طباعاً من طباع المصريين السلسة .

ولا ريب أن أقوال بنى إسرائيل عن « الأرض الوعودة » ما كانت لتخفى على المصريين . ولعل المصريين كانوا يرحبون برحيل بنى إسرائيل عن مصر قبل طرد الهكسوس إذ أن ذلك يضعف من قوة الهكسوس ويفقدهم سنداً لهم . إلاَّ أنه بعد طرد الهكسوس من مصر تغير الوضع . إذ أن تجمع فلول الهكسوس فى فلسطين أثار مخاوف أحمس من احتمال عقد صفقة بين الهكسوس وبنى إسرائيل يكون من نتيجتها عودة الهكسوس إلى مصر بمساعدة بنى إسرائيل . فى مقابل إعطاء الهكسوس أرض فلسطين لبنى إسرائيل . من هنا فقد فرض أحمس عيوناً على أرض جاسان وعلى بنى إسرائيل ليعلم من يقدم إليهم . وليرصد أى إتصالات بينهم وبين الهكسوس .

كان أفرايم بن يوسف قد زوَّج ابنته رحمة من أيوب بن موص بن رعوئيل بن عيسو . وسافرت معه إلى أرض سعير

يعقوب ← يوسف ← أفرايم ← رحمة

عيسو ← رعوئيل ← موص ← أيوب

فى أثناء حكم أحمس قدم أيوب لزيارة أهل زوجته فى مصر . وكانت عيون الفرعون ترصد أى قادم . فاستدعاه أحمس . وتأكد له أنه لا يمت بصلة إلى الهكسوس . لا ندرى حقيقة المحادثة التى جرت بينهما .لكن سيجىء الإشارة إليها فيما بعد (ص ٦٠٦) وعلى مايبدو – فإن أيوب – وهو على دين جده الأكبر إبراهيم وإسحق عليهما السلام – لم يشأ أن يسفه عبادة الأصنام التى كان عليها المصريون . خوفاً من أن ينعكس أثر ذلك على استقرار بنى إسرائيل فى مصر لذلك آثر المداهنة والملاينة وعاد إلى بلاده .

أمنحتب الأول :

تولى العرش بعد أبيه أحمس . وأخضع بلاد النوبة إلى ما وراء وادى حلفا . كما أخضع القبائل الليبية التى كانت تهدد سكان وادى النيل . ووسع أملاكه فى الشام حتى وصل إلى قرب نهر الفرات .

تحوتمس الأول :

بدأ بتوسيع أملاكه فى الجنوب ومد ملكه إلى ما بعد الشلال الرابع . ثم اتجه ناحية الشمال وعبر الشام . واقتطع جزءاً من مملكة ميتانى حتى وصل إلى « **نهرالمياه المعكوسة** » وهو

نهر الفرات وسماه المصريون كذلك لأن مياهه تجرى من الشمال إلى الجنوب فى حين أن مياه نهرالنيل تجرى من الجنوب إلى الشمال فاعتبر المصريون أن مياه نهر الفرات تجرى بعكس الإتجاه الطبيعى ! وحكم تحوتمس الأول ثمانية عشر عاماً وشكل ١٠٠ يبين اتساع الامبراطورية فى عهده .

تحوتمس الثانى :

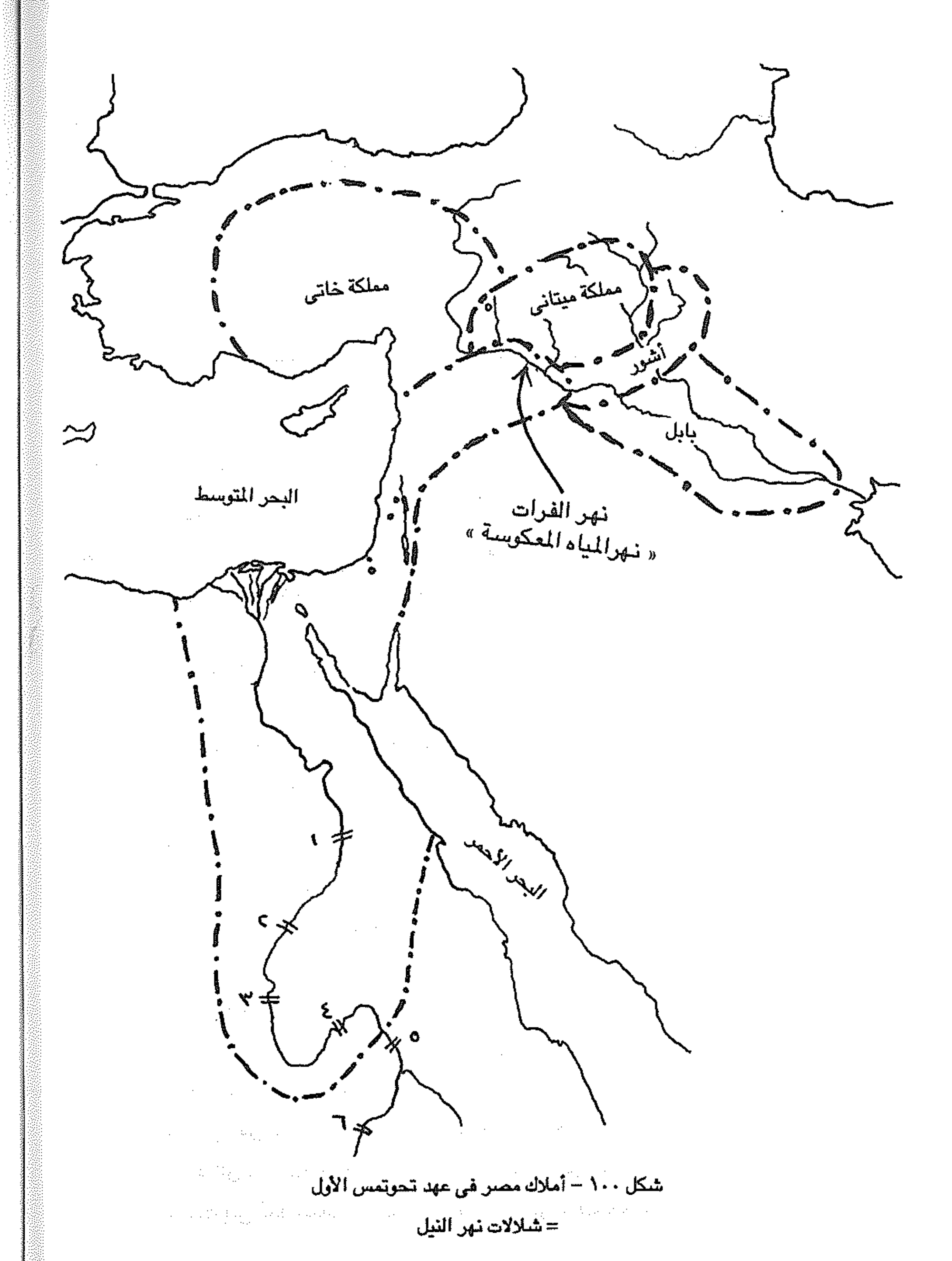
حافظ على حدود المملكة التى ورثها عن أبيه تحوتمس الأول . وتزوج من أخته حاتشبسوت . وكانت مدة حكمه عشرين عاما . وورثه ابن صغير هو تحوتمس الثالث بوصاية والدته حاتشبسوت.

الملكة حتشبسوت :

فى أول الأمر كانت تحكم كوصية على تحوتمس الثالث . ولكنها أهملته وصارت تحكم بنفسها نظرا لما كانت عليه من قدرة عظيمة وعزيمة قوية . وتزيت بزى الرجال وتشبهت بهم . فكانت ترتدى ملابس الملوك فى الحفلات الرسمية وتضع لحية مستعارة مثلهم . واتجهت حاتشبسوت وجهة إفريقية أكثر منها آسيوية . فوطدت نفوذ مصر فى البحر الأحمر ومنه إلى السودان والصومال (بلاد پنت) . وأرسلت البعثات لجلب البخور والعطور والتوابل من هذه المناطق . واستمر حكمها ٢٢ عاما تميز بالرخاء والسلم . ومن أهم الآثار التى تركتها معبد الدير البحرى . وهو معبد هائل فى سفح تلال طيبة نقشت على جدرانه أخبار رحلتها التى أرسلتها فى أفريقيا . وفى أواخر حكمها تمرد عليها بعض أمراء سوريا .

تحوتمس الثالث :

شارك والدته حاتشبسوت فى الحكم . وبعد وفاتها انفرد بالحكم . وعزم على القضاء على تمرد أمراء الشام واستعادة نفوذ مصر فى الشمال . وخاصة أن دولة ميتانى بدأت تلم شملها وتعترف بملك واحد بعد أن كانوا أمراء متفرقين . وبدأوا يثيرون القلاقل لمصر . واستمالوا إليهم عددا من رؤساء القبائل والمدن فى الشام . وكان منهم أمير قادش الذى استولى على مجدو وجعلها مركزاً لأطماعه ومد نفوذه حتى مدينة شاروهين أو شاروحين . التى كان قد اعتصم بها الهكسوس بعد طردهم من مصر وقام أحمس بحصارها وطردهم منها (ص ٥٤٠) . وتجددت مخاوف المصريين من غزو على غرار غزو الهكسوس . واحتمال قيام بنى إسرائيل بتمرد داخلى يسهل ذلك . فكان أن شدد الرقابة على أرض جاسان التى يقيم بها بنو إسرائيل . كذلك لجأ تحوتمس الثالث إلى أخذ المبادرة العسكرية واتباع أسلوب الهجوم الخاطف .



شكل ١٠٠ – أملاك مصر فى عهد تحوتمس الأول

= شلالات نهر النيل

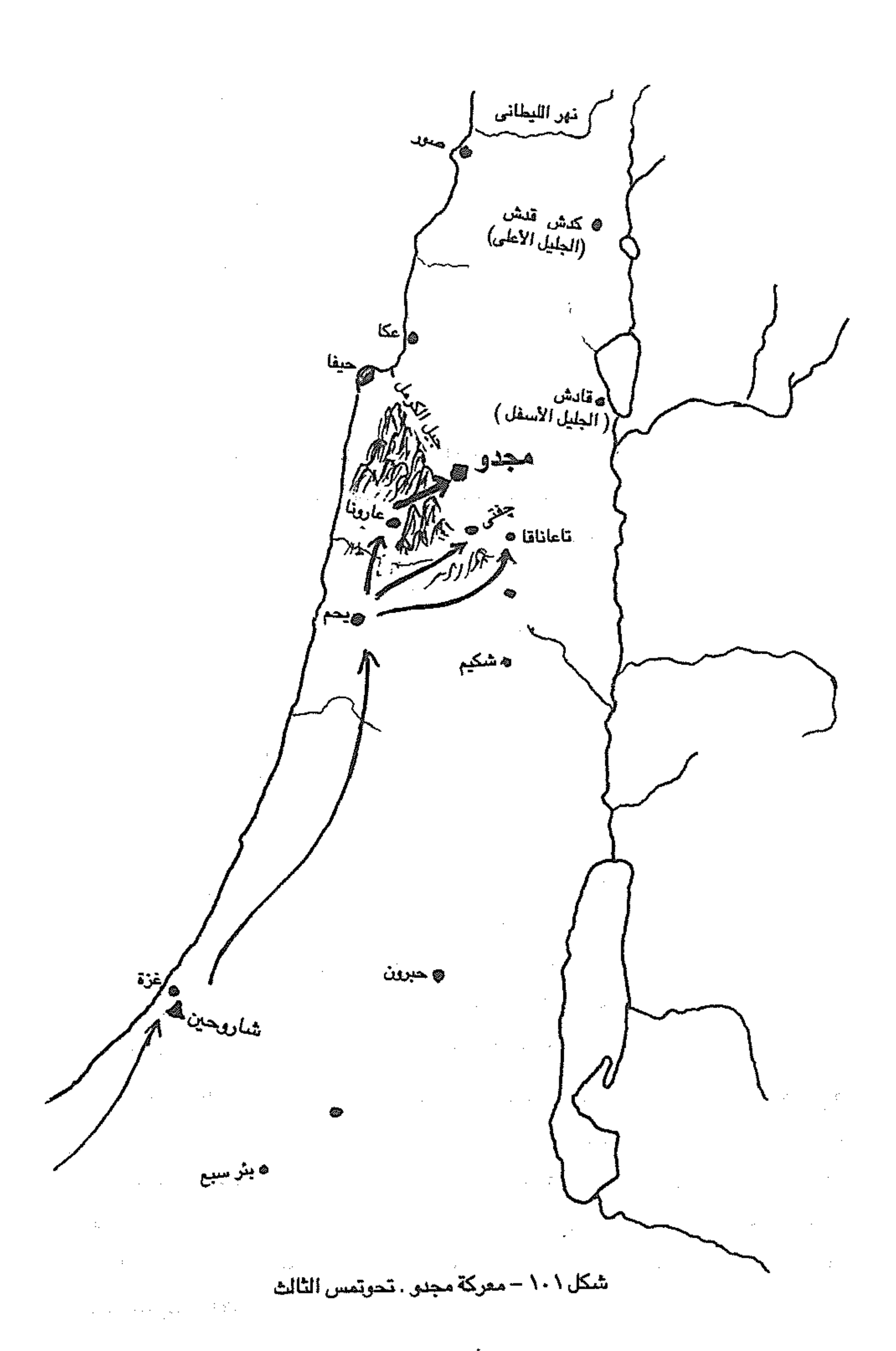
معركة مجدو Megiddo :

سنذكر هذه المعركة وكيف انتصر فيها تحوتمس الثالث . بشيء من التفصيل إذ أن هناك معركة مماثلة . قام بها رمسيس الثانى - فيما بعد - هى معركة قادش . ولكنها كادت أن تكون كارثة . إذ هلك أحد فيالق جيشه بسبب خدعة قام بها اثنان من البدو . من المرجح أنهما كانا من العابيرو . وهم ذلك النفر من بنى اسرائيل الذين خرجوا مع الهكسوس . وسيأتى تفصيل ذلك فى الجزء الرابع إن شاء الله .

كان لمًّا يمضى إلا شهور قليلة على إنفراد تحوتمس الثالث بالحكم حين جوبه بتمرد أمير قادش بتحريض من دولة الميتان . فأسرع بإعداد جيس قوامه ١٠ - ١٥ ألف جندى - أغلبهم من المشاة . وسار بجيشه من منطقة ثارو (تل أبو صيفة شرق القنطرة الحالية) . حتى وصل إلى غزة فى ٩ أيام واستولى على شاروحين . ثم واصل الزحف شمالا حتى بلغ جبل الكرمل ونزل فى بلدة يحم Yahem . وكان هناك ٣ طرق تؤدى إلى مجدو : (شكل ١٠١) .

طريق يمر ببلدة عارونا Aruna ثم يخترق جبل الكرمل فى ممر ضيق فيصل إلى مجدو مباشرة . أما الطريقان الآخران فيدوران بعيدا عن جبل الكرمل من ناحية الشرق . أحدهما يمر ببلدة تاعاناقا والآخر يمر ببلدة جيفتى . ولذلك فهما أطول ولكنهما أوسع ويسمحان للجيش بالمرور بأمان . وتخوف ضباط تحوتمس من سلوك طريق عارونا الذى يمر فى مضيق فى جبل الكرمل لاحتمال تصيُّد العدو للجنود أثناء مرورهم فى المضيق بالجبل . ولكن تحوتمس آثر المغامرة متحملا المسئولية كاملة . ولم يكن العدو يتوقع منه سلوك هذا الطريق . ففاجأهم فى الخلاء خارج مجدو . كانت جيوشهم تتقدم نحو تاعاناقا لملاقاته . فهاجمهم من الخلف . فتشتت العدو ثم ولى الأدبار وأسرع تاركا عتاده واحتمى بالحصن . ولم يواصل الجيش المصرى الهجوم ليقضى على العدو . بل انهمك الجنود فى الاستيلاء على الغنائم . فترك للعدو فرصة يلم فيها شمله ويتحصن وراء الأسوار . وأنب تحوتمس جنده قائلا : لو تابعتم الهجوم واستوليتم على المدينة لقدمتم للإله « رع » قربانا هائلا . فرؤساء البلاد العاصية جميعا فى داخل المدينة والاستيلاء عليها يعدل الاستيلاء على ألف مدينة !

أمر تحوتمس الثالث بمحاصرة المدينة حتى استسلمت بعد سبعة أشهر وكانت الغنائم هائلة : ٩٢٤ عجلة حربية - ٨٩٢ مركبة - ٢٠٤١ حصانا - ٢٠٠٠ فرسا - ١٩١ مهرا - ٢٠٠ درعا - ٢٠٠٠ رأس من العجول - ١٩٢٩ بقرة - ٢٠٥٠٠ ماشية . وبلغ الأسرى من المحتمين بالمدينة : ٤٧٤ فرد - ٣٨ من السادة - ٨٧ من أبناء الأمراء - ٥ من الأمراء - ١٧٩٦ عبيد وجوارى - هذا بخلاف القطع النفيسة والأوانى والتماثيل الدقيقة الصنع من الذهب والفضة والعاج والأحجار الكريمة والأبنوس .



شكل ١٠١ – معركة مجدو . تحوتمس الثالث

وبانتصاره فى هذه المعركة أعاد تحوتمس الثالث النفوذ المصرى إلي فلسطين وفينيقيا (لبنان) . وبعد أربعة أعوام قاد جيشه إلي قادش على نهر العاصى . وهى مدينة حصينة (وسيجيء ذكر معركتها أيام رمسيس الثانى فى الجزء الرابع بإذن الله) ونجح تحوتمس الثالث فى هزيمة أميرها وخضعت له سوريا كلها .

كان تحوتمس الثالث سياسيا بعيد النظر . فسمح للشعوب الشمالية – بعد الانتصار عليهم – بالاحتفاظ بحكامهم . على أن يكونوا تابعين لامبراطوريته . وجاء بأبنائهم إلى مصر ضمانا لولاء آبائهم له . وليربيهم فى كلية الأمراء التى أنشأها فى مدينة طيبة . ويغرس فى قلوبهم حب مصر . حتى إذا آل إليهم حكم بلادهم – بعد موت آبائهم – عادوا إليها وظلوا على ولائهم لفرعون . من أتباعه المخلصين . يدفعون الضرائب له . ويتطلعون إليه ليحميهم من الأعداء . وكان يخرج فى كل عام فى جيشه يجوب به سوريا وفلسطين توطيدا لنفوذه . وإرهابا لمن تخول نفسه التمرد عليه . وكان ملوك بابل يرسلون إليه الهدايا الثمينة تعبيرا عن ولائهم وصداقتهم . وكذلك فعل الحيثيون . سكان مملكة خاتى أو خيتا . فى آسيا الصغرى وأصبحت الامبراطورية المصرية فى أوج اتساعها كما فى (شكل ١٠٢) .

أمنحتب الثانى :

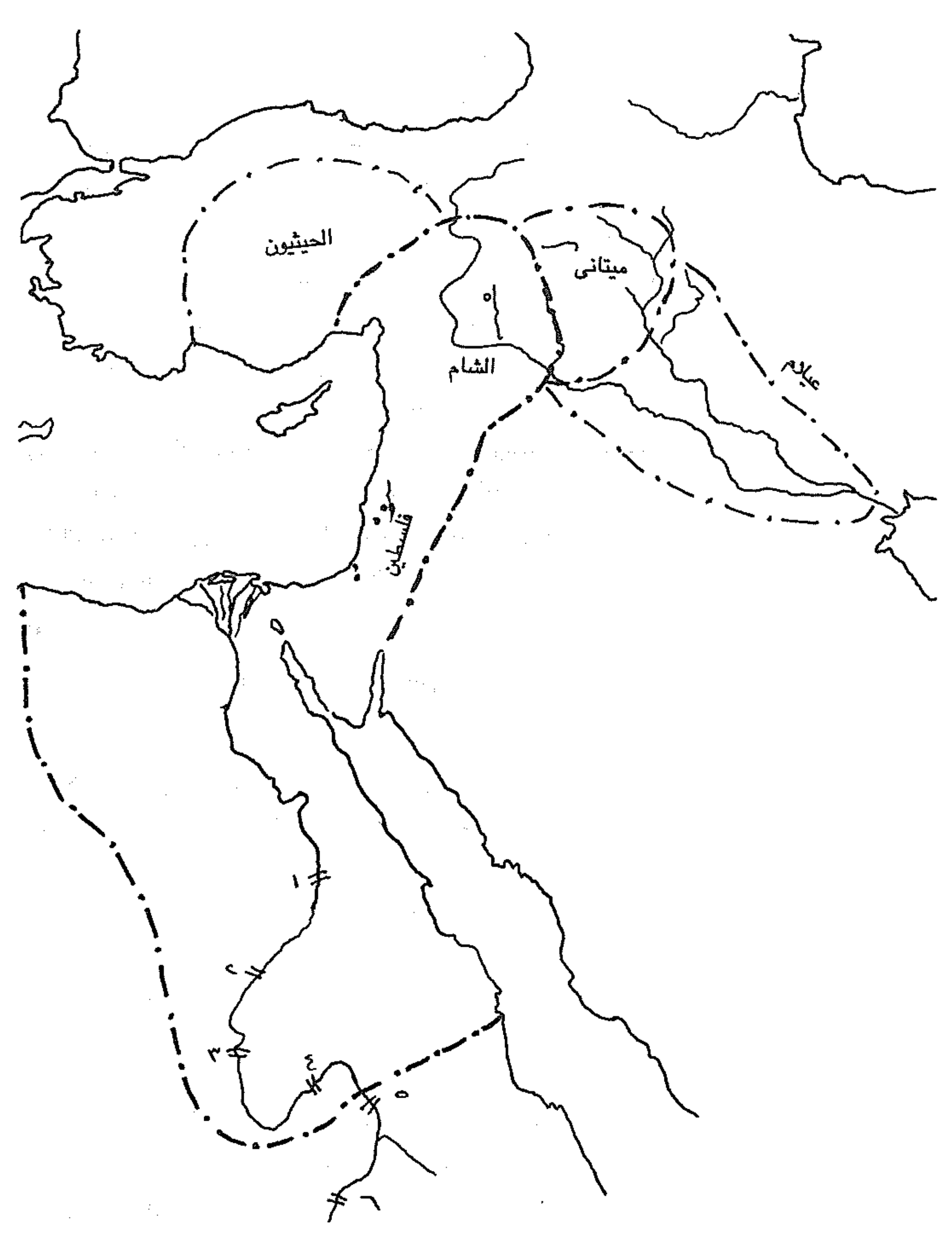
تولى الحكم وحافظ على الامبراطورية التى آلت إليه .

تحوتمس الرابع :

كانت مصر ودولة ميتانى هما المسيطرتان على الشرق الأدنى القديم . ثم ظهرت أطماع الحيثيين – دولة خاتى – التى قامت فى آسيا الصغرى . وبدأت تستولى على أجزاء من ميتانى حتى أطلت على الفرات الأعلى من شمال سوريا . ورأت مصر وميتانى أن توثيق الروابط بينهما هو خير وسيلة لدرء هذا العدو . وكانت المصاهرة السياسية هى الوسيلة لذلك . وخطب تحوتمس الرابع لنفسه ابنة ملك ميتانى . ولم يكن ذلك شيئا جديدا على البيت المالك المصرى . فقد سبق أن تزوج تحوتمس الثالث ثلاث زوجات آسيويات . إلا أنهن كن دائما فى منزلة الزوجات الثانويات . إلا أن الجديد أن تحوتمس الرابع جعل من زوجته الميتانية زوجة رئيسية فى قصره. ولما أنجب ابنه أمنحتب الثالث . خشى هذا الأخير أن يعيبه أن أمه ميتانية . فادعى هو وأنصاره أن « آمون » أنجبه منها بنفسه – أو من روحه بعد أن اختارها وارتضاها لذاته . وصوروا هذا الإدعاء فى لوحات فنية كبيرة بمعبد الأقصر .

أمنحتب الثالث :

ورث أمنحتب الثالث إمبراطورية واسعة . شملها السلم . وتماسكت أطرافها بفضل السياسة الحكيمة التى وضع أسسها تحوتمس الثالث . وكان المال يتدفق إلى خزائن فرعون من أنحاء



شكل ١٠٢ – اتساع الامبراطورية المصرية

فى عهد تحوتمس الثالث

الإمبراطورية فينفق منه الكثير على الإصلاح وبناء القصور والمعابد . مما أحدث رواجا فى كل طبقات الشعب . وبانت مظاهر الترف فى كل نواحى الحياة . كما حدث بعض التراخى فى إرسال الحملات الحربية . وكان أمنحتب الثالث مولعا بالصيد . ويروى أنه قتل فى أثناء حكمه ما لا يقل عن مائة أسد . وتزوج من سيدة شهيرة هى الملكة « تى » ابنة الكاهن « يويا » كبير كهنة الإله « مين » إله أخميم . وأنشأ لها بركة جميلة للنزهة . وعاش معها فى ترف ونعيم . وعم الرخاء فى عصره . يشهد بذلك جدران مساكن الأشراف التى كانت محلاة بالنقوش الجميلة والأثاث المطعم بالعاج والمرصع بالأحجار الكريمة . والأوانى الذهبية والفضية التى كانوا يستعملونها فى الطعام والشراب . وبالطبع فإن مظاهر الترف فى القصور الملكية كانت أوضح وأعظم . وكان لهذا الترف الشديد أثر فى تكوين شخصية ابنه أمنحتب الرابع وهو أخناتون .

وزاد أمنحتب الثالث كثيرا من معابد طيبة . فبنى على الشاطىء الشرقى للنيل إلى الجنوب من معبد آمون بالكرنك معبدا خاصا للإلهة « موت » زوج الإله « آمون » وحفر إلى جواره بحيرة مقدسة . وبنى معبدا آخر للإله آمون فى الأقصر . ثم وصل هذا المعبد ومعبد الكرنك بطريق على جانبيه تماثيل حجرية لكباش جاثية . بين أرجلها تماثيل صغيرة للملك وهو المسمى طريق الكباش . وعلى الضفة الغربية للنيل شيد معبدا هائلا . لم يبق منه إلا تمثالين أقامهما تجاه مدخله أحدهما يمثله ملكا للشمال والآخر يمثله ملكا للجنوب . يعرفان بتمثالى ممنون .

وكانت تقام احتفالات مبالغ فيها بالمعابد الضخمة . ويجىء الفرعون فى المراكب الذهبية وحشد من الكهنة والأثرياء . وكانت تغلق عليهم بوابة المعبد الضخمة فكان الأهالى العاديون لايستطيعون شهود هذه الاحتفالات . وكان الملك يُنظر إليه نظرة تقديس . فلم يكن يسمح لعامة الشعب بالتقدم نحو الفرعون أو الاقتراب منه . وهذا أوجد نوعا من الانفصام بين الشعب فى ناحية والملك وآلهته فى ناحية أخرى . وبحث عامة الشعب عن آلهة تكون أقرب منالا . فعادوا لعبادة الحيوان وخاصة عجل أبيس . كما كان هذا التباعد مساعدا على تقبل الناس لدين جديد فيما بعد .

وفى عهد أمنحتب الثالث زادت الروابط بين مصر والشام وبلاد الميتان – أصهاره – واستضافت مصر بعض معبودات الميتان فى معابدها . فكانت تماثيلها توضع بجانب تماثيل الآلهة المصرية . وزادت المصاهرة بين البيتين المالكين . وكتب ملك ميتان إلى صهره – أمنحتب الثالث – يطلب منه زوجة مصرية . ولكن أمنحتب الثالث ظل ضنينا بأميرات بيته . وأعطاه واحدة من سيدات القصر .

ولما استنام أمنحتب الثالث إلى حياة الرفاهية وجنح إلى السلام بدأ الحيثيون يثيرون القلاقل على الحدود الشمالية . واستمالوا الحكام الأموريين الذين كانوا موالين لمصر فى بيروت وصور

وصيدا وعكا وحول نهر العاصى (شكل ١٠٣) وحرضوهم على التمرد على مصر وفى نفس الوقت كان هؤلاء الولاة يرسلون رسائل كاذبة إلى فرعون يعربون فيها عن ولائهم لمصر .

وبدأت إمارات سوريا وفلسطين فى التمرد . وساعدهم فلول الهكسوس والعابيرو الذين خرجوا معهم عند طردهم من مصر . ولما رأى أمنحتب الثالث ذلك بدأ يتخوف من بنى إسرائيل المقيمين بمصر . فالعابيرو أحد فصائلهم . وزاد من احتياطاته حتى لايفاجأ بتمردهم عليه.

وتمرد من من حكام الأموريين . حاكم يسمى « ريب آدى » استولى على المنطقة من الساحل حول ميناء جبيل (بيبلوس) وإن ظل على إظهار ولائه لمصر . وتمرد حاكم آخر على حوض نهر العاصى هو « عبدو عشرتا » أو « أشرتا » احتل قطينا وحماة . وخلفه ابنه عزيرو الذى انتهج نفس السياسة وبدأ يستهين بالجنود المصريين وهاجم ريب آدى حاكم منطقة جبيل وحاصره بتحريض من الحيثيين . وكان يبعث رسائل إلى فرعون مصر – أمنحتب الثالث – يدعى فيها خضوعه له ويقول : أنا خادم الملك وجرو بيته . وأحرس أرض أمورو كلها من أجل مولاى وسيدى ! فى حين كتب – ريب آدى – إلي الفرعون قائلا : كان حكام كنعان إذا رأوا جنديا مصريا ولوا الأدبار . أما الآن فإن أبناء « عبدو عشرتا » يستخفون بالمصريين ويهددوننى بأسلحة فتاكة .

وفى منطقة فلسطين حدث نفس الشىء . فقد تمرد حاكم مدينة شكيم Shechem وهاجم مدينة جزر Gezer وتعاون مع قبائل العابيرو وسمح لهم بدخول المدينة . وأرسل إلى أمنحوتب الثالث رسالة يقول فيها : إلى الملك مولاى وشمسى . أنا خادمك والتراب الذى تطأ عليه . أجثو لدى قدميك سبعا وسبعا . وهل إذا طلب الملك أن أضرب قلبى بخنجر فهل أخالف أمر مولاى* .

واستمرت خطابات النفاق هذه تصل إلى أمنحتب الثالث ومن بعده أمنحتب الرابع (أخناتون). ويصدقانها لعدم رغبتهما فى الحرب . مما أدى فى النهاية لضياع هذه الأقاليم من حوزة مصر.

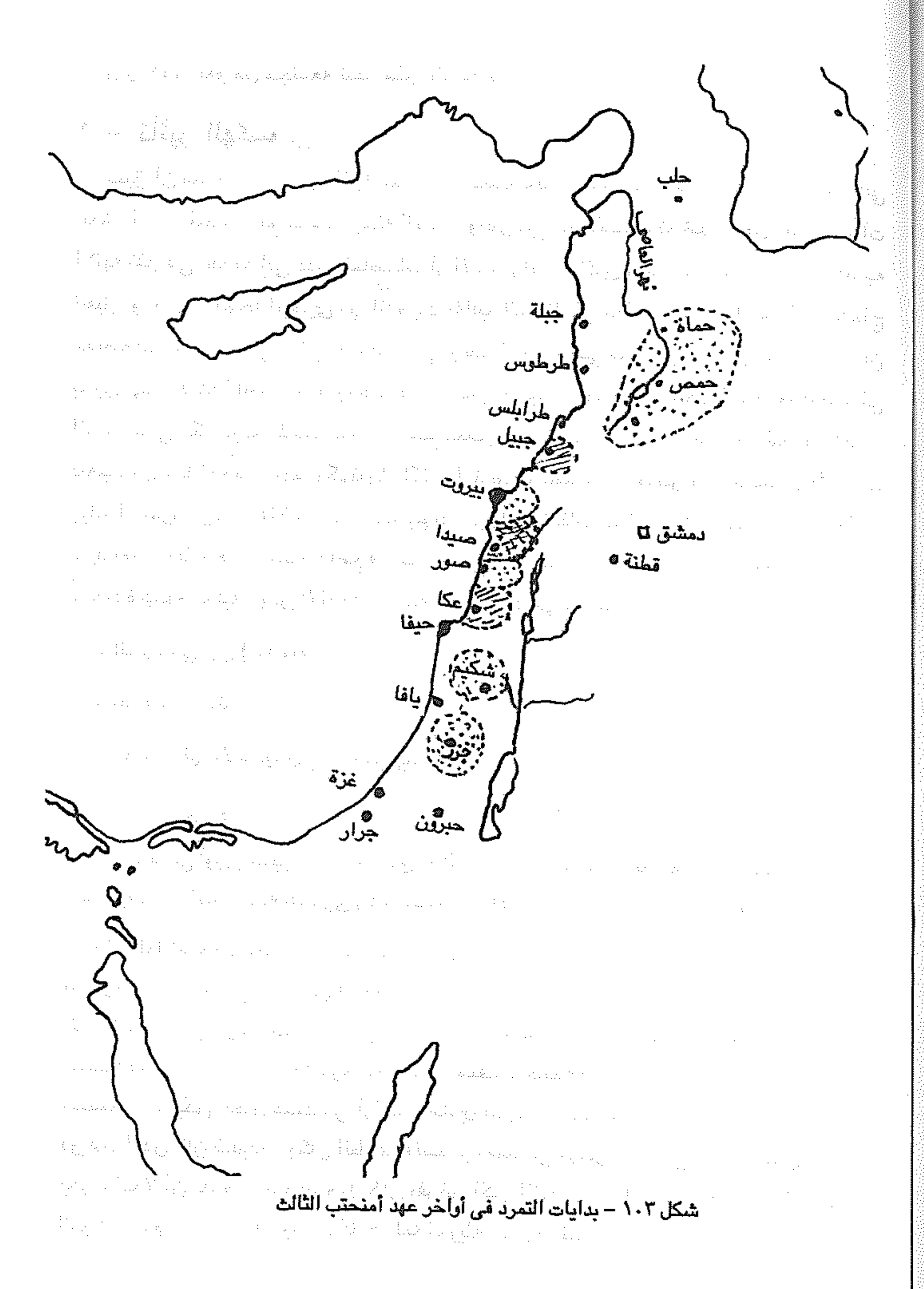
تأثير الأوضاع السياسية في الديانة المصرية :

يمكننا أن نذكر عدة عوامل كان لها أثر فى عقيدة المصريين الدينية فى ذلك الوقت :

١ – الهكسوس .
٢ – الإنفتاح السياسى فى عصر الامبراطورية .
٣ – التباعد بين الفراعنة والشعب .
٤ – وجود بنى إسرائيل فى مصر .

---

* الشرق الأدنى القديم . د . عبد العزيز صالح . جـ ١ ص ٢٤٠ .



شكل ١٠٣ – بدايات التمرد فى أواخر عهد أمنحتب الثالث

ومن هذه العوامل مجتمعة ظهر **فكر التوحيد** .

١ - تأثير الهكسوس :

سبق أن شرحنا فى الجزء الأول ص ٦١ - كيف تعددت الآلهة فى مصر القديمة ووصلت إلى العشرات بل المئات . ثم جاءت مرحلة التمييز والترجيح بين الآلهة . ثم ظهرت آلهة المدن وبدأت الآلهة تقل فى عددها إلي عدد المقاطعات أو الأقاليم التى تتكون منها مصر وهى ٢٢ فى الوجه القبلى و ٢٠ فى الوجه البحرى ثم اندمجت أقاليم الشمال فى مملكة الدلتا . وأعقب ذلك اندماج مقاطعات الصعيد فى مملكة واحدة . ثم توحد القطران فى مملكة واحدة . وكان المتوقع أن يكون لهذه المملكة الواحدة إله واحد ولكن - على مايبدو - كان نفوذ الكهنة قويا ورغبتهم فى الإبقاء على مكاسبهم المادية شديدة . فلم يعملوا على دمج الآلهة فى إله واحد للبلاد كلها - فبقيت كل مقاطعة لها إلهها وكهنتها ولكنها ارتبطت بعضها مع بعض برباط عائلى على نمط رباط الأسرة . وبقيت المقاطعات كتقسيم إدارى ولكنها كانت أيضا مناطق نفوذ دينى . ولكن نفوذ بعض المقاطعات ساد وتعاظم فى فترات مختلفة وظهرت آلهة كبيرة وإن ظلت الآلهة الأخرى موجودة كآلهة محلية . ومن الآلهة الرئيسية التى ظهرت فى مراحل زمنية مختلفة كان :

« آتوم » فى أون (هليوبوليس)

« بتاح » فى منف .

« تحوت » فى الأشمونين (هيرموبوليس)

« آمون » فى طيبة .

ثم ساد فى أون (هليوبوليس) « حور » إله السماء . صاحب العينين العظيمتين : الشمس عينه اليمنى . والقمر عينه اليسرى وكان تحوت هو الإله القمرى . و « نوت » هى إلهة السماء .

وتخيلوا النجوم أبناء لإلهة السماء « نوت » تلدهم فى المساء وتبتلعهم فى الصباح . أما النجوم التى لاتختفى فهى من أتباع « أوزريس » و « إيزيس » وقد ذكرنا قصتهما فى الجزء الأول (ص ٦٨) . ولاهوت الأشمونين (ص ٧٢) و « آمون » . روح الهواء فى طيبة . الذى ذاع صيته فأصبح إلها رئيسيا . وحينما كانت منف عاصمة الدولة جعل كهنتها « بتاح » إلها رئيسيا . لم يكن الحال كذلك فى أراضى مابين النهرين . فقد قلنا إن الصراع والحروب بين دويلات المدن كان شديدا . وكان الطرف المنتصر يعمد إلى فرض إلهه على الدويلة المهزومة . ولم يكن مقبولا أن يفرض عدة آلهة بل كان يفرض أكبر الآلهة على الخصم . وكان الاندماج بين الدويلات يتم عن طريق الحرب . وكانت آلهة الدويلة المهزومة تتوارى وتختفى .

وقد ذكرنا فى الجزء الثانى (ص ٢٠٠) الآلهة المتعددة فى العراق القديم . وكان أهم الآلهة يجمعها ثالوث الكواكب : « سين » إله القمر و« أوتو » إله الشمس و« عشتار » إلهة الزهرة . ومعهما « مردوك » رب المشترى . وعلى العموم كانت الآلهة فى دول منطقة الشرق الأدنى القديم أقل عددا من آلهة المصريين .

وسبق أن ذكرنا (ص ٤٦٠) أن الهكسوس فى أول قدومهم مصر جلبوا معهم آلهتهم « سوتخ » و« بعل » والإله « رشب » وكلها آلهة حرب وتجاهلوا « رع » إله المصريين . ولكن بعد مضى وقت فى الحكم . ولمحاولة التقرب إلى المصريين . اتخذوا من معبود شرق الدلتا « ست » إلها رسميا لهم باعتباره إله حرب يشبه « بعل » و« رشب » . وهكذا اطلع المصريون على عقائد الدول الأخرى وكيف أنها تجعل من معبود واحد إلها رئيسيا للبلاد .

ولكن اتخاذ الهكسوس للمعبود « ست » إلها رئيسيا لم يفلح فى كسب ود المصريين لما لهذا الإله من سمعة سيئة نظرا لما فعله فى أخيه أوزريس (الجزء الأول ص ٦٨) فعاد المصريون لعبادة الآلهة المتمثلة فى هيئة الحيوانات مثل عجل أبيس والبقرة وغيرها . وفى الواقع أن هذه المعبودات لم تكن قد اختفت تماما . بل إن الناس – كما كان الحال قديما – كانوا مايزالون يقومون بتربية الثيران المقدسة – العجل أبيس فى ممفيس وهليوبوليس و« الكبش » فى منديس. المهم أن عدد الآلهة فى مصر تقلص كثيراً عما كان قبل الهكسوس .

٢ – دخول المعبودات الآسيوية في الديانة المصرية :

منذ زمن طويل كان لمصر صلات مستمرة بالبلاد الواقعة إلى شمالها وشرقها . وكان التجار الآسيويون يفدون إلى مصر للتجارة فى التوابل والعطور والأقمشة الصوفية . وكانوا يجلبون معهم آلهتهم لتحميهم . ولكن كانت الحضارة المصرية تنظر إلى هؤلاء القادمين على أنهم بدو أو رعاة . أقل حضارة – لذلك لم يقتبس المصريون شيئا من ديانتهم .

ولكن بعد طرد الهكسوس وتكوين الامبراطورية المصرية فى آسيا زادت الصلات مع هذه البلدان . وكان للمصاهرات السياسية أثر كبير فى إيجاد نظرة ندية عند التعامل مع هذه الدول . فمما لا شك فيه أن الزوجات الآسيويات كن يعبدن آلهتهن الأسيوية . ويتأثر بها الأبناء . كذلك كان التجار الآسيويون يفدون ومعهم آلهتهم ويقيمون لفترة طويلة فى مصر وقد تحدث مصاهرات بينهم وبين المصريين .

كل ذلك جعل الآلهة الآسيوية معروفة لدى المصريين . ووضع لبعضها تماثيل فى المعابد بجوار تماثيل الآلهة المصرية . وبمضى الوقت اندمجت بعض هذه الآلهة الآسيوية فى الآلهة المصرية التى تشبهها فى طبيعتها* .

١ – الإلهة « عشتار »

وقد سبق ذكرها (الجزء الثانى ص ٢٠٣) بصفتها إلهة الزهرة . أخت الشمس وابنة « سين » إله القمر . وهى ذكر فى الصباح يشرق على الحروب والمذابح وأنثى فى المساء . ترعى الحب والشهوة . ومن أسمائها « عشتارت » و« عشتر » أو« عشتورة » وصوروها واقفة على ظهر أسد أو برأس لبؤة وواقفة على عربتها (شكل ١٠٤) وقد تم الربط أو المؤاخاة بينها وبين الإلهة المصرية « سخمت » فى منف . باعتبار أن كلا من الإلهتين تجمع بين الحب والحرب . وحين مرض أمنحتب الثالث سأل صهره « توشراتا » ملك « ميتانى » أن يعيره تمثال « عشتار » لأنه سبق لها أن مارست قوتها فى مصر فى مناسبة مماثلة . وقد أجابه توشراتا إلى سؤاله وبعث الإلهة . وطلب من أمنحتب الثالث تمجيد الإلهة حتى تمنحهما معا الحماية والعمر الطويل كما طلب إليه أن يردها بعد ذلك بقلب سمح !

٢ – الإلهة « عنات »

وقد اكتسبت شهرة عامة فى مصر أثناء الدولة الحديثة لأنها إلهة حرب وتمثلها الرسوم (شكل ١٠٥) وهى تمسك بيدها درعا وفى الأخرى بلطة حرب . وبعد مدة تمصرت « عنات » بحيث أصبحت إلهة مصرية بحتة واضطرت لنبذ تلك الطبيعة الوحشية . فنراها فى معبد فيلة تكتسب طبيعة مسالمة وتتحول إلى « إيزيس » . وكانت ابنة الملك تسمى « بنت عنات » . وأصبح لبعض هذه الآلهة عُبَّادها . فنراها فى شكل ١٠٦ تتقبل القرابين من عائلة صاحب المقبرة . كما صورت « عنات » و« عشتار » بمثابة درعين للملك وعشتار تقود حصان العربة مع الملك .

٣ – الإله السورى « رشبو » أو « رشف »

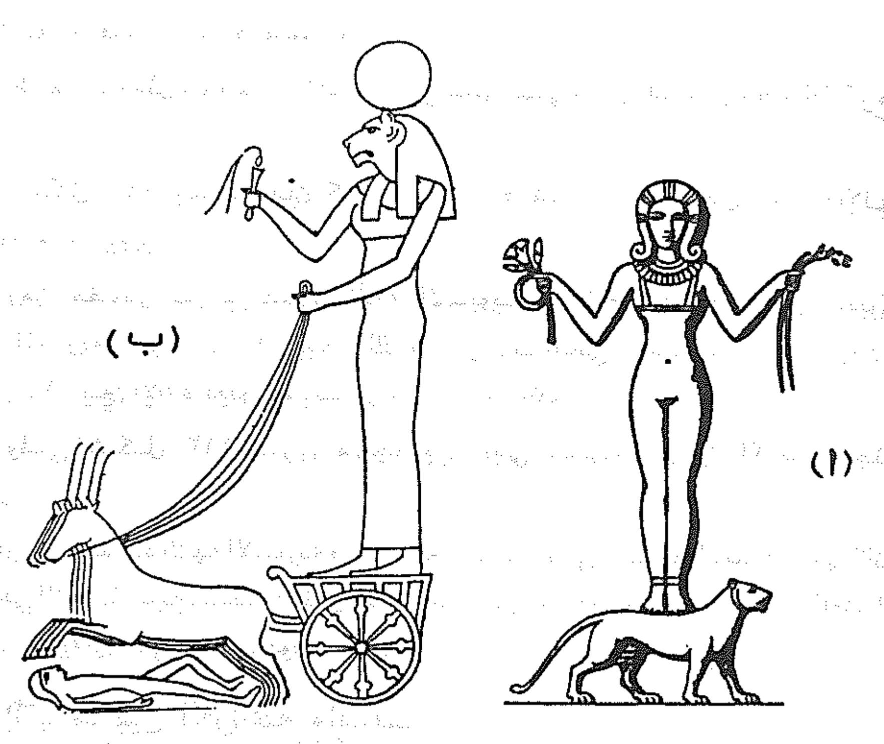
دخل أيضا إلى مصر وارتبط بـ« ست » فى الدلتا الشرقية . وصُوِّر « رشبو » كمحارب مسلح بحربة ودرع . وهو يلبس تاجا لمصر العليا . والتاج يزينه قرنان من الأمام (شكل ١٠٧) . وامتزج أيضا بـ« سوتخ » إله الهكسوس – ونرى ذلك فى شكل ٩٤ ص ٤٦١ إذ يبدو تشابه التاج والقرنين اللذين يزينانه.

٤ – « بعل » (شكل ١٠٨)

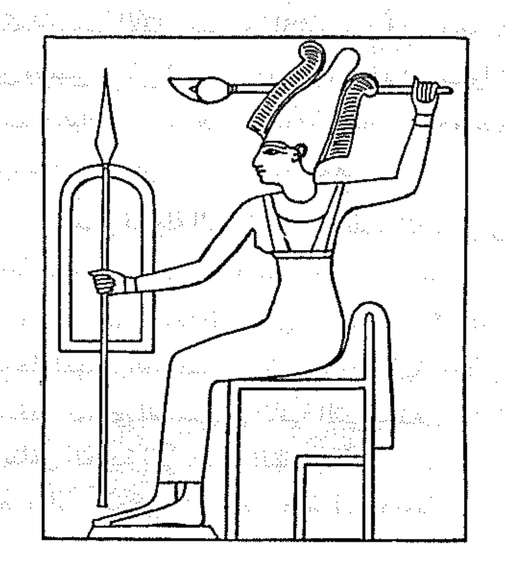
ومعناه « السيد » فى اللغة السامية . ويقرن بـ« ست » أيضا . وهو إله العواصف والزوابع . وهو يقف على الجبال ويزأر فى السماء . و« بعلت » معناها السيدة – وهى زوجة « بعل » .

---

* مصر والشرق الأدنى القديم . د . نجيب ميخائيل إبراهيم . جـ ٦ ص ١٣٢ .



شكل ١٠٤ – الإلهة « عشتار » واقفة على ظهر أسد (أ) وهى نفسها « عشتارت » برأس لبؤة واقفة على عربتها (ب)



شكل ١٠٥ – الإلهة « عنات » تمسك بيدها درعاً . وفى اليد الأخرى بلطة حرب

٥ - الإلهة « قدش » أو « كدش »

لها طابع سمح مثل « حاتحور » المصرية وهى مثلها تدعى « عين الشمس » أو « ابنة رع » (شكل ١٠٩) .

٦ - شكل ١١٠ يجمع بين كل من الإله « شد » و « حورس » والإلهة الأجنبية « متريوى » .

٧ - ومن مظاهر تكريم بعض الآلهة الآسيوية أن نرى بعضها يعطى البركة للملوك المصريين . وشكل ١١١ يبين الملك « سنوسرت الثانى » أمام **الإله « سوبد »** . وشكل ١١٢ يبين الإله **« ديدون »** يحتضن « تحوتمس الثالث » .

٨ - وفى شكل ١١٣ نرى مزجا بين أبى الهول . وبين الأسد المجنح العراقى .

وكان مركز عبادة الآلهة الأسيوية هو منطقة منف . وأعطى بعضها الأوصاف التى كانت تطلق على الآلهة المصرية وسلطت الأضواء على عدد محدود من الآلهة المصرية بدلاً من العشرات أو المئات من الآلهة التى كانت موجودة من قبل .

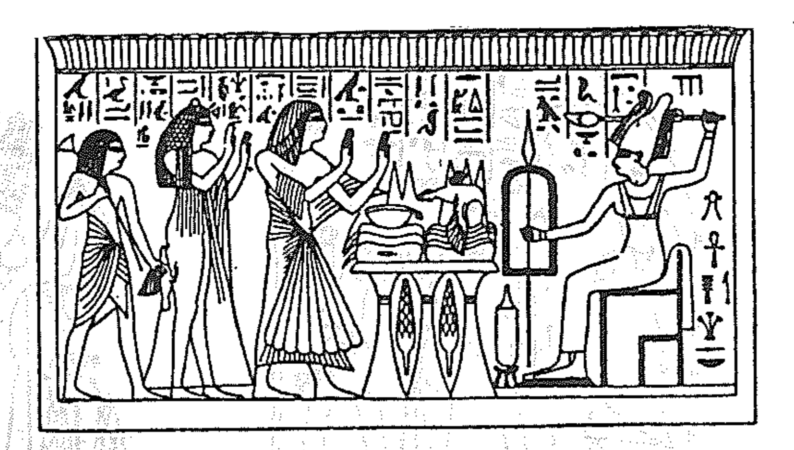
٣ - التباعد بين الفراعنة والشعب :

كان المصرى فى عهد الدولة القديمة والوسطى حريصا على المساهمة فى الأعياد الدينية والاحتفالات بتتويج الملوك . فكان يخرج مع أسرته لمشاهدة المواكب ويصلى صلوات الحمد والشكر وينشد الأناشيد مع المنشدين . فى بعض هذه الاحتفالات كان الملك يركب القارب المقدس ويسير به فى النيل وحوله مراكب الأشراف والأمراء . والشعب على الجانبين يهلل فرحا . وكانت الأعياد الدينية عديدة . منها أعياد الآلهة « حور » و« مين » و« شوكر » و« أنوبيس » و« سيشات » و« عيد أوزريس » وغيرهم * .

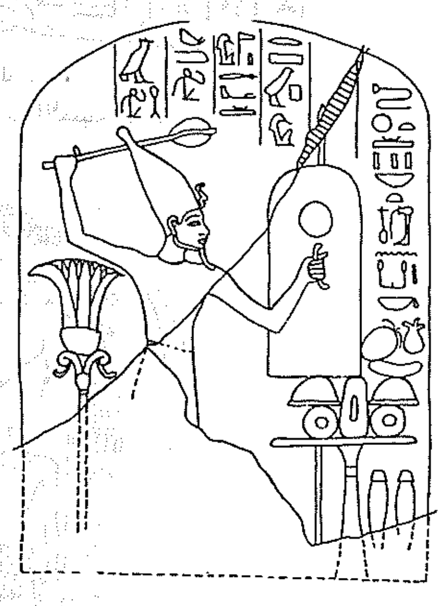
أما فى عصر الدولة الحديثة - بعد طرد الهكسوس - وقيام حكم دكتاتورى مطلق مصبوغ بالصبغة العسكرية فقد تباعد الفراعنة عن الشعب . وبدلا من أن يكون الملك ابنا للإله - أصبح بعض فراعنة الدولة الحديثة يدّعون الألوهية . كما أن أعياد التتويج والأعياد الدينية أصبحت تقام داخل المعابد الضخمة لايحضرها إلا الكهنة والأمراء والأشراف . ولم يكن الشعب يستطيع مشاهدتها . ورأى الشعب أن الآلهة التى يحتفل بها الفراعنة والكهنة قد أصبحت بعيدة عنه . فبدأ الناس العودة إلى عبادة آلهتهم المحلية سواء كانت فى هيئة حيوانية أو نصف بشرية . وأصبح هناك مايمكن أن نسميه **« فراغا دينيا »** .

---

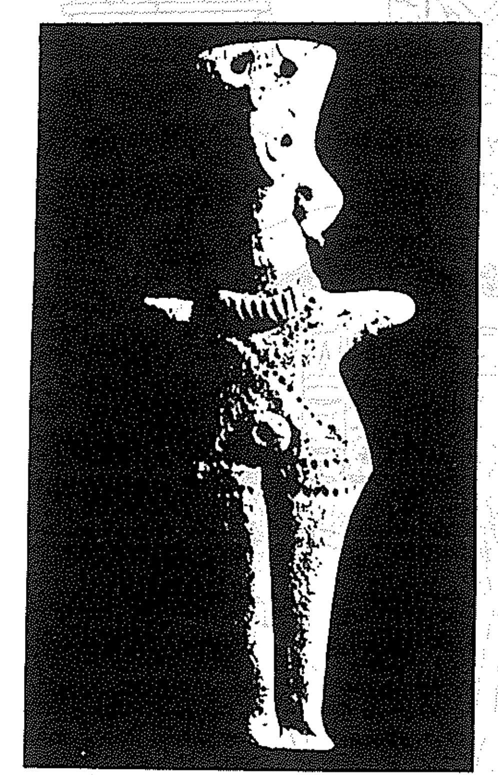
* تاريخ الحضارة المصرية . محمد شفيق غربال . ص ٢٥٦ .



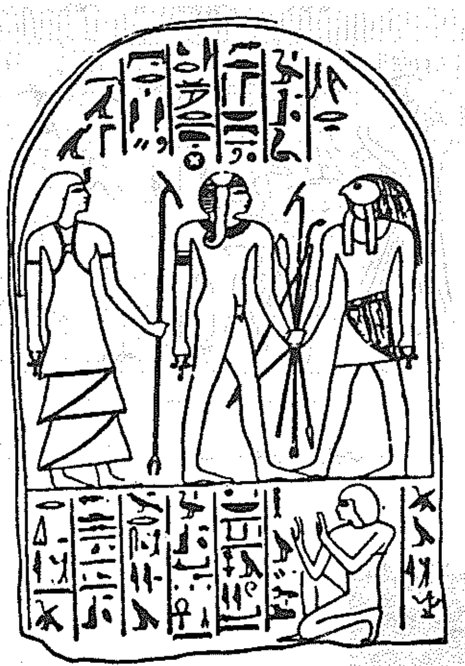
شكل ١٠٦ – الإلهة « عنات » تتقبل القرابين من صاحب المقبرة وزوجته .



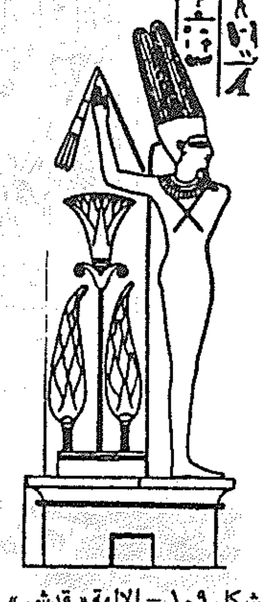
شكل ١٠٧ – الإله « رشبو » .



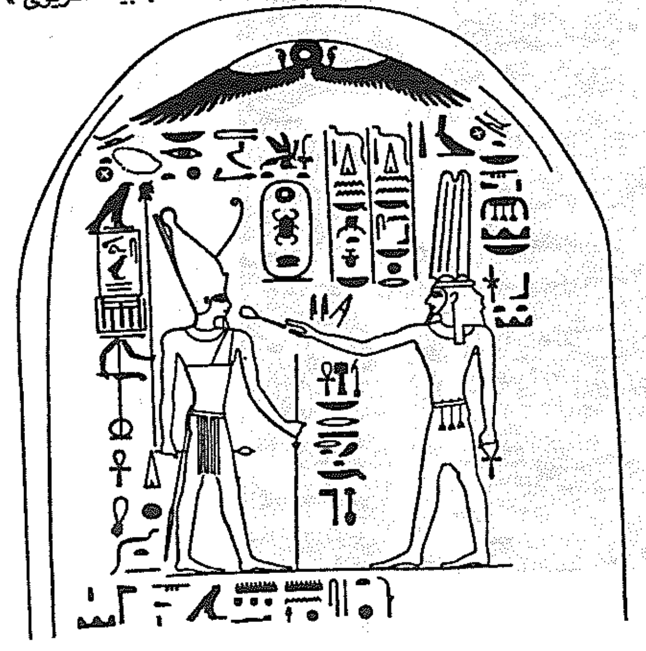
شكل ١٠٨ – الإله « بعل » .



شكل ١١٠ – الإله « شد » بين كل من الإله « حورس » والإلهة الأجنبية « متريوى » .



شكل ١٠٩ – الإلهة « قدش » .



شكل ١١١ – الملك سنوسرت الثانى أمام الإله « سوبد » .

شكل ١١٢ – الإله « ديدون » يحتضن

الملك تحوتمس الثالث .

شكل ١١٣ – المزج بين أبى الهول

والأسد المجنح العراقى .

٤ - بنو يعقوب (الأسباط) :

هذا هو العامل الرابع الذى نعتقد أن كان له أثر على العقيدة الدينية فى مصر فى هذا الوقت . ولو أن علماء التاريخ لايذكرونه إطلاقا ولايشيرون إليه مجرد إشارة عابرة . ومن الغريب أنهم يقبلون بتأثر الديانة المصرية بآلهة الدول الآسيوية التى تبعد آلاف الكيلومترات . ويتجاهلون تأثرها بعقيدة بنى يعقوب وهم يعيشون مع المصريين على نفس الأرض وبين ظهرانيهم . وبينهم معاملات يومية . ولايستبعد أن تكون حدثت مصاهرات بين الجانبين . إذ أن نشأة علاقات عاطفية بين الجانبين . أمر يتمشى مع الطبيعة البشرية ولا بد قد حدث . ومع المصاهرات يحدث تبادل للأفكار والثقافات. ومن الغريب أيضا أنهم يقبلون بالتأثر من جانب واحد . أى تأثر بنى يعقوب بأفكار المصريين - مع أن المعلوم أن تبادل التأثير هو الشىء الطبيعى - وهو مانسمية فى عصرنا « تبادل الثقافات » فما دامت حضارتان تتجاوران . فلابد أن تتأثر كل واحدة بالأخرى .

وقد تأثر بنو يعقوب بالحضارة المصرية فى عدة نواحى :

١ - أخذوا من الفكر المصرى فكرة تجسيد الإله .

٢ - أخذوا عن المصريين عبادة العجل .

٣ - أخذوا عن الكهنوتيه الفرعونية كثيرا من الطقوس والمراسم الدينية وملابس الكهنة .

وكانت النقطتان الأوليان نكوصا خطيرا عن مبدأ التوحيد الحقيقى الذى جاءت به الملة الحنيفية التى جاء بها جدهم الأكبر إبراهيم وسار عليها أبوهم يعقوب - عليهما السلام . فجاءت التوراة فيما بعد بنصوص صريحة تنهى عن عبادة الأصنام وتدعو لإعادة التوحيد إلى أصله الصحيح . أما النقطة الثالثة . فكانت نقطة شكلية . ولعل التوراة قد أقرتها بل وزادت عليها أشياء أخرى سيجىء تفصيلها فى الجزء الرابع إن شاء الله .

لهذا يكون لزاما علينا أن نقبل **بتأثر المصريين بالأفكار التى كان يدين بها بنو يعقوب** . وكان يوسف عليه السلام أول من أفصح عن عقيدته هذه . حدث ذلك وهو فى السجن إذ قال لصاحبيه :

« إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب . ماكان لنا أن نشرك بالله من شىء . ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس . ولكن أكثر الناس لايشكرون . ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ماتعبدون من دونه إلا

أسـمـاء سميتموهـا أنتم وآباؤكم . ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله . أمـر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لايعلمون » . (٣٧ - ٤٠ يوسف)

هذا ما أوجزه القرآن الكريم . ولابد أن يوسف عليه السلام قد أوضح لصاحبى السجن ماهو هذا الإله الذى يعبده . وبين لهم فساد عبادة الأصنام .

ولا شك أن الذى نجا منهما - وهو ساقى الملك قد تأثر بهذا الكلام . فقد صدق يوسف فى تفسير حلمه ونجا . و مادام قد صدق فى هذه الجزئية فهو صادق فى باقى ماحدث به . ولعله بدأ يسائل نفسه عن هذا الإله الواحد الذى يدين به يوسف . وتفتحت عيناه على الحقيقة التى كانت غائبة عنه - وعن غيره أيضا - وهى أن الناس هم الذين أعطوا هذه الأصنام أسماءها إذ هى أعجز عن أن تسمى نفسها بنفسها . فكيف يعتقد الناس أنها هى التى ترزقهم ويعبدونها ! ولعله آمن بدين يوسف . ولا شك أن الساقى - قد أفضى بما فى نفسه لآخرين واقتنعوا بأقواله.

كذلك مما لاشك فيه - أن يوسف عليه السلام . وقد تولى أمر مصر - ما كان يترك مناسبة يعبر فيها عن فكر التوحيد الذى يدين به إلا اغتنمها . ولاشك أن تأثر به عدد من الناس .

وقد سبق أن ذكرنا (ص ٤٩٠) ما تقوله التوراة : واختار له الملك (ليوسف) اسم صفنات فعنيح . وأعطاه أسنات بنت فوطى فارع كاهن أون زوجة . ولا شك أن يوسف عليه السلام جعلها تؤمن بدينه . وشب ولديه منسى وأفرايم على ديانة التوحيد . ولا شك أن إخوة وأخوات زوجته كانوا يسألونها عن هذا الدين الجديد الذى آمنت به . كذلك لايخلو الأمر أن مقابلات يوسف مع حميه - كاهن أون . كان يتخللها تطرق إلى المسائل العقائديه ومناقشات حولها . ولكن من المؤكد أن يوسف عليه السلام كان يتمسك بمبدأ « **لكم دينكم ولى دين** » فهو لم يكن مكلفا بدعوة المصريين إلى دين إبراهيم الحنيف . ولكن التأثير كان لابد أن يحدث .

ومن المؤكد أن الكهنة لم يكونوا سعداء بما يحدث . ولكن لم يكن بوسعهم أن يفعلوا شيئا . فالهكسوس يسيطرون على البلاد . ويوسف هو كبير وزرائهم أو نائب الملك . وهو قد ترك لهم أرضهم فلم يضمها إلى ملكية الملك كما فعل مع أرض باقى المصريين . وكما جاء فى التوراة (إصحاح ٤٧ تكوين) : فاشترى يوسف كل أرض مصر لفرعون . إذ باع المصريون كل واحد حقله لأن الجوع اشتد عليهم . فصارت الأرض لفرعون . إلا أن أرض الكهنة لم يشترها . إذ كانت للكهنة فريضة من قبل فرعون . فأكلوا فريضتهم التى أعطاهم فرعون . لذلك لم يبيعوا أرضهم (انظر صفحة ٥٣٢) .

لم تكن ديانة الهكسوس هى التى تقلق الكهنة . فإن كانوا قد قللوا من قدر « آمون » ورفعوا شأن « ست » وجعلوه إلها رسميا للدولة فهو إله مصرى . كما أنهم لم يعمدوا إلى إلغاء باقى الآلهة . وحتى لو كانوا قد جعلوا أحد الآلهة الآسيوية هو الإله الرسمى فإن ذلك لايقلقهم . إذ أن مراكز الآلهة كانت كثيرا ماتتغير تبعاً لقوة أو ضعف المقاطعة التى تتمركز فيها عبادتها . وإن كان « سوتخ » أو « ست » هو كبير الآلهة الآن فسيأتى وقت تعود لـ « آمون » أو « بتاح » أو غيره . مكانتهم . ولكن ماكان يقلقهم حقا هو هذه الدعوة التى جاء بها هؤلاء الذين وفدوا على الهكسوس : يوسف وإخوته . والتوحيد الخالص الذى ينادون به ونبذ عبادة الأصنام جميعا . وعبادة الله مباشرة بدون واسطة . وهنا مكمن الخطر – إذ يهدد بزوال سلطانهم ونفوذهم ويهدد بضياع كل مايتمتعون به من خيرات !

لاشك أن الكهنة قد ارتاحوا بعض الشىء عند وفاة يوسف . وظنوا أن دعوة التوحيد سيخفت صوتها . ولكن الأسباط . وهم إخوة يوسف ظلوا على تمسكهم بالتوحيد . بل وظل الوحى ينزل عليهم بتعاليم الله . وقد سبق ذكر ذلك فى ص ٥٢٠ :

« وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط » .

(من الآية ١٦٣ النساء)

وبعد طرد الهكسوس . وضع أحمس العيون حول بنى يعقوب ليرصد أى اتصالات بينهم وبين الهكسوس (ص ٥٤٤) . ولا شك أن ذلك قد أسعد الكهنة . فهذا الحصار الأمنى – سيحد من تسرب فكرهم الدينى.

وفى عهد تحوتمس الثالث كانت الإمبراطورية المصرية فى أوجها وزادت المصاهرات السياسية فى عهد تحوتمس الرابع من تسرب الآلهة الأسيوية إلى مصر . ولكن ذلك لم يكن ليقلق الكهنة كثيرا . فإن تماثيل الآلهة الآسيوية كانت توضع بجانب الآلهة المصرية فى المعابد . ولا يهم أن تقدم القرابين لهذا أو ذاك . ولكن الكهنة شعروا بوجود « فراغ دينى » عند المصريين بعد أن باعدت الدكتاتورية العسكرية بين الفراعين والشعب وبالتالى انصرف المصريون عن الآلهة التى يعبدها الفراعين . صحيح أن البعض عاد إلى عبادة الحيوانات . ولكن بعضا آخر قد افتتن بالفكرة القائلة بأن الإله لابد أن يكون إلها واحدا . وخشى الكهنة أن يبدأ المصريون فى الإيمان بإله بنى يعقوب . ولعل الكهنة قد أفضوا بمخاوفهم هذه إلى الفراعين . وكان لابد من عمل شىء !

نحو التوحيد :

كان من نتيجة **العوامل** السابقة أن عمد ملوك الأسرة الثامنة عشرة إلى توحيد الآلهة بحيث يكون هناك إله **واحد للمملكة** كما كان للهكسوس إله واحد رئيسى فأصبح **« آمون رع »** إله

المملكة وأكبر إله فى البلاد . ومجدوه وسموه ملك الآلهة . كان « آمون » يرمز إلى الهواء . أما « آمون رع » فهو إله الشمس . خالق كل شيء . هو الوحيد . هو « أب الآلهة الذى صنع الناس وخلق الحيوانات . وفرق الناس حسب ألوانهم . خرج الناس من عينيه . والآلهة من فمه . وآمون رع هو عائل كل الحيوانات الحية . هو يسهر فى الليل حتى ينام الناس أجمعون . رئيس كل الآلهة التى تقعى الآلهة عند قدميه كالكلاب . له قلب محب . يستجيب حينما يدعى . ويسمع دعاء ذلك الذى فى كرب وضيق » .

وجاء فى **أنشودة** لتمجيد **آمون رع** :

المجد لك أى شمس النهار . الذى خلقت الكائنات الحية . وتكفلت بما يحتاجون إليه . أنت أيها الصقر الكبير ذو الريش المختلف الألوان . الذى ولدت لتنشيء نفسك . الذى جئت من نفسك بنفسك دون أن تولد . أيها الراعى القوى الذى يقود قطعانه . أنت ملجؤهم الذى تحفظ عليهم حياتهم .

ونشيد آخر يرجع عهده إلى أمنحتب الثانى يقول :

الحمد لك يا آمون رع . أبو الآلهة . المسيطر فى طيبة . ثور أمه . وأهم من فى حقله . واسع الخطى . سيد كل من فى الصعيد .

أعظم من فى السماء . وأكبر من فى الأرض . رب كل ماهو كائن . الذى يستقر فى كل شيء . لاشبيه له فى الطبيعة . ثور تاسوع الآلهة . ورئيس كل المعبودات .

رب الحق . أب الآلهة ... ويستمر النشيد يعدد ماخلقه آمون رع . ثم يختمه قائلا : ذو الإرادة القوية . وصاحب الطلعة العظيمة . من كثرت لديه الأقوات . ويخلق مايعيش عليه الناس .

الابتهال لك يامن خلقت الآلهة . ورفعت السماء . وبسطت الأرض .

وهكذا تم اختصار الآلهة التى كانت تصل إلى العشرات إلى عدة آلهة رئيسية . وفوقها إله واحد هو أبو الآلهة .

إلا أن هذا - فى نظر أمنحتب الثالث لم يكن كافيا . ولعله أراد أن يركز على إله واحد - يضاهى به الإله الواحد عند بنى يعقوب - فراح يفتش فى المعتقدات القديمة وفى برديات الكهنة . فوجد أن لاهوت هليوبوليس (الجزء الأول ص ٧٣) يقول بأن الإله « أتوم » بدأ وجوده الذاتى من فوق قمة تل أزلى انبثق بدوره من الماء الأزلى . ثم نفخ الإله فى يده وبزق من فمه الإله « شو » وقرينته « نفتوت » واللذين نسلا من خلال ولادة طبيعية بقية المعبودات . ويعزى إلى « آتوم » الذى يعنى اسمه فى اللغة المصرية القديمة « الكامل » أو « المطلق » ثلاث صفات رئيسية :

١ – هو الموجود بذاته . الذى أتى إلى الوجود بنفسه .
٢ – وهو الأقدم أو الأزلى .
٣ – كما أنه « الأوحد » . المتفرد بذاته وسيد الجميع .

أدرك أمنحتب الثالث أنه عثر على ضالته . فإن « آتوم » هو الإله الأزلى القديم وسيد الجميع . ولكنه مرتبط بخلق الألهة والمعبودات الأخرى . فليوجد إله قريب من « آتوم » . ليكون له صفة الأوحد . ولا يكون له ارتباط بآلهة أخرى . وهكذا وجد « آتون » . وبحث عن رمز لإلهه الجديد . كان « رع » يصور على هيئة إنسان له رأس صقر فوقه قرص الشمس . فرمز لـ « آتون » بقرص الشمس فقط .

وفى هذا يقول فرويد* : وفى عهد أمنحتب الثالث كانت عبادة إله الشمس فى إرتفاع . ربما كحركة مضادة ومعارضة لنفوذ آمون فى طيبة الذى طبقت شهرته الآفاق . وتم إكتشاف اسم قديم لإله الشمس هو آتون أو آتوم .

ولكن مايقوله فرويد ليس مقنعا . فقد كانت الآلهة تتعايش بعضها مع بعض منذ أقدم العصور ويتعايش كهنتها بعضهم مع بعض كذلك وكلٌ راض بمنطقة نفوذه .

« آتوم » فى هليوبوليس . ثم انضم إليه « حور » إله السماء .
و« بتاح » فى منف .
و« تحوت » فى الأشمونين .
و« آمون » فى طيبة .

وظل هذا التعايش بين الآلهة حوالى اثنا عشر قرنا من الزمان . فلا بد أن شيئا ما قد جدَّ . وأفسد هذا التعايش . وأوجد الرغبة فى تسييد إله واحد . وسيقودنا الفكر إلى أن هذا الشىء الذى جد هو التوحيد الخالص الذى كان يدين به بنو يعقوب . فظهور « آتوم » لم يكن – كما يقول فرويد – كحركة مضادة ومعارضة لنفوذ آمون فى طيبة . بل الأرجح أن يكون **« كحركة مضادة ومعارضة لما كان يدين به بنو يعقوب »** .

وفى عيد الماء سمى أمنحتب الثالث قاربه الملكى « آتون يشع » . كما أضاف إلى أوصافه الملكية لقبا جديدا هو : الكاهن الأكبر للإله السعيد فى أفقه . فى اسمه حرارة آتون .

ومن الأناشيد التى وضعها أمنحتب الثالث ليتعبد بها – نشيد تندمج فيه الآلهة كلها فى إله واحد : « رع » و« بتاح » و« آتون » و« حورس » . يقول النشيد :

* سيجوند فرويد . موسى مصرياً . مترجم . ص ٣٤ .

- التسبيح لك . إنك « رع » الجميل كل يوم .

الذى يطلع فى الصباح دون توقف .

- أنت « بتاح » وقد كونت أعضاءك .

أنت معطى الحياة الذى لم يولد .

- المجد لك أى شمس النهار « آتون » .

الذى خلقت كل الكائنات الحية وتكفلت بما يحتاجون إليه .

- أنت « حورس » المسن فى وسط آلهة السماء .

ذلك الذى تصعد نحوه أصوات البهجة فى شروقه وغروبه معا .

وهكذا كانت بداية الاتجاه نحو توحيد الآلهة فى إله واحد .

لم يرزق أمنحتب الثالث من زوجته المصرية إلا بالبنات . وبعد أن تقدم فى السن رزق بولد . هو أمنحتب الرابع (اخناتون) ثم بأخت هى باكت آتون .

وفى أواخر أيام أمنحتب الثالث بدأ الحيثيون يثيرون المتاعب . فقد أغاروا على دولة الميتان . وأرسل توشراتا ملكها - ووالد زوجة أمنحتب الثالث رسالة إلى فرعون يطلب مساعدته فى صد المغيرين . ولكن أمنحتب الثالث لم يرسل نجدة . وبدأ نفوذ مصر يتقلص . وقد سبق أن ذكرنا تمرد عبدو عشرتا وابنه عزيرو حتى دانت لهما تقريبا كل أراضى نهر العاصى بما فيها قطنة وحماة .

ومات أمنحتب الثالث عن عمر يناهز الخمسين عاما (عام ١٣٦٧ ق.م تقريبا) .

أمنحتب الرابع = أخناتون

عندما تقدم العمر بأمنحتب الثالث كانت زوجته هى التى تدير الحكم تقريبا بمفردها . وشب أخناتون فرأى أمه هى المسيطرة على أمور البلاد . وكانت الوصيفات والجوارى يملآن القصر . فنشأ في بيئة نسائية لا تشجع على الخشونة أو الحياة الصعبة التى تتطلبها الحروب .

عامل ثان كان له تأثير فى تكوين شخصية أخناتون . ذلك أن القصر الملكى فى طيبة كان على حافة الصحراء عند سفح التلال الغربية . وكانت تحلى سقوفه وأرض قاعاته مناظر تمثل حياة الحيوان والطيور والأسماك . وتحيط بالقصر حدائق نبتت بها زهور جبلية . وإلى جانبه بحيرة للنزهة تحيط بها الأشجار الآسيوية . كان يستطيع هناك أن يجلس الساعات الطوال يتأمل محاسن الطبيعة . ويزيد ضوء الشمس من إيقاظ اللذة والشعور بجمال الطبيعة . وهكذا كان الأمر وكأنّ الطبيعة تتآمر على خلق إنسان تشربت نفسه بحبها .

جعل هذان العاملان من أخناتون . شخصا رقيق العاطفة . ضعيف البنية . محبا للسلام . تملأ ذهنه أفكار عن علاقة المرء بالألوهية والطبيعة. زد على ذلك أنه أصيب فى طفولته بأمراض أثرت على تكوينه الجسمانى فكانت رأسه ضخمة . ووسطه رفيع وأكتافه ضيقة . وبطنه متدلية وساقاه رفيعتان .

وتولى أخناتون الحكم وهو صغير السن ، فى سن ١١ سنه . وتزوج من الأميرة نفرتيتى . وفى مراسم التنصيب وصف نفسه بأنه : المحبوب من « آمون رع » . سيد السماء . الكاهن الأكبر للإله السعيد فى سمائه . **فى اسمه حرارة « آتون »** .

وتوجس كهنة آمون بعض الشيء لإضافته هذه الفقرة عن « آتون » وإن هدأ من مخاوفهم وصفه لنفسه بأنه المحبوب من « آمون رع » .

وبدأ أخناتون فى الدعوة إلى مذهبه على مهل لإدراكه مدى الصدمة التى سيشعر بها الناس لو فاجأهم بدين جديد كل الجدة . لذلك فإنه فى البداية أوحى إلي الناس أنه لايطلب منهم غير العودة إلى معبود أجدادهم الأولين « رع حار آختى » وهو نفسه « آتوم » أو « آتون » . وكان الناس يسمونه « الوالد » . ولم يهتم كهنة « آمون » بذلك الأمر . على أساس أن الإله الأكبر « آمون رع » راسخ فى قلوب الناس وأنه لا غزو ولا نصر إلا بمساعدته ومؤازرته للجيوش .

وبعد سنوات قليلة من بدء حكمه أقام معبدا جديدا لعبادة « آتون » في طيبة . قلعة آمون . وكان هذا أمرا صدم شعور الكهنة والمهيمنين على عبادة « آمون » إله العاصمة الرسمى . وظن الكهنة أن « آتون » سيكون واحدا من الآلهة الأخرى التى كانت تجاور « آمون » فى طيبة . مثل « بتاح » و « مين » وعشرات الآلهة الصغار . وكانت تقاليد عبادة آمون تستلزم أن يقوم الملك – فى مواكب أعياده – حين يخرج من معبد آمون – بزيارة بتاح وغيره من الآلهة الصغار .

ثم أعلن أمنحتب الرابع (أخناتون) أن « رع » ماهو إلا النور الذى فى الإله « آتون » . وبذلك وضع « آتون » فى مرتبة أعلى من « رع » . ولفظ « آتون » من معانيه « الكوكب » وهو يعنى كوكب الشمس . وله دلالة لاهوتية تعنى الإله المتحكم فى هذا الكوكب .

وفى السنة السادسة من حكمه . بدأ أمنحتب الرابع يتعصب للإله الجديد « آتون » فغير اسمه إلى « أخناتون » . ثم صدر أمر بتسمية العاصمة طيبة باسم « مدينة إلتماع آتون » . ثم مالبث أن أمر بإغلاق معبد « آمون » ثم بتحريم عبادته . ثم بمحو اسمه من الآثار جميعا . من تماثيل البلاد ومن قمة مسلة حتشبسوت ومن تماثيل آبائه وأجداده . بل إنه رأى أن كلمة « آلهة » أصبحت لاتتمشى مع أهدافه . فأمر بمحو هذه الكلمة . لأن الإله الواحد لا يجمع .

ثم لم يكتف بأن حذف إسم « آمون » فقط . بل أمر بحذف أسماء الآلهة الأخرى . ففى معبد « بتاح » فى الكرنك شوهت أسماء « بتاح » و« حاتحور » . وفى بهو أعمدة تحتمس الثالث فى الكرنك شوهت أسماء جميع الآلهة : أوزريس – إيزيس – حورس – أتوم – منتو .. وغيرهم وحتى العقاب « نخبيت » المحلق فوق الملك لحمايته . شوهت صورته ومحى كذلك اسم التيس المقدس .

ثم فى بردية يدَّعى أخناتون أنه أخذ مبادىء الأتونية عن طريق الوحى الإلهى عن أبيه : كلمات أبى العظيم الذى لقننى روحها . لقد وعيتها فى قلبى وأصبحت مكشوفة أمام وجهى وفهمتها .

وجاء فى خطاب موجه إليه من رئيس وزرائه : إن آثارك ستبقى خالدة كالسماء . لأن خلودك كخلود « آتون » فيها . إن آثارك ستبقى بقاء السماء . أنت الواحد الأحد لآتون فى معرفة خططه . أنت قدت الجبال وممراتها الخفية . رعبك يسرى فى وسطها كما يسرى فى قلوب البشر . هى تستمع إليك كما يستمع البشر .

وهذا معناه أن أخناتون كان ينظر إليه على أنه نبى هذا الدين الجديد .

ثم أدرك أخناتون أن طيبة لم تعد حقلا صالحا لبذر تعاليمه . كما أن جوها الملبد بالمؤامرات والمسمم بالأفكار التى ينشرها كهنة آمون – لا يساعد على انتشار دعوته لإلهه الجديد . ففكر فى بناء مدينة جديدة يكرسها لإلهه . وتكون فى نقطة تتوسط مصر جميعـا . فبناها وسماها « أخيتاتون » وهى تل العمارنة . وعند اختيار مكان المدنية أعلن أن هذا المكان هو المكان الذى اختاره الإله لإقامة العاصمة الجديدة . فهذا المكان لم يكن – من قبل – لأى إله أو إلهة . أو ملك أو ملكة . ورفع يديه إلى السماء وقال : سأبنى أخيتاتون لـ « آتون » أبى فى هذا المكان . ولن أبنى أخيتاتون أقرب إلى الجنوب أو إلى الشمال أو إلى الشرق أو إلى الغرب . ولن أتجاوز علامات الحدود لا فى الشمال ولا فى الجنوب . ولن أبنى كذلك فى الغرب . ولكنى سأبنى فى الشرق حيث تظهر الشمس . أى فى المكان الذى أحاط نفسه بالجبال فيه . وإذا قالت لى الملكة : إنه توجد فى مكان آخر موقع أجمل من هذا . فلن ألتفت إلى كلامها . وإذا قال لى المستشارون أو أى شخص آخر مثل ذلك . فلن أستمع إلى كلامهم. ويعدد الملك المبانى الكبرى التى يرديد إقامتها فى المدينة – للإله . ولنفسه . وللملكة . ولايفوته أن يعلن أنه حين يموت هو أو الملكة فإنه يجب أن يدفنا فى أخيتاتون .

وكانت المساحة التى اختارها للعاصمة الجديدة هى ٢٠ كم طولا و ١٣ كم عرضا . وبدأ بأن أقام حول المدينة عددا من اللوحات ليحدد حدودها . ولايزال باقيا منها ١٤ لوحة تكاد تتفق نصوصها جميعا . وفيها يقول : فى السنة السادسة فى الشهر الرابع من الفصل الثانى .

اليوم الثالث عشر . فى هذا اليوم جاء جلالته إلى « أخيتاتون » التى أسماها « أفق آتون » . جاء فى عربة ليؤسسها كأثر لآتون كأمر أبيه « آتون » ....

ثم أمر الحاشية والعظماء وقواد الجند بالانتقال معه إلى العاصمة الجديدة . وفى العام الثامن تم الانتقال الرسمى إلى « آخيتاتون » حيث كان قد تم بناء القصر الملكى والمعابد والهياكل . وكذلك « مارو آتون » الجنة الزهراء . وبها الحدائق والبحيرة والحديقة المائية (شكل ١١٤) *.

وهكذا كانت العاصمة الجديدة وسط دائرة مقدسة . وحبس نفسه داخل هذه الدائرة ليبشر بدينه الجديد . وكتب يقول إنه سيعيش فيها إلى الأبد . فكتب : « حتى يَسْوِد البجع . ويبيضَّ الغراب . وحين تروح الجبال وتجىء . وحين يسرى الماء نحو المنبع » . أى بمعنى حتى يحدث المستحيل أو « حتى يدخل الجمل فى سَمِّ الخياط » .

إعتقد أخناتون أن الدعوة لإله واحد يعبده الجميع ويتساوى الكل عنده يمكن أن تربط بين مصر وأتباعها وجيرانها برباط أوثق من التبعية السياسية بالحرب أو بالمصاهرة . ولكن القادة العسكريين خافوا من ضياع سمعة البلاد وتفسخ أملاكها .

واقترح البعض أن أخناتون قد استهدف أساسا تسييد ديانة عالمية تحظى بالقبول من كل شعوب الامبراطورية وذلك بتجريدها من الملامح المصرية البحتة . خاصة فى مصاف الأساطير . ولكن ليس هناك من دليل على محاولته التبشير بديانته لشعوب خارج حدود مصر . فيما عدا بنائه لمدينة فى النوبة سماها « أخت آتون » وبنى بها معبدا لآتون . وبناء مدينة أخرى فى سوريا . اندثرت ولم يعرف مكانها . ولعل أخناتون ظن أن دعوة الحب والسلام ستنتشر وحدها لرغبة الناس كلهم فى الحب والسلام .

وكان أخناتون يمثل « آتون « على هيئة قرص الشمس . تمتد منه أشعة تنتهى بأيد بشرية تمسك بعلامة الحياة . وكأنها تهب الحياة للمتعبدين (شكل ١١٥ ص ٥٨٦) وفى العام الخامس من حكمه . سمى أخناتون نفسه :

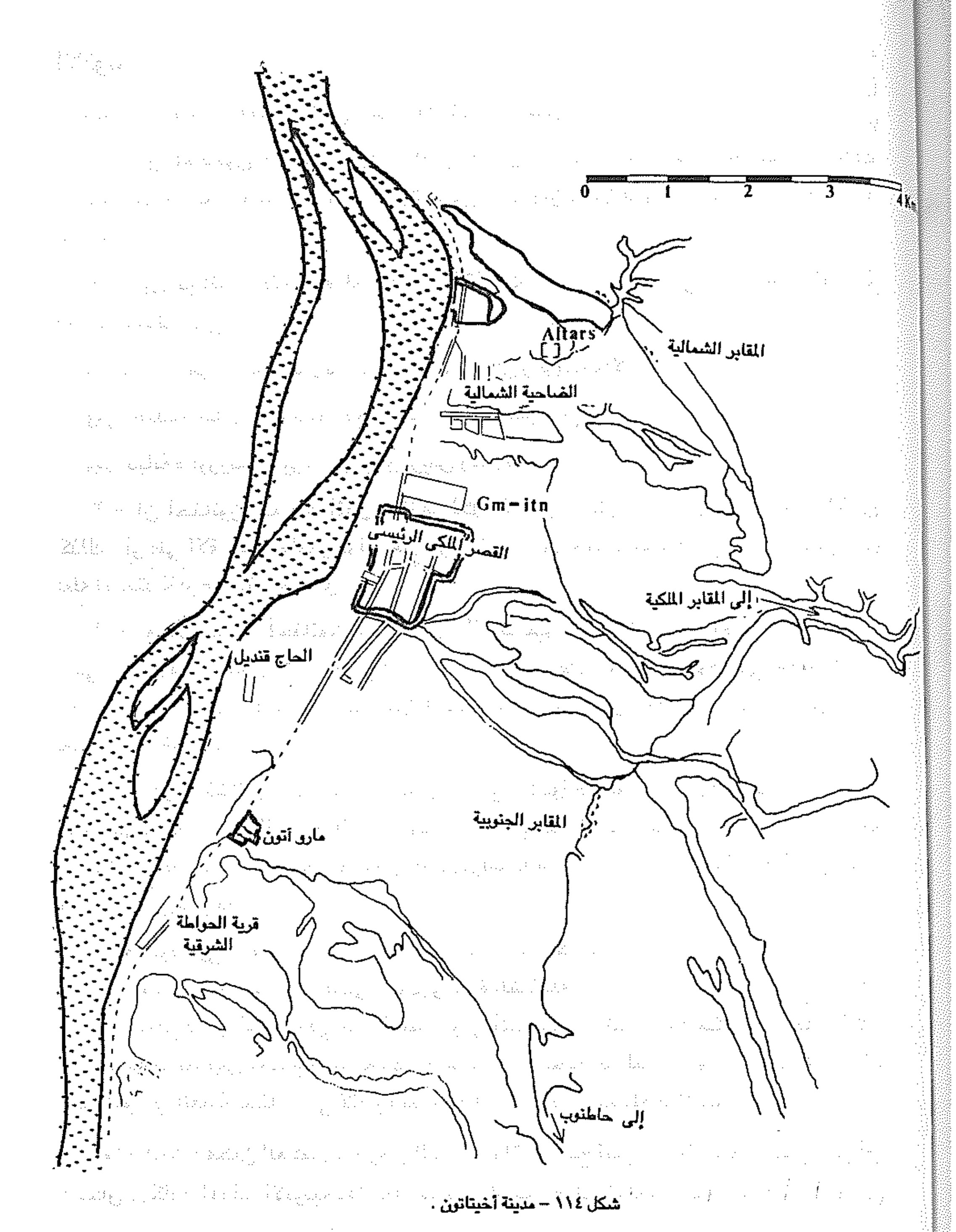
« ذلك الذى يحيا من الحق » .

وبعد ذلك بعام أطلق على نفسه :

« ذلك الذى يعرف اسم آتون » .

فجعل من نفسه نبى هذا الدين الجديد . نبى الإله آتون « وهو الذى من واجبه أن يُبصِّر بجمال آتون . ويمجِّد اسمه . وينشر في البلاد المعرفة بخالقه . ويجعل اسمه واضحا للناس لأن أباه الإله تجلى له وأعطاه وحده حق فهم أفكاره وقوته » .

* كتاب أخناتون . تأليف دونالد بدفورد . ص ١٤٣ .



شكل ١١٤ – مدينة أخيتاتون .

نقلا عن كتاب « أخناتون » تأليف دونالد بدفورد .

الآتونية :

يمكننا أن نلخص الأسس التى قام عليها المذهب الأتونى فى الآتى :

١ - **إن أخناتون قد نَزَّه إلهه « آتون » عن أن يكون له شبيه** أو نظير . ولذلك لم توجد أى تماثيل أو أصنام فى شكل إنسان أو حيوان ترمز له وهذا بعكس جميع الآلهة السابقة .

٢ - **إن ديانة « آتون » لم تعرف التثليث** الذى اعتدناه فى الديانات المصرية القديمة . فمثلا نرى :

فى ديانة « آمون » نجد أسرة إلهية مكونه من آمون والزوجة والإبن خونسو .

وفى عقيدة « بتاح » يوجد بتاح وسمخت الزوجة ونفرتم الإبن .

وفى ديانة « أوزريس » يوجد أوزير وإيزيس وحورس الإبن.

٣ - إن أخناتون جعل **« آتون » إلها لكل الناس** . لكل المصريين وللشعوب الأخرى كذلك . أو على الأقل هذا ماكان يراود فكره ويتمناه . وإن لم يمتد مذهبه إلى خارج مصر . بل لعله لم يمتد خارج مدينة أخيتاتون !!

٤ - **محت دعوة أخناتون كثيرا من الأساطير** التى كانت مسيطرة على العقول حتى ذلك الوقت . والتى كانت تعطى أوزريس مكانة غير عادية فهو المتصرف فى أقدار الناس بعد وفاتهم . كذلك فقد قوض القول بأن النيل إنما هو أوزريس . وأرجع الفيضان إلى قوى طبيعية يسيطر عليها « آتون » .

٥ - **إن أخناتون قد قضى على جميع أنواع الشعوذة والدجل** التى كان يمارسهما الكهان فى الديانة القديمة . وقام بحملة لإبطال ما كان يتم من ممارسات سحرية لضمان براءة الميت أمام محكمة الموتى التى يرأسها أوزريس . إذ أن كل ذلك قد ألغى . كما ألغى دور أوزريس تماما .

٦ - **الوضوح** . وهنا يظهر الاختلاف الكبير بين كل من « آمون » و« آتون » .* فإن معنى « آمون » هو المختبىء الذى لايرى والقوة الشاملة لكل شىء . وكان يرسم على شكل إنسان . ويقع قدس أقداسه فى آخر المعبد . وفى أشد أجزائه ظلمة . ولايمكن بلوغ هذا المكان إلا بعد تأدية طقوس معقدة لايسمح بها إلا لأشخاص محدودين للغاية . وكان هيكل الإله يُلَفّ أثناء المواكب العامة بغطاء حتى لاتقع أعين بقية الناس عليه . ويحمله كهنة مختارون .

أما « آتون » فكان العكس . فقرص الشمس ذاته واضح للعيان . ولا يمكن حجبه عن أى إنسان . وكانت المعابد الآتونيه مفتوحة للسماء . لتيسر عبادة الإله فى صراحة واضحة بمنأى

---

* دور مصر فى تكوين الحضارة . فؤاد محمد شبل. المكتبة الثقافية . عدد ٢٧٠ . ص ٥٧ .

عن الغموض . وليس لآتون شكل إنساني البتة . وانحصرت صلة « آتون » بالهيئة الإنسانية في أن الأشعة التي تتدلى من قرص الشمس تنتهي بأيد تقدم رمز الحياة إلى العابدين . وليس لآتون صنم . بل هو أثيري الهيئة . تبدو عظمته للناظرين في قرص الشمس .

٧ - **التوحيد** : نلاحظ في « الآتونية » اتجاه إلى فكرة التوحيد . إذ يوجد إله واحد . وكل ماكانت تقوم به جمهرة الآلهة الأخرى ينفرد هذا الإله بعمله . لقد خلق نفسه بنفسه . وهو يعاود كل صباح خلق نفسه . وفي خلال النهار يجوب السماء . ولكنه لايذكر كيف يحدث ذلك. وظل التعبير القديم مستعملا . وهو يقول إن الشمس « تسبح » في السماء . ولكن لم يعد يُذكر شيء عن السفينة أو التمثيلات الأخرى التي كانت الديانة القديمة تقول بها . ولا يذكر أيضا في أي مكان تستقر الشمس ليلا . هي ربما تكون في العالم السفلي . ولكن ليست هناك إشارة صريحة إلى العالم الآخر .

ولم تعد للإله صفات مشتركة مع الصور القديمة لإله الشمس « آتوم » أو « حوراختي » أو « خبري » وحتى الإسم فقد تحور إلى « آتون » . الذي يمثل كوكب الشمس نفسه . وهو الموزع الأكبر للنعم على كل من يحيا . والحقيقة - هي أن العقيدة الآتونية كانت عقيدة سهلة . واضحة ومفهومة. فهي تفوق بكثير تعدد الآلهة الذي كان موجودا من قبل وكان يدعو إلى الارتباك والحيرة . ولم يكن الكهنة يستطيعون إعطاء إجابة واضحة عن سبب تعدد الآلهة. وإذا كان الإله يستطيع عمل كل شيء فلماذا يشرك معه آلهة أخرى ؟

٨ - **مملكة الموتى:** لما كانت الديانة الآتونية قد ألغت الآلهة الأخرى . ومن بينها إيزيس . وأوزريس إله العالم السفلي . فلم يعد هناك محكمة الموتى المكونة من ٤٢ قاضيا . وليس هناك محاكمة أموات. وإن كانوا يضعون على المومياء الجعل الكبير الذي كان يساعد الميت في القبر . كما كان ينقش على القبر دعاء لآتون . كما استمر التقليد بوضع التماثيل الصغيرة التي كان عملها هو خدمة الميت في العالم السفلي . وما زاد هو أن كتبوا عليها دعاء لآتون . واحتفظوا بالتابوت الحجري الكبير بزواياه الأربع . ولكن بدلا من الإلهتين « إيزيس » و « نفتيس » الممتدتي الأذرع علامة على حمايتهما للميت . حل محلهما إلهة جديدة : هي الملكة !

ولم يذكر شيء عن مملكة الموتى في مجموعة نقوش تل العمارنة. ولم تعد القبور من السعة كما كانت في الماضي . وحتى قبر العائلة المالكة لانراه متسعا اتساعا كبيرا. وكان الملك حينما يتحدث عن تأثيث مقبرته فهو لايتحدث عن « الطيران إلى السماء » . بل يتكل دون مواربة عن « الدفن » . ولا يذكر - كما في الديانة القديمة - أن الميت يتحول إلى روح حية تمثل على هيئة طائر تستطيع الخروج من المقبرة والعودة إليها (الجزء الأول ص ٧٤ وشكل ٢٠) . بل نجد في الآتونية الاعتقاد بأنه حينما تطلع الشمس . فإنها توقظ الميت فيقوم ممتلئا سرورا ثم يغتسل ويرتدي ملابسه . وعند باب المقبرة يصلي للإله. ثم يذهب إلى صالة المعبد الكبرى ليخدم الشمس . ثم يتنزه في الحديقة التي زرعها بنفسه ويشرب الماء على شاطيء بحيرته .

٩ – تعددية من نوع جديد : ولو أن الآتونية فى جوهرها كانت تختصر الألوهية فى إله واحد . إلا أن التعددية تمثلت فيها بشكل آخر. فأصبح هذا الإله الواحد يتجلى على أشكال ثلاثة : *

١ – فهو إله الشمس العام المشترك للعالم كله . الإله الطيب الذى يحب الحق . سيد السماء والأرض . آتون الكبير الحى الذى ينير القطرين .

٢ – بجانبه شكل آخر لإله الشمس كما يعبد فى تل العمارنة « آتون الحى . فى بيت آتون . « أخيتاتون » .

٣ – وأما الشكل الثالث الذى يتجلى فيه الإله فهو الملك نفسه .

لقد كان العرف شائعا – منذ العصور السابقة – أن يُعترف بالملك كإله . ولكن هذه الصفة لم تخرج أبدا عن مجال الألقاب والعبارات التقليدية . ولكن فى الأتونية التى طردت أو ألغت جميع الآلهة الأخرى . فقد أصبح فى استطاعة الملك أن يعبد كإله . وكما أن الشمس تخلق نفسها كل صباح . فإنها كذلك تلد يوميا ابنها الملك « وهى تلد بغير انقطاع ابنها العظيم » والشمس تجدد باستمرار طبيعته الإلهية .

هل كان أخناتون نبيا ؟

يقول هيرودوت إن المصريين كانوا أول الموحدين فى العالم . وأن العالم أخذ فكرة التوحيد عنهم . وكثيرون يتبنون مثل هذا الرأى ويقولون إن أول خطوة نحو توحيد حقيقى لإله الكون هى الخطوة التى حققها الملك الفرعونى أخناتون . الذى ثار على عبادة الشمس « رع » مقررا أن الجدير بالعبادة هو القوة المستترة وراءها وجعل قرص الشمس مجرد رمز لتلك القوة .

ويتمادى البعض فى هذا الاتجاه فيقول إن أخناتون كان « نبيا » من الأنبياء الذين أشار إليهم القرآن الكريم بقوله :

« ورسلا لم نقصصهم عليك » . (١٦٤ – النساء)

ولسنا فى حاجة إلى جهد كبير لدحض هذه المقولة الأخيرة . فصحيح أن فكرة التوحيد هى أساس المذهب الآتونى إلا أنها تصطبغ بصبغة التجسد باتخاذ قرص الشمس أو القوة الممثلة فى قرص الشمس رمزا للإله « آتون » . وهذا يهدم كونها إحدى الرسالات السماوية .

* ديانة مصر القديمة . أدولف إرمان . ص ١٤١ .

وراح المتشبثون بهذا الرأى يقولون إنه كان يتخذ من الشمس مجرد « قِبلة » له فى تعبده .
ولكن من يراجع نصوص الأناشيد التى كتبها يدرك أنه كان يعنى أن الشمس ذاتها هى مصدر القوة . وهى التى تهب الحياة فهو مثلاً يقول فى الأنشودة الصغرى « وتمتد أذرعك » .. وهذا ينفى أن الأتونية كانت وحيا سماويا وينفى كذلك أن أخناتون كان نبيا .

وهذه فقرات من بعض الأناشيد التى دبجها أخناتون يناجى فيها الإله الجديد بالود والحب والتبجيل .

تجليك فى أفقك بديع . « آتون الحى » أصل الحياة .
أنت إلهى . أنت الجليل . أنت المنير . أنت العلى فوق الأرض .

وكانت الأناشيد تعلن أنه – آتون – عظيم المحبة . وأنه أم وأب لكل من خلق . وله يسبح البشر والحيوان والطير والنبات فيقول :

الزهر ونبت الأرض يتفتح لمرآك . وتتملكه النشوة لمحياك .
والأنعام تتراقص على أقدامها .
والطيور فى أوكارها تطوى أجنحتها وتنشرها .
تسبيحا لآتون الحى خالقها .
الأرض بأسرها عامرة بحبك .
والعشب والشجر يتمايل لمطلع وجهك .
رب أحد دون شريك . برأت الدنيا وكنت فردا .
خلقت البشر والأنعام وكل مايسعى على الأرض بقدم . ويحلق بجناح في الفضاء .
وأقطار سوريا والنوبة وأرض مصر .
وجهت كل فرد فيها إلى موطنه . ودبرت للجميع شئونهم .
فأصبح لكل فرد رزقه . وتعين لكل فرد أجله .
وظلت الألسنة بينهم فى النطق متباينة . والهيئات والألوان متمايزة .

ونشيد أخر يقول :

آتون ياضوء النهار . ياعظيم المجد .
بلدانا نائية تهبها الحياة . وترسل الغيث من أجلها .
يموج الغيث فوق الجبال كالبحر الخضم . ويسقى الحقول بين القرى .
ما أجمل تدبيرك رب الخلود .
فيضان فى السماء لأهل القفار . وحيوان الفلا . ومايدب على قدم .
وفيضان سواه لأرض مصر يأتى إليها من دنيا العدم .

والنشيد التالى يسمى « **الأنشودة الصغرى** » منقولة عن ديفيز * :

شروقلك جميل . أى آتون الحى سيد الأبدية .
أنت مشع وجميل وقوى . حبك عظيم وكبير .
أشعتك تظهر على كل ما خلقت .
أنت تملأ الأرض بحبك . أيها الإله المعبود الذى صنع نفسه بنفسه .
الذى صنع كل أرض وخلق ما عليها . البشر والقطعان والماشية .
والأشجار التى تنمو على الأرض . إنها تعيش حين تشرق عليها .
أنت أم وأب لأولئك الذين خلقت عيونهم .
حين تشرق يرون بك لأن أشعتك تضىء الأرض كلها .
كل القلوب تتهلل حين تراك . حين تشرق كسيد لهم .
أنت تغرب فى الأفق الغربى للسماء .
يرقدون كما يفعل الذين يموتون . ورؤوسهم مغطاة . وأنفاسهم تتوقف .
وحين تشرق فى الصباح **وتمتد أذرعك** . أنت تعطى الضوء . فهناك الحياة .
حين ترسل أشعتك تصبح كل أرض فى عيد .
المغنون والموسيقيون وجمهرة الناس فرحون ببناء معبد فى أخيتاتون .
ذلك المكان الكامل الذى أنت به والذى تقدم به كل الأطعمة الدسمة .
ابنك طاهر يعمل كل مايرضيك أى «أتون الحى » فى مراكبه المعروفة .
كل ماصنعته ظاهر أمامك . ابنك المجتهد يتهلل قلبه فرحا .
أى « أتون الحى » . هناك فرح فى السماء كل يوم . ابنك الذى يرضيك .
ابنك الذى يدعم اسمك . قوتك وجهدك ثابتان فى قلبه .
أنت « آتون الحى » . الأبدية نصيبك .
أنت خلقت السماء البعيدة حتى تشرق فيها وحدك وحتى ترى كل ماصنعته .
أنت هو نفسك وحدك . وكل الحيوانات كائنة بك . تعطى لمخلوقاتك الحياة .
كل الأزهار تزدهر . نباتات الأرض تترعرع عند شروقك .
وكل الماشية تقفز على أقدامها .
وكل الطيور تخرج من أعشاشها . وترفرف فى سرور .
وتدور فى ثناء « آتون الحى » .

* مصر والشرق الأدنى القديم . د . نجيب ميخائيل إبراهيم ، جـ ٢ ص ٢٠٨ .

وعلى العكس تماما من هذه النظرة الإيمانية التى ترى فى إخناتون « نبيا » نجد نظرة إلحادية ترى أن الأديان السماوية ماهى إلا محاكاة لنظرية التوحيد التى اخترعها أخناتون . وكما سبق أن ذكرنا أن **فرويد*** يدعى أن الديانة الموسوية ما هى إلا تطوير للأخناتونية . ثم يجيء العالم « **پرستد** » فيدعى أن مزامير داود مقتبسة من « **الأنشودة الكبرى** » التى وضعها أخناتون للتعبد فى الإله آتون . وقد وجدت الأنشودة كاملة على جدران مقبرة الكاهن « آى » وهو حامل المروحة الملكية (وقد وصل إلى العرش بعد توت عنخ آمون) وننقلها هنا من كتاب الدكتور نجيب ميخائيل ابراهيم** الذى أخذها عن النص العربى للدكتور حسن كمال مترجمة عن « پرستد » فى كتابه « تاريخ مصر » . ويقارنها بالمزمور ١٠٤ من مزامير النبى داود . وسنورد فيما يلى فقرات هذه الأنشودة . ومعها فقرات المزمور ١٠٤ من مزامير داود التى يدَّعون مشابهتها لها (بالبنط الأسود) حتى تسهل مقارنتها . يليها تعليقنا على كل فقرة :

بزوغك جميل فى أفق السماء يا « آتون » ياحى يامبدىء الحياة .
إذا صعدت فى أفق السماء الشرقى أفضت على الأرض جمالك .
ماذلك إلا لأنك جميل عظيم . نير فى السموات العليا .
تسطع على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك بأشعتك .
أنت « رع » أنت أسرتهم وقيدتهم بحبك .
أنت بعيد عن الأرض لكنك على اتصال معها بأشعتك .
أنت عالٍ . لكن آثارك واضحة فى ضوء النهار .
ليس لهذه الفقرة مثيل من المزمور ١٠٤ .

الليل :

إذا ما غربت فى أفق السماء الغربى أظلمت الأرض . فأصبحت كالميتة .
فيقصد السكان النوم فى حجراتهم مغطى الرؤوس . هادئى الأنوف .
فتسرق أمتعتهم من تحت رؤوسهم دون أن يشعروا .
أما الأسود فتخرج من جحورها . وكذا الثعابين اللداغة .
ويسود الظلام الكون . وتسكن الأرض .
وماذلك إلا لأن خالق هذه الأشياء كلها ذهب ليستريح فى أفقه .

---

* موسى مصرياً . سيجموند فرويد . مترجم . المكتبة الثقافية . العدد ٢٢٧ .
** مصر والشروق الأدنى القديم . جـ ٢ ص ٢١٠ .

والفقرة ٢٠ - ٢١ من المزمور ١٠٤ تقول :

تجعله ظلمة فيصير ليلا . فيه يدب كل حيوان الوعر . الأشبال تزمجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها .

التعليق : الشبه بسيط جدا .

النهار والانسان :

إذا ما ظهرت فى الأفق . وأشرقت فى النهار كآتون . أضاءت الأرض .

إذا مابزغت أشعتك خفى الظلام . وشمل الفرح قطرى مصر .

كيف لا . وقد أيقظتهم فيغتسلون ويكتسبون . ويبتهلون بأذرعهم إليك وقت شروقك . ثم يشرع سكان العالم يؤدون أعمالهم .

الفقرة ٢٢ - ٢٣ من المزمور :

تشرق الشمس . الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله إلى المساء .

التعليق : التشابه هنا واه جدا . إذ أن المعنى هو حقيقة معروفة للجميع من أن النهار هو للعمل . وتوارد هذا المعنى فى كتابات مختلفة لا يعنى أن إحداها مقتبسة عن الأخرى .

النهار والحيوان والنبات :

البهائم كلها مستريحة فى مراعيها .

الأشجار والنباتات جميلة يانعة .

العصافير تخفق فوق المياة ناشرة أجنحتها إبتهالا إليك .

الأغنام ترقص على أرجلها .

الطيور تحلق فى الجو تتنسم الحياة إذا ما أشرقت عليها .

الفقرة ١٦ ، ١٧ من المزمور :

تشبع أشجار الرب حيث تعشش هناك العصافير .

التعليق : لايوجد تشابه إطلاقا إلا فى كلمة العصافير . فى نشيد أخناتون فهى تخفق فوق المياه ناشرة أجنحتها . وفى المزمور تعشش العصافير . فالمعنى مختلف .

الأنهار والمياه :

تسير السفن مع التيار وعكسه .

وكل طريق عمومى يصبح مسلوكا لأنك ظهرت فى الأفق .

أما السمك فيقفز فى النهر أمامك . هكذا تخترق أشعتك البحر الخضم .

أما الفقرة ٢٥ – ٢٦ من المزمور فتقول :

هذا البحر الكبير الواسع الأطراف . هناك دبابات بلا عدد . صغار حيوان مع كبار . هناك تجرى السفن . لوياثان (التمساح) هذا خلقته ليلعب فيه .

التعليق : ليس هناك من تشابه إطلاقا فى هذه الفقرة .

ففى المزمور : هناك تجرى السفن أما فى النشيد : تسير السفن مع التيار وعلى عكسه . كما أن بالنشيد السمك يقفز فى النهر وفى المزمور التمساح يلعب .

خلق الإنسان والحيوان :

أنت خالق الجنين فى بطن أمه .

أنت خالق نطفة الإنسان .

أنت واهب الحياة للجنين فى رحم أمه ومُلطفه حتى لا يتكدر ويبكى .

كيف لا وأنت المربى فى الرحم .

أنت معطى نفس الحياة لكل مخلوقاتك .

أنت فاتح فم الجنين بالكلام ومعطيه حاجاته يوم تلده أمه .

أنت تهب الحياة للفرخ فى البيضة فيصيح .

فإذا أتممت خلقه ثقب بيضه وخرج منها صائحا جهده واثبا بقدميه .

التعليق : لم يجدوا فى هذه الفقرة تشابها مع أى فقرة في المزامير فتجاوزوها .

الخلق عموما :

ما أكثر مخلوقاتك التى نجهلها .

أنت الإله الأحد لاشريك لك فى الملك .

خلقت الأرض بإرادتك .

ولما كنت وحيدا فى هذا الكون خلقت الإنسان والحيوان الكبير والصغير .

والمخلوقات التى تدب فى الأرض أو تطير بأجنحتها .

أنت الذى أحللت كل إنسان فى سوريا والنوبة ومصر فى موضعه .

وأنعمت عليه بحاجاته . فصار كل منهم يأخذ نصيبه ويعيش أيامه المحدودة .

لقد اختلفت ألسنتهم وأجسامهم وجلودهم .

فسبحانك من مميز لخلقك .

الفقرة ٢٤ من المزمور ١٠٤ تقول :
ما أعظم أعمالك يارب . كلها بحكمة صنعت . ملآنة الأرض من غناك.

التعليق : لايعقل أن تتشابه فقرة من عشرة أسطر مع فقرة أخرى عبارة عن سطر واحد وليس بينها من تشابه فى المعنى أو اللفظ . بل إن هذه الفقرة خير مثال على عدم التشابه !.

رى الأراضى :

أنت خالق النيل فى الدار الآخرة .
أنت أوجدته لتحافظ على حياة الأهالى .
أنت سيد الجميع لأنهم ضعاف .
أنت سيد كل أسرة لأنك تشرق لأجلها .
أنت شمس النهار المهيب فى الأراضى السحيقة كلها والواهب لها الحياة .
خلقت لهم نيلا فى السماء ليسقط عليهم ماؤه .
فيسيل على الجبال كالبحر الزاخر يروى غيطانهم بين مدنهم .
ما أبدع مشروعاتك أيها السيد الأزلى .
فنيل السماء للغرباء والدواب من كل البلاد .
والنيل الذى يأتى لمصر خاصة يأتيها من الدار الآخرة .
أشعتك تغذى الجنان . فإذا ما أشرقت أينعت وأنبتت بتأثيرك .

فقرة ٦ : فوق الجبال تقف المياه .
فقرة ١٣ : الساقى الجبال من علاليه .
فقرة ١٤ — من ثمرة أعمالك تشبع الأرض . المنبت عشبا للبهائم. وخضرة لخدمة الإنسان . لإخراج خبز من الأرض .

التعليق : إن نشيد إخناتون يشبه المطر . وهو وسيلة الرى فى الأقطار الأخرى كأن هناك نيلا فى السماء يسقط المطر على الجبال . ويقابل بينه وبين نيل مصر الذى يرى أنه ينبع من الدار الآخرة أى من الجنة . وهذا هو لب هذه الفقرات من النشيد . والنظرة المحايدة لاترى أى تشابه مع فقرات المزمور التى أوردها صاحب هذا الرأى . صحيح أن لفظ الإنبات قد تكرر إلا أنه فى الأولى إنبات للجنات وفى الثانية إنبات عشب للبهائم !!

الفصول :

جعلت الفصول لتخلق فيها جميع مخلوقاتك .
فالشتاء يعطيهم البرودة . والصيف يهب لهم الحرارة .

أنت الذى رفعت السماء عاليا لتنظر ما خلقت فى وحدتك .
شارقا حيا كآتون . ساطعا متلألئا . ثم راجعا ثانيا حيث ابتدأت .

فقرة ١٩ : صنع للقمر مواقيت . الشمس تعرف مغربها .

التعليق : والاختلاف – وليس التشابه – واضح بين الفقرتين . فنشيد أخناتون لم يذكر القمر إطلاقا وكان يقابل بين الصيف والشتاء . وتعاقب الفصول شتاء . ثم صيف حين تسطع الشمس حارة ثم ترجع ثانية إلى شتاء . وفى حين يقابل المزمور بين القمر والشمس أى تعاقب الليل والنهار وليس تعاقب الفصول .

جمال الضوء :

أنت مبدع الجمال من نفسك .
فالمدن والبلاد والقرى والطرق والأنهار عيون تبصرك أمامها .
كيف لا ؟ وأنت « آتون » النهار فوق الأرض !

التعليق : لم يجدوا تشابها . فتجاوزوها .

تضرعات الملك :

أنت فى قلبى . لايعرفك سوى ابنك أخناتون .
الذى جعلته عاقلا بآرائك وقوتك .
العالم كله فى قبضتك كما خلقته .
إذا أشرقت عليه يحيا . وإذا أفلت مات .
أنت الوجود . ومسبب الحياة للإنسان .
أعين الخلق تبصر محاسنك كل يوم حتى تغرب .
والشكل كله يبطل إذا ما أفلت فى الغروب .
إذا ما أشرقْت جعلت ذلك كله ينمو .. للملك .
لقد وهبت العالم منذ خلقته لإبنك وسليلك .
الملك الذى يعيش فى الحق سيد الأرضين .
نفرو خبرو رع (هو اسم أخناتون) ابن الشمس العائش فى الحق .
سيد التيجان . أخناتون طال أجله .
وأيضا للزوجة الملكية العظيمة . خليلة سيد القطرين .
نوفر نوفرو آتون – نوفرتيتى . العائشة واليانعة إلى أبد الآبدين .

الفقرات من ٢٧ - ٣٠ من المزمور ١٠٤ تقول :

كلها إياك تترجى لترزقها قوتها فى حينه . تعطيها فتلتقط . تفتح يدك فتشبع خبزا . تحجب وجهك فترتاع . تنزع أرواحها فتموت . ترسل روحك فتخلق وتجدد وجه الأرض .

التعليق : والحقيقة الواضحة أنه ليس هناك تشابه من من قريب أو بعيد فى هذه الفقرات. فجوهر هذه الفقرة من نشيد أخناتون هو تمجيد نفسه وأنه هو الذى يعرف آتون . وإنه ابن الشمس . وزوجته كذلك . ثم يذكر أن الشمس هى أصل الحياة . وهى حقيقة لا يعتبر ذكرها فى كتابات مختلفة اقتباسا . فاللفظ مختلف . الشكل كله يبطل إذا ما أفلت - واللفظ الآخر : تنزع أرواحها فتموت . ولم يأت فى هذه الفقرة من نشيد أخناتون إشارة إلى أنه واهب الرزق والقوت - كما قال المزمور : ترزقها قوتها . تعطيها فتلتقط . تفتح يدك فتشبع خبزا . ولكن النشيد يركز على أن آتون وهب العالم كله لأخناتون !!

من استعراض « الأنشودة الكبرى » والفقرات من المزمور ١٠٤ - نجد أنه لا تشابه إطلاقا . وعلى العكس نجد اختلافا كبيرا بين النصين . وإن كان هناك تشابه فهو فى بعض معانى عامة لا تعتبر اقتباسا . وسنعود إلى هذه النقطة مرة أخرى عند الكلام عن داود عليه السلام (الجزء الخامس إن شاء الله) .

ليس هناك مغالاة إن قلنا إن برستد كان متجنيا أشد التجنى حينما أعلن عن هذا الاقتباس المزعوم . وجاء آخرون ونقلوه عنه دون مراجعة لما بنى عليه . ويمكننا أن ندرك غرضه من هذا الادعاء . فإثبات هذا الاقتباس ينفى نبوة داود عليه السلام . وبالتالى ينسحب نفى النبوة على من تلاه من الأنبياء . فليست اليهودية ولا المسيحية ولا الإسلام بأديان سماوية . بل هى تطوير للأتونية التى توصل إليها أخناتون « بعقله » وهو « أول الموحدين » . فالأديان هى « نتاج العقل البشرى » .

هى النظرية اللادينية التى كانت تنادى بها الشيوعية العالمية .

فمما لاشك فيه أن أول الموحِّدين هو آدم عليه السلام . فهو قد شهد بعد خلقه سجود الملائكة له بأمر من الله سبحانه وتعالى . ثم إسكانه الجنة . والأمر بعدم الأكل من الشجرة المحرمة . كل ذلك فصلناه فى الجزء الأول (ص ١٥ ومابعدها) .

ولقد علم الله سبحانه وتعالى أن العقل البشرى سيقصر عن إدراك هذه النقطة - أي التوحيد - لو اعتمد على قدراته الذاتية . دون أن يؤخذ بيده . فيخبرنا الله سبحانه وتعالى - أنه استخرج من آدم - ذريته وأشهدهم على أنفسهم أنه هو الله - خالقهم وربهم .

« وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم. قالوا بلى شهدنا . أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » .
(١٧٢ - الاعراف)

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : كل مولود يولد على الفطرة .

وفي صحيح مسلم : قال رسول الله ﷺ : يقول الله إني خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم . وحرمت عليهم ما أحللت لهم .

وأخرج أحمد* . والنسائي . وابن جرير . وابن مردوية . والحاكم وصححه ، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : إن الله تعالى أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة . فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنشرها بين يديه كالذر ثم كلمهم قائلا : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا .

وأخرج مالك في الموطأ* . وأحمد . والبخاري والترمذي وغيره أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية فقال : سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال : إن الله تعالى خلق آدم . ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية ... الخ الحديث .

وعن ابن عباس** قال : أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذر وهو أذى من الماء . ونقلوا أيضا عن ابن عباس قوله : إن الله مسح صلب آدم . فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة . فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولايشركوا به شيئا . وتكفل لهم بالأرزاق . ثم أعادهم في صلبه .

وروى عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ . واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم - قال أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس . فقال لهم ألست بربكم قالوا بلى .

والبيضاوى* حمل الآية في تفسيره على التمثيل . وذكر فيه أن ظاهر حديث عمر لا يدل على استخراج الذرية من صلب آدم دفعة واحدة . إذ لو كان الأمر كذلك لقال : وإذ أخذ ربك من ظهر آدم ذريته . فالمراد بالإخراج هو توليد بعضهم من بعض على مر الزمان . واقتصر على ذكر آدم اكتفاء بذكر الأصل عن ذكر الفرع . فالمعنى أخرج من ظهر آدم أبناءه . ومن ظهورهم أبناءهم . وهكذا إلى آخر السلسلة .

---

* تفسير الآلوسى . جـ ٩ ص ١٠٣ .
** تفسير ابن كثير . جـ ٢ ص ٢٦٢ .

ويمكننا - فى عصرنا الحالى . وقد تكشفت لنا بعض المعارف عن الجينات التى تورث الصفات فى الأبناء وقد توصل علماء الهندسة الوراثية إلى أن البعض من هذه الجينات يتحكم فى القوى العقلية والتفكير بحيث أننا نجد بعض العائلات تتوارث المواهب الموسيقية أو الرسم - وغيرها يتوارث الشعر . ولا يزال هناك عشرات الآلاف من الجينات لم تكتشف مهامها أو مواقعها على الكروموسومات . ولعل التجلى الإلهى على آدم عند أول خلقه . وعند إيحائه له بأوامره فى الجنة - كان له أثر روحى هائل على آدم . ويمكننا أن نفترض أن جينا ما على أحد الكروموسومات . قد تأثر بطريقة ما فأوجد فى النفس البشرية وعيا داخليا بوجود « قوة عليا » هى قوة الخالق سبحانه وتعالى . وأن هذا الجين ينتقل من الأباء إلى الأبناء . ومن هؤلاء إلى الأحفاد . وهكذا دواليك فى تسلسل لكل ذرية آدم عليه السلام . وأن آدم عليه السلام قد علم أن هذه « القوة العليا » الخالقة هى الله سبحانه وتعالى . أما الأجيال التالية فكانت فقط تدرك أن هناك « قوة عليا » تلجأ إليها عند الشدائد . ويجىء الرسل فيبينون أن هذه القوة العليا هى « الله » سبحانه وتعالى . أما إذا تركت النفس البشرية لذاتها فى استخلاص كنه هذه القوة العليا - فإنها - بحكم تكوينها - وإدراكها - المحكوم بحواسها - ستلجأ إلي تجسيد هذه القوة العليا بمحسوس . وقد ذكرنا فى الجزء الأول (ص ٦٠) كيف نشأت عبادة الطواطم والأصنام . وتعددت الآلهة تبعا لتعدد المطلوبات من صفات القوة العليا فكانت عبادة قوى الطبيعة . وعبادة الحيوانات .

ويتضح مثال ذلك فى « أخناتون » فهو بصفاء ذهنه . وبحكم نشأته فى أحضان الطبيعة توصل إلى وجود هذه القوة العليا . ولكن لأنه لم يوح إليه . لم يكن فى مقدوره التوصل الى الغيب المطلق الذى يتطلبه التوحيد الحقيقى . فكان أن مثل هذه القوة العليا فى « قرص الشمس . آتون » . أو القوة الكامنة فيها .

ولو شئنا أن نتتبع مسيرة التوحيد الحقيقى لوجدناه فى إدريس عليه السلام . كان نبيا ورسولا . ثم بعد أن رفع إدريس عادت الوثنية من جديد وعاد تعدد الآلهة . وظلت الديانة المصرية القديمة تدور - على مدى مايقرب من ثلاثة آلاف سنة - فى دائرة مغلقة من تعدد الآلهة . إلى أن جاء انفتاح فكرى مع قدوم يوسف عليه السلام وإخوته - الأسباط - وإن كانت نبوتهم قاصرة على حفظ دعوة التوحيد فى ذريتهم ولم يكلفوا بدعوة المصريين دعوة صريحة إليها . إلا أن الإشعاع الفكرى ينتشر تلقائيا . وانعكس هذا - مع أفكار الإله الواحد الوارد مع الإنفتاح السياسى على الشعوب الآسيوية . فبدأ توحيد الآلهة على استحياء فى عصر أمنحتب الثالث . ثم ظهر بوضوح فى فكر أمنحتب الرابع - أى أخناتون - ولكنه تمشيا مع قدرات العقل البشرى - لجأ إلى تجسيد الإله فى قرص الشمس .

ويمكننا أن نقارن هنا . بين أخناتون وتوقفه عند قرص الشمس . واستراح إلى هذه الفكرة . ثم آمن أنه ابن للإله . وبين موقف إبراهيم عليه السلام . (الجزء الثانى ص ٢٣٠) .

« فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر . فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون » .

فقد أيقن أن الإله حى دائما . لا يأفل . فأعمل فكره بدرجة أكبر مما فعل أخناتون . ورفض الشمس كإله . وكان قد تلمس الحقيقة قائلا :

« قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين » . (٧٧ - الأنعام)

فهداه الله وأرسل له وحيا من لدنه . واصطفاه برسالته . فكانت الملة الحنيفية . والتوحيد الحقيقى .

« إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » . (٧٩ - الأنعام)

وهذا مالم يفعله أخناتون . إذ استراح لكون قرص الشمس هى الإله واكتفى بأن نسب نفسه لها ابنا ونبيا . ولعل هذا كان مقدرا ليكون شاهدا على أن العقل البشرى به الشعور الداخلى بوجود « قوة عليا » ويجىء الأنبياء والرسل ليوضحوا للناس أن هذه القوة العليا هى الله سبحانه وتعالى .

عود إلى أخناتون :

قلنا إن أخناتون قد استراح إلى فكرة أن القوة العليا فى هذا الوجود هى « آتون الحى » ومثلها فى قرص الشمس .

وتزعم أخناتون مجالس الدعوة . وأعلن نفسه نبيًّا والمتولى نشرها . واختار لنفسه حواريين يعلمهم . كما علمه إلهه . ورأى أن تشييد دور العبادة هو خير سبيل لنشر الدعوة . فعمد إلى الإكثار من معابد آتون فى أمهات المدن المصرية . وجعل مدينة أخيتاتون - العاصمة - مدينة فاضلة تعمل للدين والدنيا معا . تبشر بالإيمان السمح . وتتردد تسابيح الشكر والصلوات لآتون فى معابدها . كما تتردد فى مجالسها الأغانى والأنغام وأهازيج حب الطبيعة والجمال .

وبدأ أخناتون دعوة لتحرير الفنون من عاداتها القديمة . وبدأ بنفسه ففتح مغاليق قصره للمثالين والرسامين . فمثلوه هو وأسرته فى حياتهم العادية . فى فرحهم ولهوهم (شكل ١١٥) وحتى فى حزنهم . واهتموا اهتماما بالغا بدراسة الوجوه* . فصوروا وجهه ووجه زوجته نفرتيتى فى روحانية ووداعة . وصوروه يمرح في عربته . ونفرتيتى تهم بتقبيله فى بساطة (شكل ١١٦) وهو مالم يكن أحد يجرؤ على رسمه من قبل . كذلك صوروه وهو يتعبد فى إخلاص لـ « آتون » (شكل ١١٧) . وكذلك وهو يجود بالعطايا على أتباع الدين الجديد (شكل ١١٨) .

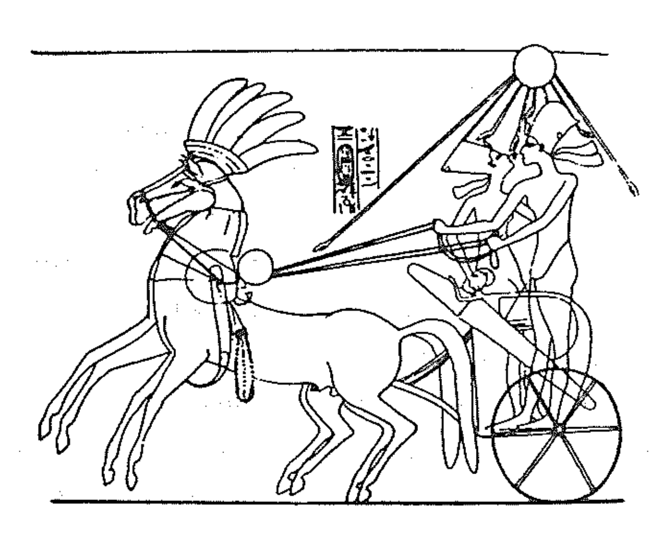
---

* تاريخ الحضارة المصرية . العصر الفرعونى . محمد شفيق غربال . ص ٣٥٢ .



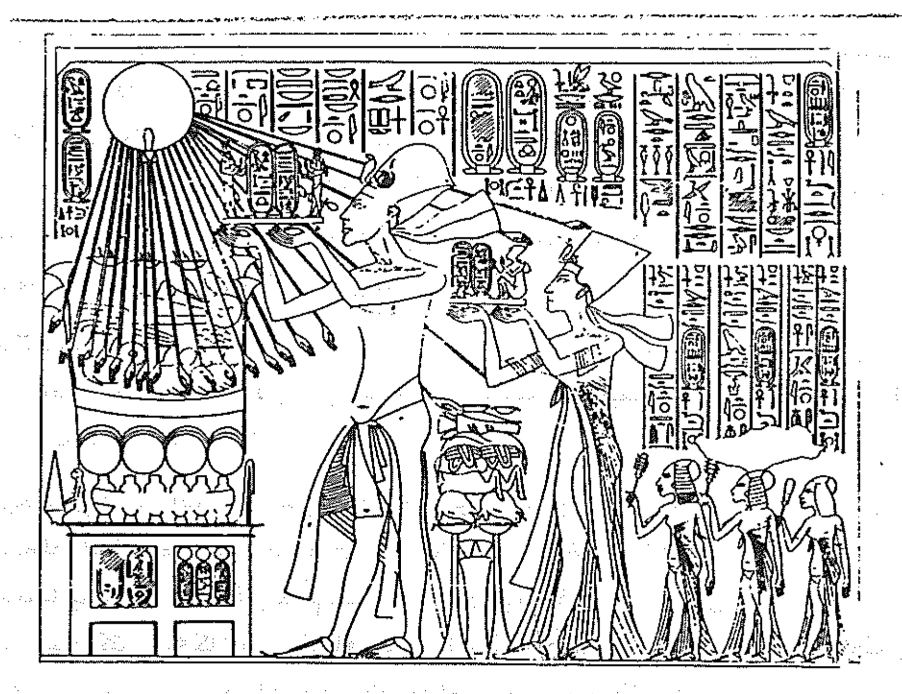
شكل ١١٥ – اخناتون مع زوجته وأولاده

(برلين ١٤١٤٥)



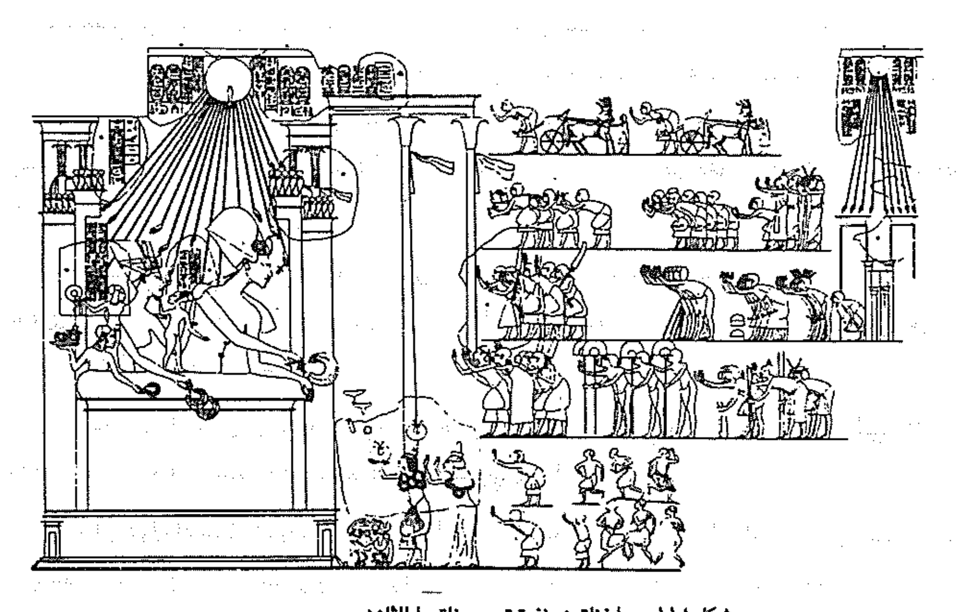
شكل ١١٦ – نفرتيتى تهم بتقبيل زوجها اخناتون فى بساطة مستحبة .

لم يجرؤ المصور على تصويرها قبل عصر العمارنه .



شكل ١١٧ – الملك « إخناتون » والملكة « نفرتيتى »

وخلفهما بناتهما الثلاثة يقدمون القرابين للإله « آتون » .



شكل ١١٨ – « أخناتون ونفرتيتى » وبناتهما الثلاث

ينعمون بالعطايا من شرفة القصر على أتباع الدين الجديد

واعتقد أخناتون أن دعوة الحب والسلام التى يدعو اليها ستنفذ فى أعماق النفوس وأن دينه الجديد له قوة دفع ذاتية تجعله ينتشر من تلقاء نفسه . ولعل ماجعله يتخيل ذلك أن كثيرا ممن حوله أسرعوا بالدخول في الدين الجديد . ولم يضع فى حسابه أن كثيرا منهم قد اعتنقوا الدين الجديد نفاقا . ورغبة فى الانتفاع بالقرب منه . وبسبب المزايا التى كانوا يصيبونها بوصفهم من المقربين من الملك . وأعضاء فى البلاط وجهاز الإدارة الأخناتونى . وكذلك لم يتردد الملك من غمرهم بعطاياه الثمينة لضمان دعمهم له .

والتف حول الملك جوقة جديدة تصف نفسها بأنهم .. أولئك الذين خلقهم الملك الجديد . فهو الذى بناهم . ويصفونه بأنه هو الذى يصنع الكبار والصغار . ويمدحونه لأنه أغناهم . وهو الذى يشبعهم بأطعمته . وليس هناك فقر لمن يحبه الملك ! .

وجاء فى إحدى البرديات التى كتبها أحد هؤلاء المقربين القول بأن « الملك جعل منه رجلا . وسمح له بالاختلاط بالفصحاء والمستشارين ولم يكن يظن أبدا أنه سيأتى يوم يتصل فيه بالمستشارين ولكنه صار الآن كاتم سر الملك . الذى جعله غنيا بعد أن كان فقيرا ». ويحكى آخر فى سذاجة أكثر : أنه كان فى حالة فقيرة من ناحية أبيه وأمه . ولم يكن يملك شيئا . وكان من حثالة الشعب يلتمس خبزه. ولكن الملك خلقه وأطعمه . وسمح له بالاختلاط بمستشاريه وحاشيته . وصار أخيرا سيد المقاطعة .

وبالطبع فإن من لم ينالوا هذه الحظوة . قد حقدوا على الملك ودينه الجديد . كذلك فإن النبلاء قد ابتعدوا عنه . وكان الملك يبعد عنه كل من يقاوم أو يجهل مذهبه . ويكافىء كل من يعرفه ويظهر الميل له . ولو نفاقا ! . ولذلك نقرأ فى كتابات بعضهم : إنهم سمعوا بمذهبه وعملوا بمقتضى قوانينه . وأحدهم يقولم : إن الملك قد علمه بنفسه . وآخر يقول : إن الملك اهتم بتعليمه كل صباح .

وأسرف أخناتون فى تمجيد نفسه . وكما رأينا (ص ٥٧٤) أن من إحدى أسس الآتونية هو حلول الإله فى شخص الملك كشكل من أشكال تجلى الإله . وأسرف أنصار أخناتون فى ذلك الأمر وبدأوا يؤلهونه هو نفسه .

وهكذا رأى الناس أن دعوته لم تأت بجديد يجذب العامة إليها . لذلك فإن غالبية الشعب رفضت العقيدة الجديدة وظلت تعبد آلهتها القديمة سرا كما فعلوا أيام الهكسوس .

كما أن دول الشرق الأوسط والأدنى والبلاد الآسيوية التى قيل إن الدعوة إلى هذا المذهب الجديد ستجمعهم حول مصر بالحب والوفاء . لأن نِعَمه تنتشر بانتشار أشعته فى أقطار الدنيا بأسرها . دون تفرقة بين أبيض وأسود . هذه الدول كانت فى شغل شاغل عنه بمشاكلها الخاصة وبمشاكل النزاعات بين الأموريين والحيثيين والأراميين والكنعانيين وغيرهم .

بل إن مشاكل الأسرة المالكة الداخلية لم تكفل له الهدوء كاملا . فلم يكن له ولد ذكر يرثه . وإنما أنجب ٦ بنات . وكان له أخوان . اتجه أكبرهم وهو « سمنخ كارع » إلى مهادنة كهنة « آمون » فى حياة أخيه . أما الأصغر . وهو « توت عنخ آمون » فكان قد أيقن ببأس « آمون » وكهنته . وكان يرى هو أيضا عقم المحاولة فى الوقوف ضدهم .

وكانت الملكة « تى » والدة أخناتون تملك قصرا فى تل العمارنة وقصرا آخر فى طيبة كانت تقضى فيه بعض الوقت . ويرى البعض أنها أثناء إقامتها فى طيبة أدركت بذور الثورة فى نفوس القوم فى طيبة . وقامت بزيارة لإبنها أخناتون . ولعلها أطلعته على مايجرى فى الخفاء ضده .

كذلك يقال إن « نفرتيتى » زوجته هجرته فى أواخر أيامها . لأنها بدأت تمل حياة التأمل التى كان يعيشها . أو أنها أدركت أن صراع زوجها مع كهنة « آمون » سوف يؤدى بالأسرة إلى الهلاك . ومن المستبعد مايقوله البعض من أن أنصار « آتون » فى طيبة أغروها على هجره والإقامة فى القصر الشمالى (شكل ١١٤ ص ٥٧١) . إذ وجدوا فيها بديلاً شعبيا لزوجها يمكن أن يحل محله . وهناك من يقول إن أخناتون هو الذى طردها . فقد بدأ اسمها لايظهر بعد ذلك . وهناك من يقول إنها ماتت فى تلك الفترة ومن ثم فقد كان اختفاء اسمها أمرا طبيعيا . وهناك من يرى أن أخناتون – فى أخريات أيامه – أصبح معتل الصحة مشتت الفكر . وأنه حاول – عن طريق أخيه سمنخ كارع – الذى كان يشاركه الحكم – أن يتفق مع كهنة آمون . فساء ذلك الفعل فى نظر الملكة نفرتيتى وانسحبت إلى القصر الموجود فى شمال آخيتاتون وبقيت هناك حتى وفاة زوجها .

أما بالنسبة للعامة والطبقات البسيطة من الشعب . فإن السمو الفكرى لمبادىء الآتونية كان فوق طاقتهم فى استيعابه . ولذلك زادت الهوة بين فكرهم والدين الجديد . وزادت هذه العزلة من التصاقهم بمعتقداتهم القديمة . وقد وجدت فى حى العمال فى العاصمة الجديدة – أختياتون – أدلة أثرية على عدم ترك العمال لآلهتهم القديمة : مثل « بس » و« شد » و« حاتحور » و « إيزيس » وغيرها .

تفكك الإمبراطورية المصرية :

لم يكن أخناتون رجل حرب . يخرج فى حملات يجوب بها أنحاء الإمبراطورية تخويفا لمن تسوغ له نفسه الثورة عليه .

ولم يكن ذلك السياسى المحنك الذى يتخذ الوسائل للحافظ على الإمبراطورية التى آلت إليه . فلم يكن فى خطته أن يتخذ المصاهرات السياسية لتدعيم ملكه كما كان يفعل غيره من الفراعين. كذلك لم يكن يحتفظ فى بلاطه بأولاد الأمراء الذين ولاهم فى الولايات الآسيوية التابعة له . كذلك لم يغدق الأموال على هؤلاء الأمراء حتى يظلوا على ولائهم له . وقالوا إن بناء مدينة أخيتاتون ومعابدها كبده أموالا هائلة بحيث لم يبق الكثير ليعطيه لهولاء الأمراء .

ولكن – ولعله العامل الأهم – لما أدرك سكان آسيا الصغرى والشام أن فرعون مصر قد أصبح معلما دينيا . لا رجل حرب . قاموا بالثورات فى بلادهم . فبعث الأوفياء من الولاة إلى أخناتون يطلبون النجدة . ولكنه اكتفى بالرد على رسائلهم برسائل واعدة دون أن يسعفهم بالمدد الحربى .

يدل على ذلك الرسائل التى كان يرسلها أمراء الشام الموالين لمصر يقولون فيها : كان حكام كنعان إذا رأوا جنديا مصريا ولوا الادبار . أما الآن . فإنهم يستخفون بالمصريين ويهددونهم بأسلحة فتاكة .

وبعض الأمراء كان يظهر ولاءه لملك مصر . ولكنه فى الحقيقة يعمل لحساب أعدائها مثل عبدو أشرتا وولده عزيرو اللذين كان الواحد منهما بعد الآخر يحاول القضاء على نفوذ مصر فى غربى آسيا .

ومن رسائل أخناتون إلى ولاته الذين كانوا يستنجدون به . فى إحداها يقول : أنت تعرف أن الملك لايرغب فى أن يضرب أرض كنعان بكل قوة !

وفى رسالة أخرى يقول : تأكد أن الملك يعدل مثل الشمس فى السماء وأن جميع قواته وعجلاته من أقصى شمال الأرض إلى جنوبها . ومن شروق الشمس إلى غروبها . فى حالة جيدة . وفى رسالة ثالثة : نقرأ مامعناه أن الفرعون رغم أنه لايحب الحرب ولايريد أن يذهب إلى غرب آسيا ليقتل الناس هناك . إلا أنه سوف يضطر إلى إراقة الدماء إن لم يكفوا عن سياستهم ضد الملك .

ولكن ردوده لم تتعد رسائل التهديد . وتأكد للحكام أن الملك لن يرسل جيشا لنجدة حلفائه . وكانت النتيجة أن خسرت مصر فى عهد أخناتون – معظم أملاكها فى الشام وساحل البحر المتوسط فى فينيقيا وفلسطين . واستولى الأموريون على سوريا . واستولى الحيثيون على ساحل المتوسط واستولت قبائل الخابيرى (العابيرو) على أجزاء من فلسطين . وانهارت الامبراطورية . بينما ظل أخناتون رجلا متسامحا . قابعا فى قصره فى أخيتاتون يتعبد لآتون . وسقطت الموانى الموالية لمصر مثل بيروت وصور وصيدا وعكا فى أيدى موالية للحيثيين .

وتوفى أخناتون بعد أن حكم ١٧ سنة . وخلفه **سمنخ كارع** . واختلف المؤرخون . هل هو ابنه أو أخوه أو زوج ابنته الكبرى . وعلى العموم فهو لم يمكث إلا سنوات قليلة (٣ سنوات تقريبا) ومات وخلفه توت عنخ أمون .

الردة فى عهد توت عنخ آمون :

قيل إن توت عنخ آمون هو ابن أمنحتب الثالث أى أخو أخناتون . وقيل هو زوج ابنة أخناتون الثانية . وتولى العرش صغيرا فى السن . وظل ٣ سنوات يسكن فى أخيتاتون . مخلصا لعبادة آتون . ثم بعد سنة أو ثلاث سنوات ترك آخيتاتون وعاد إلى طيبة . وقيل إن ذلك كان استجابة لضغوط كهنة آمون . وتم تتويجه فى طيبة . وأصدر مرسوما قال فيه : إن البؤس الذي انحطت إليه البلاد . وتهدم المعابد فى مصر كلها وسقوط واجهاتها . فاستدبرت الآلهة . وصار الجيش عاجزا . وعندما كان المرء يتضرع إلى آلهة أو إله لايستجيبون . ولكن الآلهة أجلسوا على العرش ملكا جديدا . طرد الإثم من القطر . الحق يبقى . والباطل يزهق . أصبحت البلاد من جديد كما كانت قديما .

وأعاد الملك معابد آمون لسابق عهدها . وصنع تماثيل لآمون وبتاح من الذهب الخالص . ثم بدأ يمحو عبادة آتون . وخربت أخيتاتون ومعابدها وقبورها وأصبح إسم أخناتون منبوذا . ولايذكر إلا على أنه « مجرم أخيتاتون » وكان أنصار آمون ينشدون فى فرح :

الويل لمن يمسك . ذلك الذى حاول المساس بك قضى عليه .
الخزى لمن يسىء إليك فى أى بلد كان .
إن شمس من لايعرفك قد غربت . أما من يعرفك فيضىء.
إن معبد من مسك فى ظلام . وأما الأرض كلها ففى النور .

وأرسل توت عنخ آمون جيشا إلى فلسطين ليحارب أعداءه ويدرأ عن بلاده الغزو الأجنبى . ولكن لم يتمكن من إعادة نفوذ مصر إلى هذه البلاد . وغاية ما أمكنه هو درء خطر الغزو الأجنبى.

وعاش توت عنخ آمون ٦ أعوام فى طيبة ومات بعد حكم لم يزد عن تسع سنوات ولم يتجاوز عمره الثامنة عشرة . وقام د . هاريسون . أستاذ التشريح بجامعة ليفربول عام ١٩٦٨* بفحص مومياء توت عنخ آمون بالأشعة ووجد كسوراً فى الرأس والرقبة مما يدل على أنه مات

---

* روز اليوسف العدد ٣٥٩٧ . ص ٥٥ .

مقتولاً . ويقال إن سير هوارد كارتر الذى اكتشف المقبرة عام ١٩٢٢ عثر على بردية داخل صندوق فاستولى عليها وأخفى ما بها . وقيل إن بها معلومات عن جريمة القتل . وماتسرب من معلومات تقول إن قاتل الملك هو الكاهن « بانحس » وأن صلة ما كانت بينه وبين بنى إسرائيل المقيمين فى مصر . فإذا كان ذلك صحيحاً فهو يؤيد ما ذكرناه (ص ٥٦٢) من أن عقيدة بنى يعقوب كانت ذات أثر فى نشوء التوحيد الذى نادى به أخناتون . ومن ثم كانت النظرة إلى توت عنخ أمون بوصفه « مرتداً » فوجب قتله ! .

وبعثت أرملته إلى ملك الحيثيين تطلب منه أن يرسل إليها أميرا من أفراد عائلته ليتزوج منها ويصبح ملكا للبلاد . ولكنه لم يلب طلبها وتزوجت من الكاهن « آى » فكان هذا سنده الشرعى لتولى الحكم . ولم يدم آى فى الحكم إلا ثلاث سنوات ومات . فخلفه حور محب .

حور محب أو حار محب :

ينتسب حور محب إلى عائلة قديمة من أشراف الصعيد . وكان قائدا من قواد أخناتون . أرسله فى أواخر عهده إلى آسيا . فاستطاع بمهارته أن يحافظ على فلسطين لمصر . ولا شك أن شهرته الحربية أكسبته سلطة كبيرة فى البلاد . وأغدق عليه أخناتون وخلفاؤه الألقاب والمنح . فبدأ يجمع فى يده السلطة والنفوذ . فكان من ألقابه : « القائد العظيم » و« كبير كهنة حور » و « رئيس أسرار القصر » و« خازن الحرس الملكى » .

وكان حور محب ذا طموح كبير . ولأنه أدرك خطر ديانة آتون على البلاد . فقد تودد إلى كهنة آمون بطيبة . وعمل على إرضائهم . ففاز بمحبتهم . ولما مات « آى » اعتلى عرش مصر بسهولة . وتزوج من سيدة تنتمى إلى الأسرة المالكة كى يكسب توليه العرش صبغة شرعية .

وأهم أعماله هى إعادة عبادة آمون وتطهير الإدارة الحكومية.

(أ) عودة آمون :

وجه حور محب عنايته أولا إلى محو كل آثار ديانة « آتون » . فهدم هياكلها وأعاد اسم « آمون » إلى كل مكان . وليس من شك فى أن اضطهاده للآتونية كان سياسيا أكثر منه دينيا . فلم تكن الدعوة إلى ديانة « آمون » سوى وسيلة يستعان بها على كسب ود كهنة آمون ليقوموا بمساعدته . ولكن الآتونية كان لها أثر على « آمون » نفسه . فلم يعد إلها قاسيا جبارا كما كان من قبل . بل أضفوا عليه من صفات الطيبة ماكان يوصف به آتون . فيقول نشيد عيد آمون :

حين ينام الناس تكون عيناه متيقظتان .
وعندما يستيقظ النوام يبدو لهم مضيئا فى مظهر جديد .
إنهم يولون وجوههم ناحيته .

ويقول له الناس والآلهة نعم المجىء .
والطبيعة كلها تبتهج كما يبتهج الآلهة والناس .

وأصبح « آمون » يمثل فى صورة ثالوث إلهى : لأن « رع » و« بتاح » متحدين معه . « رع » متحد مع الوجه . و« بتاح » متحد مع الجسد . وهؤلاء الثلاثة « آمون » و« رع » و« بتاح » المتحدة فى إله واحد كانوا هم الآلهة الرسميون للبلاد . أما المعبودات الأخرى فقد انزوت فى النسيان .

(ب) تطهير وإصلاح الإدارة :

فى عهد أخناتون – انتهز حكام الأقاليم – انشغاله بأبحاثه الدينية فراحوا يبتزون الأموال من الشعب . وانتشرت الرشوة وفشا الاختلاس . فقام حور محب بمكافحة التسيب الخلقى الذى ساد الإدارة فى مصر وأصدر قوانين بها مواد رادعة لجرائم استغلال النفوذ .

١ – منع اضطهاد الموظفين للأهالى والفقراء . ووضع عقوبات منها جدع الأنف . والنفى إلى مدينة « ثارو » على الحدود الشمالية الشرقية لمصر .

٢ – حفظ الأمن ونص على أن كل من دخل مسكنا من أجل السرقة. يحكم عليه بمائة جلدة . وبأن يجرح فى خمس مواضع فى جسده . ثم تسترجع منه الجلود المسروقة .

٣ – عين موظفين ذوى سيرة حميدة ليقوموا بجمع الضرائب .

٤ – لكى يبطل الرشوة بين القضاة أعفاهم من دفع الضرائب . حتى لايكون لهم عذر فى اتباع الوسائل غير الشريفة .

٥ – زاد مرتبات الموظفين الإداريين حتى لا يلجأوا إلى الرشوة .

وبموت حور محب انهار صرح الأسرة الثامنة عشرة . التى امتازت فى العالم بعظمتها ومجدها وحكمت مصر قرنين ونصف قرن . ويكفيها فخرا أنها بدأت عصرها بطرد الهكسوس . وأسست أقدم امبراطورية شرقية عرفها التاريخ . وأنتجت أفكارا دينية سامية .

نترك مصر إلى أرض سعير – جنوب البحر الميت . حيث كان يعيش عيسو (انظر ص ٤٢٤) – أخو يعقوب – بعد أن افترقا . بقى يعقوب فى حبرون فى حين انتقل عيسو إلى أرض حمية – سعير الحورى – واستوطنها . وبعد أن تكاثر أبناؤه . سميت الأرض باسمهم . أرض أدوم .

كذلك سبق أن ذكرنا (ص ٥٤٤) أن أفرايم بن يوسف عليه السلام زوج ابنته رحمة من أيوب بن موص بن رعوئيل بن عيسو .

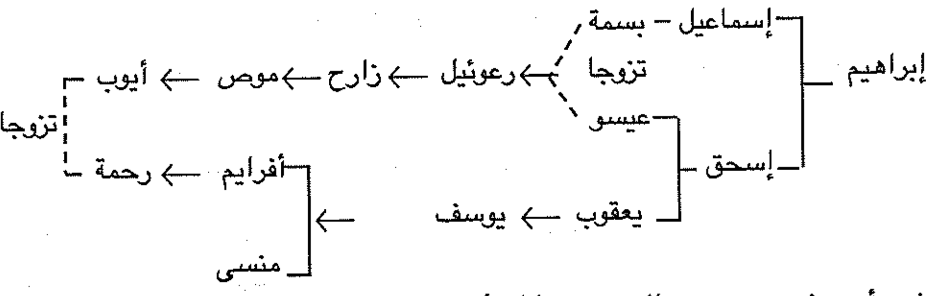
أيوب عليه السلام

سبق أن ذكرنا (ص ٤١١) أن عيسو – أخا يعقوب – ذهب إلى مكة يخطب إبنة عمه إسماعيل الذى رحب به وزوجه بسمة ابنته. وعاد عيسو إلى حبرون وعاش بها مع والده إسحق.

كذلك ذكرنا (ص ٤١٧) أن يعقوب عاد من حاران : هو وزوجته ليئة وراحيل وبنيه . وقلنا إن عيسو خرج لملاقاته . فالتقيا فى محنايم. وتصالحا . كان عمرهما يناهز ٥٣ عاما . عاد بعدها عيسو إلى حبرون . وتأخر يعقوب إذ مر على شكيم وبيت إيل وأفراته (بيت لحم) حيث وضعت راحيل أصغر أبنائه –– بنيامين – وماتت بعد ولادته . وأخيرا وصل إلى حبرون حيث كان يعيش أبوه إسحق وأخوه عيسو . وفى العام التالي توفى إسحق أبوهما وكان عمر عيسو ويعقوب ٦٣ عاما تقريبا .

وبعد ذلك افترق عيسو عن يعقوب فارتحل عيسو الى أرض حمية سعير الحورى . وبعد أن كثرت ذرية عيسو – الذى هو أدوم سميت الأرض باسمه – أدوم.

كذلك ذكرنا (ص ٤٢٦) أبناء عيسو. ومن زوجته بسمة بنت إسماعيل أنجب رعوئيل وولد لرعوئيل زارح . وزارح ولد موص . وموص ولد له ابن سماه أيوب .



شب أيوب فى ميسرة من العيش فقد كان أبوه وجده سادة فى قومهم وعلى ثراء كبير . ولما بلغ أيوب حوالى الخامسة والعشرين من عمره أراد أبوه أن يزوجه من بيت يناسب ثراءه . وكان قد سمع عن أقربائه فى مصر بنى يعقوب وأن يوسف بن يعقوب كان عزيز مصر ورئيس وزرائها . فشد الرحال إلى مصر وقابل أفرايم بن يوسف وطلب منه ابنته رحمة زوجة لإبنه أيوب . فوافق أفرايم وسافرت رحمة مع أيوب إلى أرض أدوم .

وكان أيوب ماهرا فى التجارة . أمينا فى معاملاته . فنمت ثروته وأصبح يشار إليه بالبنان فى الثروة والتقى .. كان يطعم المسكين ويعطف على الفقير ويكسو العريان . ويكثر من الصدقات .

إسـم أيـوب :

ذهب بعض المفسرين الى أن أيوب مشتقة من الأوب والتوب . فهو التائب . الآيب إلى الله . آب يؤوب . فعل . وصيغة المبالغة أيوب وقد أرجع المفسرون هذا لقوله تعالى عن أيوب :

«إنا وجدناه صابرا . نعم العبد إنه أواب » . (٤٤ – ص)

إلا أن أواب جاءت وصفا لداود عليه السلام :

« واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب » . (١٧ – ص)

« ووهبنا لداود سليمان . نعم العبد إنه أواب » . (٣٠ – ص)

بل إن الجبال والطير وصفت بذلك أيضا :

« إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق . والطير محشورة . كل له أواب » . (١٨ – ١٩ ص)

والمعنى أن الجبال تسبح له مع داود . واجتمعت إليه الطير وحشرت تسبح أيضا . والكل يرجع التسبيح فمعنى أواب هنا ترجيع التسبيح .

وعلى ذلك فمن المستبعد أن يكون اسم « أيوب » مشتق من الأوب بهذا المعنى . لاشتراك آخرين فى هذه الصفة . سواء بالمعنى الأول أو بالمعنى الثانى .

ويرى الاستاذ رؤوف أبو سعده * أن اسم أيوب مشتق من الجذر ويب . ويقال ويب له أى ويل له . وان كان ويب فى اللغة العربية قد بطل استعماله . أما فى العيرية فهو لايزال يستعمل . ومعناه كان له ضدا أى « ضادّه » . فأيوب فى العبرية معناها المنادىء أو الذى كان له ضد أو الذى أصابه مكروه أو المتأذى . ويكون الإسم فى العربية من الويب بمعنى المضرور أو الذى شدد الويب عليه أو شدد الضر عليه . والآية تقول :

« وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر . وأنت أرحم الراحمين » (٨٣ – الانبياء)

وشاءت إرادة الله تعالى أن يضرب للناس مثالا على الصبر فى شخص أيوب . ليتأسى به الناس فى صبره . ويحتذوا به فى تحمل ماقد يصيبهم من مصائب وآلام . فتهون عليهم مصائبهم وآلامهم إذ يرون أنه قد ابتلى بأكثر منهم ولفترة طويلة . فصبر .

« إنا وجدناه صابرا . نعم العبد إنه أواب » . (٤٤ – ص)

---

* من إعجاز القرآن . جزء ٢ ص ٢٠٠

قال رسول الله ﷺ : الصبر نصف الإيمان . أخرجه أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود .

قلنا إن أيوب تزوج رحمة بنت أفرايم بن يوسف . ومن المؤكد – أنه بعد عدة سنوات فكر أن يزور أهل زوجته فى مصر . كان يوسف عليه السلام قد مات وكان أحمس قد طرد الهكسوس . وكما سبق أن قلنا (ص ٥٤٤) إن أحمس كان قد وضع عيونا على بنى يعقوب . فلما قدم أيوب مصر لعل فرعون استدعاه . وتأكد للفرعون أنها مجرد زيارة عائلية لأهل زوجته . لاندرى شيئا عن المحادثة التى جرت بينهما . ولكن لاشك أنها تطرقت إلى التوحيد الذى يدين به بنو يعقوب وأيوب كذلك . وإل ما يدعيه الفراعين من بنوة للآلهة أو ألوهية . ويبدو أن أيوب لم يشأ تسفيه المعتقدات المصرية بهذا الخصوص . ولعله رأى أن أحمس وهو فى أوج فخره بنفسه لنجاحه فى طرد الهكسوس وضم فلسطين وسوريا لمصر إذا جوبه بمثل هذا القول فقد يكون رد الفعل هو تصرفات إنتقامية تنال من بنى يعقوب – أصهاره – فكان أن كلمه كلمات فيها لين ومجاملة .

وعاد أيوب إلى بلاده ونسى هذا الأمر .

أفردت التوارة لأيوب سفرا كاملا به ٤٢ إصحاحا :

كان رجل فى أرض عوص . اسمه أيوب ....

وقيل عن أرض عوص * : فيها أقام أيوب . وكان الأدوميون يقيمون فيها . وهذا يؤيد شجرة النسب التى ذكرناها وأنه من نسل عيسو الذى هو أدوم .

كان أيوب – رجلا كاملا ومستقيما – يتقى الله ويبعد عن الشر . وولد له سبعة بنين وثلاث بنات . وقيل كانت مواشيه سبعة آلاف من الغنم وثلاثة آلاف جمل وخمسمائة فدان مراعى وأبقار كثيرة . وخمسمائة آتان (حمارة) . وخدم وعبيد كثيرون . وكان من أعظم رجال عصره. وكان يقدم لله قرابين . تزكية عن أولاده وعما قد يكونوا ارتكبوه من ذنوب . كان تقيا لم يغره الغنى . وكان يكثر من ذكر الله تعالى .

جاء فى حديث قدسى . أخرجه الطبرانى عن ابن عباس :

قال الله تعالى : إذا ذكرنى عبدى خاليا . ذكرته خاليا . وإذا ذكرنى فى ملإ ذكرته فى ملإ خير من الملإ الذى ذكرنى فيه .**

وفى حديث آخر أخرجه الطبرانى عن معاذ بن قيس :

قال الله **تعالى : لايذكرنى** عبد فى نفسه إلا ذكرته فى ملإ من ملائكتى . ولا يذكرنى فى ملإ إلا ذكرته فى **الرفيق الأعلى** .

---

* قاموس الكتاب **المقدس . دار الثقافة** ص ٦٤٧

** الإتحافات السنية فى الأحاديث القدسية . محمد المدنى . ص ٣٧ ، ٣٩ .

وقال وهب . فإذا ذكر الله تعالى عبدا بخير تلقاه جبريل ثم من حوله من الملائكة فتصير الصلاة على ذلك العبد من أهل السموات . فإذا صلت عليه ملائكة السموات هبطت عليه بالصلوات إلى ملائكة الأرض .

قيل . فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب . فأدركه الحسد وقال * : يا إلهى ، نظرت فى أمر عبدك أيوب فوجدته عبدا أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك . ثم لم تختبره بشدة ولا ببلاء . وأنا زعيم بأنك لو ضربته ببلاء ليكفرن بك ولينسينك . فقال الله تعالى : إنطلق إليه فقد سلطتك على ماله وولده .

ومختصر ماجاء فى التوراة ** :

وكان ذات يوم أن رسولا جاء إلى أيوب وأخبره أنه بينما البقر كانت تحرث الأرض والأتن والجمال ترعى بجوارها . سقط عليها العدو وأخذها . وجاءت صاعقة فأحرقت الغنم والغلمان . ثم جاء رسول آخر وأخبره أنه بينما أبناؤه وبناته يأكلون فى بيت أخيهم الأكبر ، إذ سقط البيت عليهم فهلكوا جميعا . فلما سمع أيوب بهذه المصائب كلها خر وسجد وقال : عريانا خرجت من بطن أمى وعريانا ثُم أعود . الرب أعطى والرب أخذ . فليكن اسم الرب مباركا . فى كل هذا لم يخطىء أيوب ولم ينسب جهالة لله .

جاء فى حديث قدسى *** : إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته : قبضتم ولد عبدى ؟ فيقولون نعم . فيقول قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون نعم . فيقول ماذا قال عبدى ؟ فيقولون حمدك واسترجع . فيقول الله : ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد .

رواه ابن حيان والبيهقى عن أبى موسى . وأخرجه أحمد والترمذى . وقال حسن غريب .

يقال **** : فعاد إبليس يكلم الله قائلا : لقد هان أمر المال والولد على أيوب ، ولكن إن ابتليته فى جسده لينسينك وليكفرن بك . فقال الله تعالى : انطلق فقد سلطتك على جسده . ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه ولا على عقله . وكان تسليطه عليه ابتلاء من الله ليعظم له الثواب وليجعله مثالا للصبر . يتأسى به الناس فى الصبر ورجاء الثواب .

فأصاب المرض جلد أيوب وانتشرت الدمامل فى كل جسمه ، قالوا فعافه كل الناس وكل من حوله ولم يعودوا يطيقون النظر اليه . فخرج وجلس على كومة رماد خارج البلدة بعيدا عن الناس . حتى لايزداد ألما . بإعراضهم وابتعادهم عنه . وبالغ البعض فى بيان ما أصابه

---

* عرائس المجالس الثعلبى ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

** إصحاح ١ . أيوب .

*** الإتحافات السنية فى الأحاديث القدسية . محمد المدنى ص ١١٦ .

**** البداية والنهاية . ابن كثير جـ ١ ص ٢٠٧ .

مبالغات غير مقبولة . وأفاضوا فى وصف كيف أصبح منظره بشعا ومنفرا . وأنه لجأ إلى كومة « الزبالة » حيث يحرق الروث والنفايات . وقال ابن كثير * إنه أصيب بالجذام فى سائر بدنه . ولم يبق منه سليما سوى قلبه ولسانه يذكر بهما الله عز وجل . وقال الحسن البصرى وقتادة : ابتلى أيوب عليه السلام سبع سنين وأشهرا يرعى فى جسده الدود وتعبث به الدواب . وقال السدى : تساقط لحم أيوب حتى لم يبق إلا العصب والعظم .

ويرى آخرون ** أن أيوب كان أكرم على الله من أن يلقى على « مزبلة » وأن يصاب بمرض ينفر الناس ويقرزهم . ويرى أن ما أصيب به أيوب من مرض إنما كان من النوع غير المنفر . وأنه من الأمراض التى لايظهر أثرها على البشرة كالروماتزم وأمراض المفاصل .

ولا نرى هذا الرأى إذ أن قوله تعالى : « هذا مغتسل بارد » يدل على أن المرض كان جلديا . لأن الأمراض الجلدية هى التى تعالج بالغسول وما شابهه . ولاينفى أنه كانت هناك أيضا آلام فى المفاصل أو العضلات لقوله تعالى : « وشراب » . ويرى أخصائيو الأمراض الجلدية *** أن مرض أيوب كان هو « الالتهاب الجلدى عقبولى الشكل . Dermatitis Herpetiformis وهو مرض مزمن . وقد عرف حاليا أن سببه هو نوع من الحساسية لمركب الجلوتين الموجود فى القمح والشعير والذرة والأرز . والحساسية – كما هو معروف – استعداد فى الجسم . ورد فعل عنيف – لبعض الأجسام التى تدخل أو يتعرض لها الجسم . وللآن لا يعرف بالتحديد لماذا يصاب شخص ما بالحساسية ولايصاب شخص آخر . وارتباط المرض بحالة المريض النفسية معروف . فالتبرم والضجر . والغضب واليأس . تزيد الحالة سوءا . وفى فترات الراحة النفسية . تخف حدة المرض . وقد يشفى المريض مؤقتا إذا امتنع عن تناول أغذية بها مركب الجلوتين وهذا مالم يكن معروفا فى ذلك الوقت . كما لم يكن ممكنا – إذ لايمكن العيش بدون أكل قمح أو شعير أو أرز أو ذرة – أما أن يشفى المريض كلية من المرض فهذا لايكون إلا بمعجزة حينما يريد الله للمريض الشفاء .

قلنا إن أيوب فقد ثروته من الغنم والبقر وفقد أولاده . ثم لما ابتلى فى جسده تجنبه الناس ولم يعودا يشترون منه أو يبيعونه شيئا فبارت تجارته . ثم بدأ يستقدم الأطباء من كل ناحية لمداواته ولم يُجد دواؤهم شيئا . ونفذ المال الذى كان يدخره . وخرجت امرأته تعمل لدى الناس بأجر . والناس يرأفون بحالها وحاله ويجزلون لها الأجر . وطال مرضه .

قال أنس : ابتلى سبع سنين وأشهرا .

وقال وهب : ابتلى ثلاث سنين لاتزيد ولا تنقص .

* البداية والنهاية . ابن كثير جـ ١ ص ٢٠٧ .
** محمد بن أبو شهبة . الاسرائيليات والموضوعات . ص ٣٩٢
*** جلدك . دكتور محمد الظواهرى . ص ٦٤

وقال ابن أبى حاتم وابن جرير عن آخرين عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : إن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة .

وقال السدى ، فلما طال عليه قالت له إمرأته : يا أيوب ، لو دعوت ربك لفرج عنك . فقال : قد عشت سبعين سنة صحيحا فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة . فجزعت من هذا الكلام.

جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى :

« ونبلوكم بالشر والخير فتنة . وإلينا ترجعون » . (٣٥ — الانبياء)

وقوله تعالى :

« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم » . (من الآية ١٨٦ – آل عمران)

والله يختبر العبد بالمصائب تارة . وبالنعم تارة أخرى .

ولقد اختبر الله تعالى أيوب بالنعمة : الثراء والجاه والصحة والمال والولد . فشكر . وكانت إرادة الله تعالى أن يختبره أيضا بالشر : بفقدان المال والولد . فصبر . ثم كان ابتلاؤه فى جسده وصحته لينظر هل يصبر أم لا .

فى حديث قدسى أخرجه الديلمى عن أنس :

يقول البلاء كل يوم : إلى أين أتوجه ؟ فيقول الله عز وجل : إلى أحبابى وأولى طاعتى . أبلو بك أخبارهم . وأختبر صبرهم . وأمحص بك ذنوبهم وأرفع بك درجتهم . ويقول الرخاء كل يوم : إلى أين أتوجه ؟ فيقول الله عز وجل : إلى أعدائى وأهل معصيتى . أزيد بذلك طغيانهم . وأضاعف بك ذنوبهم وأعجل بك لهم . وأكثر بك غفلتهم .

فليس البلاء أو الإبتلاء تعبيرا عن سخط الله على العبد أو غضبه عليه . بل قد يكون اختبارا من الله للعبد ليعلى من درجته يوم القيامة . ولكن فى نفس الوقت قد يكون الابتلاء أيضا تكفيرا لبعض الذنوب التى ارتكبها المرء فى غفلة أو دون أن يدرى – أو هى من الصغائر أو اللمم ، ولكن الله تعالى يريد أن يسقطها عنه ليعظم له أجرا .

« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم . ويعفوا عن كثير » .

(٣٠ – الشورى)

فما يصيب الناس من مصائب فإنما عن سيئات عملوها . ويعفو الله عن كثير من السيئات فلا يجازى بها .

وفى الحديث الشريف : والذى نفسى بيده . مايصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولاهم ولا

حزن ، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه . حتى الشوكة يشاكها . حديث صحيح .

ولكن الإنسان قد يكون نسى هذه الذنوب الصغيرة ، أو ارتكبها دون أن يظن أنها ذنوب . وبذلك يتوهم أن البلاء الذى نزل به لم يكن بسيئة ارتكبها .

وقال الامام أحمد عن آخرين عن معاوية بن أبى سفيان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: مامن شىء يصيب المؤمن فى جسده يؤذيه إلا كفر الله تعالى عنه به من سيئاته .

وعن الحسن البصرى أنه قال : لما نزل قوله تعالى : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير . قال رسول الله ﷺ : والذى نفس محمد بيده ، ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر .

وأخرج الترمذى عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : لا يصيب عبدا نكبة فما فوقها أو مادونها إلا بذنب . وما يعفو الله تعالى عنه أكثر .

كذلك جاء قوله تعالى :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

(٧ – ٨ الزلزلة)

أخرج الطبرانى والبيهقى وابن أبى هاشم وجماعة عن أنس قال * : بينما أبو بكر الصديق يأكل مع النبى ﷺ . إذ نزلت عليه « فمن يعمل مثقال ذرة .. الآية » فرفع أبو بكر يده . وقال : يارسول الله إنى لراء ما عملت من مثقال ذر من شر ؟ . فقال عليه الصلاة والسلام : يا أبا بكر . أرأيت ما ترى فى الدنيا مما تكره . فبمثاقيل ذر الشر . ويدخر لك مثاقيل ذر الخير حتى توفاه يوم القيامة . وفى رواية ابن مردويه على أبى أيوب . أنه ﷺ قال إذ رفع أبو بكر يده : من عمل منكم خيرا فجزاؤه فى الآخرة . ومن عمل منكم شرا . يره مصيبات وأمراضا . ومن يكن فيه مثقال ذرة من خير دخل الجنة .

فى ضوء هذه الآيات الكريمة والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية الشريفة قد يثور تساؤل:
هل كان ابتلاء أيوب بسبب ذنب ارتكبه ؟ وهو نبى والأنبياء معصومون عن الذنوب . حتى قبل اصطفائهم للنبوة .

وهنا تثور مسألتان :

١ – الاختلاف فى تقدير الذنب .

٢ – متى أصبح أيوب نبيا . قبل البلاء أم بعده ؟

---

* تفسير الألوسى . جـ ٣٠ ص ٢١٢.

١ - الاختلاف فى تقدير الذنب :

فما يعتبر حسنة عند العوام قد يكون ذنبا عند المقربيين . وإلى هذا يشير معنى المثل القائل: نوم الظالم عبادة . لأن النوم يمنعه من ارتكاب ظلم جديد يضاف إلى ذنوبه . أما نوم العابد فهو ذنب لأنه يمنعه عن ذكر الله . ومثال آخر أن عبدا يكتفى بصلاة العشاء . هذا سقط عنه الفرض . وآخر يصلى السنة والشفع والوتر . أما المقربون . فقيام الليل واجب وإلا عدوا مقصرين فى حق الله .

ويقول الإمام الغزالى * . يعظم من العالم . مالا يعظم من الجاهل . ويتجاوز عن العامى فى أمور لايتجاوز فى أمثالها عن العارف . لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف وعلمه.

٢ - متى أصبح أيوب نبيا ؟ قبل البلاء أم بعده ؟

معظم الكتب التى كتبت عن قصص الأنبياء - أو كلها - ترى أن النبوة كانت قبل الابتلاء . ويستشهدون بحديث رسول الله ﷺ : أشد الناس بلاء الأنبياء . ثم الصالحون . ثم الأمثل فالأمثل . فالرجل يبتلى على حسب دينه . فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه.

فيقول ابن كثير ** : ولم يزد هذا كله (أى البلاء) أيوب عليه السلام إلا صبرا واحتسابا وحمدا وشكرا حتى أن المثل ليضرب بصبره عليه السلام . ويضرب المثل أيضا بما حصل له من أنواع البلايا (من القرح والدمامل . وأن الدود كان يرعى فى جسده وغير ذلك) ومن طول البلاء (قيل ثلاث سنوات إلى ثمانى عشرة سنة) .

ويقول الاستاذ عبد الوهاب النجار *** : إن الناس يروون فى بلاء أيوب أقوالا تدل على أنه مرض مرضا مشوها ومنفرا للناس من قربه أو الدنو منه . وهذا يتنافى مع منصب النبوة . ويقول : وقد قرر علماء التوحيد أن الأنبياء منزهون عن الأمراض المنفرة . ويرى أن المبالغين فى وصف ما أصاب أيوب إنما اعتمدوا على ماجاء فى سفر أيوب بالتوارة - وأن هذا السفر قد تم تأويل عباراته حتى أنه ليشبه قصائد شعريه قيلت فى وصف ضره وصبره . والشعر فى كل لغة ميدان المبالغة . ويُنهى رأيه بقوله إن البلاء لم يكن منفرا بحيث يتعارض مع منصب النبوة الذى كان له قبل البلاء .

ويعتنق هذا الرأى أيضا الاستاذ أحمد بهجت **** بل إنه يستشهد بنفس فقرات التوارة ونفس أبيات شعر عمر بن الفارض لإثبات مبالغات وصف المرض وآلام أيوب .

---

* إحياء علوم الدين . أبو حامد الغزالى . جـ ٤ ص ٣١ .
** البداية والنهاية جزء ١ ص ٢٠٧ .
*** قصص الأنبياء ص ٣٦٦ .
**** أنبياء الله ص ١٦٩ .

ويمثل هذا قال الثعلبى * : إذ ذكر فى قصة أيوب : وكان الله قد اصطفاه ونبأه وبسط عليه الدنيا . ثم يقول وكان معه ثلاثة قد آمنوا به وصدقوه وعرفوا فضله . وذكر أسماءهم : أليفن ومالك وظافر – وهو تعريبه لأسمائهم التى ردت فى التوراة : أليفاز – بلدد – صوفر .

وجاء فى تفسير الألوسى ** : أن أهل التحقيق قالوا إنه لايجوز أن يكون المرض بصفة يستقذره الناس عليها لأن فى ذلك تنفيرا . فأما الفقر والمرض وذهاب الأهل فيجوز أن يمتحنه الله تعالى بذلك .

وفى هداية المريد للقانى أنه يجوز على الأنبياء عليهم السلام كل عرض بشرى ليس محرما ولا مكروها ولا مزريا . ولا مما تعافه النفس . ولا مما يؤدى إلى النفرة مثل البرص والجذام وأمراض أخرى مثل الإقعاد والعمى والجنون . وأما الإغماء فقال الثورى : فلا شك فى جوازه عليهم لأنه مرض . بخلاف الجنون فإنه نقص . وقيد أبو حامد الغزالى الإغماء بغير الطويل . وقال السبكى : وإغماؤهم ليس كإغماء غيرهم لأنه إنما يستر حواسهم الظاهرة دون قلوبهم لأنها معصومة . قال : ويمتنع عليهم الجنون وإن قل . لأنه نقص . وكذلك يمتنع عليهم العمى . ولم يعم نبى قط . وما ذكر عن شعيب من كونه كان ضريرا لم يثبت . وأما يعقوب فحصلت له غشاوة وزالت .

هذه آراء من رأوا أن البلاء كان بعد النبوة .

ولا نرى هذا الرأى . **ورأينا أن البلاء كان قبل النبوة .**

فالأنبياء – لكمال طبعهم . وعظم أخلاقهم — يتحلون بالصبر .

أما الإنسان العادى فهو ميال بطبعه إلى الجزع والهلع عند وقوع بلاء أو مصيبة به . مما ينتج عنه شلل أو إصابة بذبحة قلبية فى بعض الأحيان . وأقل شىء الحزن الشديد والمبالغ فيه فالإنسان العادى . كما أخبر الله تعالى :

« إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين » . (١٩ – ٢٢ المعارج)

فإذا كان المصلون يستثنون من الهلع والجزع – أى أن المصلى يكون صبورا . فما بالنا بالأنبياء ! فالمفروض أن يكونوا أكثر صبرا . لأنهم على منزلة من ربهم تفوق منازل غيرهم من الناس . فإذا مس الشر نبيا وصبر . فقد أتى بما هو مفروض عليه لكونه نبيا .

---

* عرائس المجالس للثعلبى ص ١٨٤ .

** تفسير الألوسى جـ ٢٣ ص ٢٦٦ .

وجاء قوله تعالى مخاطبا الرسول ﷺ :

« **واصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل** » . **(من الآية ٣٥ – الأحقاف)**

واختلفوا فى تعداد أولى العزم * . أشهرها : أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام بالاضافة إلى خاتم الأنبياء ﷺ . وقد يكون المراد بأولى العزم من الرسل أن « من » هى لبيان الجنس أى أن أولى العزم كلهم من الرسل . فيكون أولوا العزم صفة الرسل جميعهم ويكون المعنى : فاصبر على مكابدة الشدائد مطلقا كما صبر إخوانك الرسل قبلك . ومن هذا يكون الصبر من الأنبياء لازم لكمال خلقهم ** .

أما الإنسان العادى . فقد خلق هلوعا بطبعه . إذا مسه الشر جزوعا . فإذا تمسك إنسان عادى بالصبر . فهذه له محمدة . وإذا كان الشر الذى مسه شديدا . ناله فى ماله وولده ثم فى جسده . وطال مكثه . ليس سنة أو سنتين أو خمسا . بل ثمانى عشرة سنة . وظل صابرا . فقد بلغ درجة الصبر التى يكون عليها الأنبياء والرسل . ويكون البلاء وما صاحبه من ألم وشدة قد أزالا من النفس أى هلع . وأى جزع . فلم يعد يشعر بأى منهما . لأن رضاه بقضاء الله وقدره قد شغل قلبه . فلا محل لشعور آخر . كما أن حبه لله قد ملك عليه حواسه . بحيث أصبح صابرا . بل ومستعذبا لما به . وكما قيل :

وما لجرح إذا أرضاكم ألم

ومرحلة الرضا هذه تجعل المرء فى درجة تقرب من « المقربين » وهى الدرجة التى عليها الأنبياء والرسل .

وهذا ما فعله أيوب – إذ صبر على كل البلاء الذى نزل به فنال هذه الدرجة . فاختاره الله نبيا .

وعليه . **ففى رأينا – أن بلاء أيوب كان قبل النبوة .**

وقد روى أن النبى ﷺ سأل طائفة من أصحابه : ما أنتم ؟ فقالوا : مؤمنون . فقال : ما علامة إيمانكم ؟ قالوا : نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء . فقال : مؤمنون ورب الكعبة . وفى رواية أخرى أنه قال : حكماء علماء . كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء .

وحديث آخر . قال ﷺ : إذا أحب الله عبدا . ابتلاه . فإن صبر . اجتباه . فإن رضى اصطفاه .

---

* تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٧٢

** تفسيير الألوسى جـ ٢٦ ص ٣٤ .

فهذه ثلاث مراحل : الابتلاء ثم الاجتباء ثم الاصطفاء .

فالبلاء أولا . فإذا صبر العبد . اجتباه الله . والاجتباء من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك . والمعنى اختاره الله لفضائل فيه . والصبر من هذه الفضائل . وجاء في قصة يوسف عليه السلام قوله تعالى :

« وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث . ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب . كما أتمها على أبويك من قبل . إبراهيم وإسحق . إن ربك عليم حكيم ».
(٦ - يوسف)

كان البلاء بالقائه في الجب . فصبر . فكان الاجتباء . وعلمه الله تأويل الأحلام والرؤى . فتوصل بذلك إلى المكانة الرفيعة في الدنيا . ثم كان تمام النعمة بالنبوة .

والاصطفاء من الصفوة . وهم خيار القوم . وجاء قوله تعالى :

« قال ياموسى . إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي » .
(من الاية ١٤٤ - الأعراف)

فالاصطفاء على الناس هو انتقاؤه من بينهم ليكون محلا للرسالة ولكلام الله .

« الله يصطفي من الملائكة رسلا . ومن الناس ». **(٧٥ - الحج)**

فالمراحل كما وردت في الحديث الشريف هي بالترتيب التالي :

البلاء - الصبر - الاجتباء - الرضا - الاصطفاء .

وعلى هذا نرى أن أيوب كان رجلا صالحا . اختبره الله بالصحة والغنى فشكر . فأحبه الله. ثم ابتلاه بفقد المال والأهل وبالمرض فصبر فاجتباه . وزيد البلاء . فرضي . فاصطفاه الله نبيا . وكان البلاء قبل النبوة . وكان الصبر على البلاء . والرضا بالقضاء هو الطريق إلى النبوة .

الاختبار بالخير والشر :

جاء في حديث أخرجه الديلمي من رواية يزيد الرقاشي عن أنس * : الإيمان نصفان . نصف صبر ونصف شكر .

---

* إحياء علوم الدين . أبو حامد الغزالي . جـ ٤ ص ٥٨ .

والشكر على النعمة يكون بحمد الله . والتيقن أن النعمة هى منة من الله . ثم استعمالها فى طاعة الله .

قال رسول الله ﷺ لرجل : كيف أصبحت ؟ قال بخير . فأعاد رسول الله السؤال ثلاث مرات حتى قال . بخير . أحمد الله وأشكره . فقال ﷺ . هذا الذى أردت منك . أخرجه الطبرانى ومالك .

وقد كان أيوب رجلا صالحا . من نسل عيسو . يعبد الله على الملة الحنيفية دين إبراهيم جده . وإسحق أبيه .

وكان غنيا يكثر من الصدقات وأعمال البر . وإقبال الدنيا على المرء هو اختبار له :

« إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها . لنبلوهم أيهم أحسن عملا ».

(٧ – الكهف)

واجتاز أيوب هذا الاختبار . وشكر الله تعالى على نعمائه .

بقى الاختبار بالشر أى بالبلاء .

« ونبلوكم بالشر والخير فتنة . وإلينا ترجعون » . (٣٥ – الانبياء)

والبلاء قد يكون بذنب . وقد يكون بدون ذنب .

وقد ذكرنا سابقا (ص ٥٩٩) أن البلاء يكفر الذنوب .

أما البلاء بدون ذنب فيكون اختبارا لإظهار خبايا النفوس . والله عليم بها . ولكن ليعلم المرء ماقد كان خافيا عليه من دخيلة نفسه .

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » . (٣١ – محمد)

ومعناه حتى يظهر علمنا بوقوعه . وتعلمونه أنتم كذلك لصدوره منكم وقال الله تعالى:

« يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك » . (من الاية ١٥٤ – آل عمران)

« وليبتلى الله مافى صدوركم . وليمحص مافى قلوبكم » .

(من الاية ١٥٤ – آل عمران)

والآيتان – وإن كانتا قد قيلتا فى غزوة أحد – إلا أنهما توضحان أن الابتلاء يكون لإظهار ماتخفى الأنفس – ولبيان مافى الصدور .

---

* الاتحافات السنية فى الاحاديث القدسية – محمد المدنى ص ٣٣ .

هنا يثور السؤال : **هل كان ابتلاء أيوب بذنب أم بدون ذنب ؟**

من الطبيعى أن من يعتقدون بنبوة أيوب قبل الابتلاء . يرون أن ابتلاء أيوب كان بدون ذنب لعصمة الانبياء . ويكون ابتلاؤه محض اختبار من الله تعالى لقوة صبره وعمق إيمانه .

أما من يرون أن النبوة كانت بعد الابتلاء والصبر عليه . فلا بأس عندهم من أن البلاء كان بذنب . إذ عند وقوع الذنب كان رجلا صالحا ولم يكن بعد نبيا .

فى حديث قدسى * : أخرجه الديلمى وابن النجار عن عقبة بن عامر .

قال الله عز وجل لأيوب : تدوى ماجرمك إلى حتى ابتليتك ؟ قال : لايارب . قال : لأنك دخلت على فرعون فأدهنت بكلمتين .

والإدهان كلمة لينة فيها مجاملة .

وقد سبق أن ذكرنا (ص ٥٩٦) زيارة أيوب لمصر ومقابلته لأحمس . وقد يبدو أن هذا الذنب بسيط . ولكن سبق أن أوضحنا (ص ٦٠١) أن الذنب يكبر إذا كان من ارتكبه مقربا إلى الله . وكان أيوب يكثر من شكر الله على نعمائه حتى أصبح أو كاد أن يكون من المقربين إلى الله .

وهكذا كانت إرادة الله أن يبتلى أيوب – كما سبق أن أوضحنا – بضياع المال والولد. فصبر .

وأراد الله أن يزيد بلاءه حتى يعلى من درجته أكثر فأكثر تبعا لمقدرته في الصبر على البلاء. فكان الابتلاء فى الجسد بالمرض .

والتصرف عند البلاء يكون بطريقتين :

١ – **الجزع** والمبالغة فى الشكوى وإظهار الكآبة وهو يتنافى مع الإيمان الحق .

٢ – **الصبر** : قال رسول الله ﷺ : الصبر نصف الإيمان . وقال كذلك : من إجلال الله ومعرفة حقه . أن لاتشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك .

فى حديث قدسى : قال الله عز وجل : إذا اشتكى عبدى فأظهر المرض قبل ثلاث فقد شكانى . أخرجه الطبرانى عن أبى هريرة . *

وإظهار المرض يكون بالحديث عنه أو بالشكوى منه أو بالبرم والضجر . ولم يحدد الحديث القدسى ماهية الثلاث . والمفهوم أنها ثلاث ليال أو ثلاث أيام . ولعل هذا فى مايسمى بالحالات الحادة . أما الحالات المزمنة مثل الشلل أو مرض أيوب فلا شك أن المقصود ثلاث سنوات . ولعل تحديد المدة فى الحديث بثلاث . لأن الله عز وجل عالم أن بعض الناس إذا طال بهم البلاء

---

* الإتحافات السنية فى الأحاديث القدسية . محمد المدنى ص ٣٣ ، ٥١ .

أكثر من هذا . سيتحدثون عما بهم لزوارهم رغما عن محاولتهم كتمانه فكانت مشيئته ألا يحملهم فوق طاقتهم . فقد يكون في البوح – أو الفضفضة – عما بهم راحة نفسية لهم لشعورهم بتعاطف الآخرين معهم . فيواسونهم بكلمة تعينهم على تحمل آلامهم .

أفردت التوارة لأيوب سفرا كاملا من أربعين صفحة – هو سفر أيوب به تفصيل مناقشات دارت بينه وبين أصحاب له كانوا يترددون عليه بين الحين والآخر . وقد أشار حديث شريف إلى هؤلاء الأصدقاء .

فى حديث * رواه ابن أبى حاتم بسنده عن الزهرى عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : إن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة . فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له . كانا يغدوان إليه ويروحان . فقال أحدهما لصاحبه : يعلم الله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين . قال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : من ثمانى عشر سنه لم يرحمه ربه فيكشف مابه . فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له . فقال أيوب : لا أدرى ماتقول . غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكـران الله . فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما كراهية أن يذكرا الله إلا فى حق .

وتقول التوارة (اصحاح ٢ أيوب) ما مختصره :

فلما سمع أصحاب أيوب بكل البلاء الذى أتى عليه جاءوا ليرثوا له ويعزوه وقعدوا معه على الأرض سبعة أيام وسبع ليال .. ولم يكلمه أحد بكلمة لأنهم رأوا أن كآبته كانت عظيمة جدا .

بعد هذا تكلم أيوب وسب يومه .

ولا نوافق على أن أيوب سب يومه .

فى حديث قدسى ** أخرجه الشيخان . وأحمد وأبو داود عن أبى هريرة قال الله عز وجل : يؤذينى ابن آدم . يسب الدهر . وأنا الدهر . بيدى الأمر . أقلب الليل والنهار .

وفى حديث آخر رواه مسلم عن أبى هريرة . قال الله تعالى : يؤذينى ابن آدم . يقول ياخيبة الدهر . فلا يقولن ياخيبة الدهر . فإنى أنا الدهر . أقلب ليله ونهاره . فإذا شئت قبضتهما .

وهكذا نرى أن أيوب . ظل صابرا عدة سنوات . أكثر من ثلاث . لم يتكلم عن مرضه أو عما يشعر به لأحد . وطال مرضه .

والمرض إذا طال واستطال . يؤثر على حالة المريض النفسية . ويضعف من إرادته . ومن

---

* البداية والنهاية . ابن كثير . جـ ١ ص ٢٠٨ .

** الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية . محمد المدنى . ص ٢٧ .

هنا يكون المنفذ لوسوسة الشيطان محاولا أن يزعزع إيمان المرء بالله . ويجاهد الشخص لدفع هذه الوساوس بعيدا . ويكابد كثيرا فى ذلك .

وهذا ماكان من أمر أيوب .

« واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه . أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب » .

(٤١ - ص)

والشيطان ليس له من سلطان على ابن آدم إلا الوسوسة فيحاول أن يقنطه من رحمة الله ويوسوس إليه بظلم القضاء . وكان أيوب يجاهد فى دفع هذه الوساوس عن نفسه حتى ناله تعب وعذاب . ولما طال مرضه وجاءه أصحابه يزورونه راح ينفس عما بداخله . فقال مامعناه : ليتنى لم أولد . ولعل الشيطان راح يوسوس له أن يتمنى الموت .

قال الإمام أحمد بن حنبل . عن آخرين عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به . فإن كان ولابد متمنيا الموت فليقل : اللهم أحينى ماكانت الحياة خيرا لى . وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى . مخرج فى الصحيحين هكذا : لايتمنين أحدكم الموت لضر نزل به . إن كان محسنا فيزداد إحسانا وإن كان مسيئا فلعله يستعتب . ولكن ليقل اللهم أحينى ماكانت الحياة خيرا لى . وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى .

وقال الإمام أحمد عن آخرين عن أبى إمامة : قال : جلسنا إلى رسول الله ﷺ . فذكرنا (والمعنى ذكرنا الآخرة) فبكى سعد بن أبى وقاص . فأكثر البكاء وقال : ياليتنى مت . فقال النبى ﷺ : ياسعد أعندى تتمنى الموت ؟ فردد ذلك ثلاث مرات . ثم قال : ياسعد . إن كنت خلقت للجنة . فما طال من عمرك وحسن من عملك فهو خير لك .

قالوا . هذا إذا كان الضر خاصا بالمرء . فى ماله أو ولده أو جسده . أما إذا كان فتنة فى الدين فيجوز سؤال الموت* . كما قال الله تعالى : إخبارا عن السحرة لما أراد فرعون أن يصدهم عن الإيمان برب موسى وتهددهم بالقتل . قالوا :

« ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين » . (١٢٦ - الأعراف)

كما أن مريم لما جاءها المخاض . وخشيت أن يرميها الناس بالفاحشة قالت :

« قالت ياليتنى مت قبل هذا . وكنت نسيا منسيا » . (٢٣ - مريم)

وفيما عدا ذلك فلايجوز للمرء أن يتمنى الموت . بلفظ صريح أو لفظ يضمر هذا المعنى .

---

* تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٩٢ .

وقد أفاضت التوارة في نسبة ذلك الأمر لأيوب . ولعله راح يحدث أصحابه بالصراع الذي كان يدور في داخله . جاء بالاصحاح ٣ أيوب كلام يحمل معنى مستترا لتمنى الموت . فقد ورد أنه قال :

أ – ليت اليوم الذى ولدت فيه لم يكن .

ليته هلك اليوم الذى ولدت فيه ليكن ذلك اليوم ظلاما . ولايشرق عليه نهار ليحل عليه سحاب . وليحدث له كسوف يرعبه ويظلمه .

أما ذلك الليل – الذى قد قيل قد حُبِلَ فيه برجل – فليمسكه الدجى . ولايدخلن فى عدد الشهور . لتظلم نجومه . ولا يكن نور ولا ير هدب الصبح .

ب – ثم تمنى أنه لم يولد فقال :

لِمَ لَم أمت في الرحم ؟ عندما خرجت من البطن لِمَ لَم أسلم الروح ؟ لو حدث هذا لكنت الآن مضطجعا ساكنا (أى ميتا) كأجنة لم يروا النور . أو كسقط مطمور (إجهاض) . فى الموت يستريح المتعبون .

ثم يتساءل عن معنى الحياة إذا كانت بهذا الشقاء فيقول :

لِمَ يُعطى لشقى نور ؟ ولِمَ تعط الحياة لتكون مرارة للنفس ؟ إنه لحرى بهؤلاء أن يبتهجوا عندما يجدون قبرا !

وفى رأينا أن تمنى عدم الوجود يماثل تمنى الموت ويحمل معنى عدم الرضا بالحياة . وعدم الرضا بنصيبه منها وبالقضاء والقدر . وفيها ضجر وتبرم بحاله . وكل هذه المعانى تستوجب التكفير عنها . وكانت سببا فى بقاء البلاء عدة سنوات .

كانت **كلمة الصديق الأول** كلمة تشجيع فقال له :

١ – فى الماضى أرشدتَ كثيرين . وساندتَ آخرين فى محنتهم . وأقلتَ العاثر وكنت سندا للخائفين . والآن إذا جاء عليك ضجرت ؟

٢ – وإذا كنت تنظر إلى تقواك واتباعك الطريق القويم وأنك مع هذا قد نزل بك بلاء . فتذكر أنك لست وحدك فى ذلك . بل هناك كثيرون وتذكر من هلك وهو برىء .

٣ – ثم هو يحذر أيوب من أن ينسب إلى القدر الظلم . فالقدر تجرى به الملائكة بأمر من الله تعالى فكأنه يحذره من أن ينسب الظلم إلى الله .

٤ – ثم يعزيه قائلا : إن الشقاء مكتوب على الإنسان ولا فائدة من الغضب .

٥ – ثم يوضح له قدرة الله وأنه يفعل مايشاء : فهو الفاعل لعظائم أمور لا تفحص . وعجائب لا تعد . المنزل مطرا على وجه الأرض . الجاعل المتواضعين فى العلا . المبطل أفكار المحتالين .

يجعل نهار الماكرين ظلاما .

وكأنه يقول : هو المعز المذل . الرافع . الخافض .

وكأنه يقول أيضا : لايسأل عما يفعل .

٦ - ثم يطلب منه أن يتحمل البلاء فيقول : هو ذا طوبى لرجل يؤدبه الله فلا ترفض تأديب القدير . لأنه هو يجرح ويعصب . يسحق ويداه تشفيان . بمعنى أنه يجرى القدر بالبلاء ولكنه يخفف منه . ويعين على تحمله . وهذا نفس معنى الدعاء :

اللهم لا نسألك رد القضاء . ولكن نسألك اللطف فيه .

اللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير .

٧ - ثم يقول له إن الله معك فى الشدة . وإذا كان الله معك فلا تخش شيئا . فلاتخاف من الخراب . ووحوش البرية تسالمك . وخيمتك آمنة وزرعك كثير .

أصدقاء أيوب يتهمونه بارتكاب الشر :

لما طال المرض بأيوب ، زاره أصدقاؤه ثانية واعتقدوا أنه لابد قد ارتكب شرا استحق بسببه هذا البلاء . ولعلهم استشعروا المعنى الذى تقوله الآية الكريمة :

« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » . (٣٠ - الشورى)

طاف هذا المعنى بأذهانهم . وعبر عنه أولهم تلميحاً بأن راح يذكر لأيوب مايستحقه الأشرار فقال :

- تقصر خطواته ويساق إلى الأهوال .
- من تحت تيبس أصوله ومن فوق يقطع فرعه .

وكأنه يقول له :

« كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار » . (٢٦ - ابراهيم)

- ذكره يبيد من الأرض . ولا اسم له على الأرض .
- يدفع من النور إلى الظلمة . ومن المسكونة يطرد .
- نور الاشرار ينطفىء ولا يضىء لهيب ناره . النور يظلم فى خيمته وسراجه فوقه ينطفىء.

وهذا مثل قوله تعالى :

« والذين كسبوا السيئات . جزاء سيئة بمثلها . وترهقهم ذلة . مالهم من الله

من عاصم . كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما » . (٢٧ – يونس)

– صوت الشرير لايرتفع . والشرير ينال جزاؤه .

– خبزه يتحول مرارة فى بطنه والمال الحرام الذى أكله سيتقيؤه والله سيطرد هذا المال الحرام من بطنه كقوس من نحاس . والسهم يخرج من بطنه .

– تأكله نار ترعى فى خيمته .

أما الصديق الثانى فكان صريحا وقال لأيوب إنه يستحق مانزل به من بلاء :

١ – إن أبناء أيوب – قد ارتكبوا ذنوبا فى حق الله . فكان أن جازاهم الله بالموت بسبب معصيتهم .

٢ – يتهم أيوب فيقول له لعلك ارتكبت أيًّا من الشرور الآتية :

ارتهنت أخاك بلا سبب وسلبت ثياب العراة .

ماء لم تسق العطشان وعن الجوعان منعت خبزا .

الأرامل أرسلت خاليات (من العطاء) وذراع اليتامى انسحقت . لأجل ذلك حواليك فخاخ . ويريعك رعب والظلام حولك .

ويقول له : إن الله لاتخفى عليه خافية :

هو ذا الله في عليائه فى السموات . فلعلك قلت كيف يعلم الله ؟

هل الضباب والسحاب يغطى فلا يعلم أعمالك ؟

هل على الطريق الذى سار عليه الآثمون قديما تمشى . وقد علمت أن الله جازاهم بأفعالهم . وأتى بنيانهم من القواعد .

فكأنه يقول له بأننا لانعرف ما ارتكبت من إثم ولكن الله يعلمه ويحاسبك عليه :

« إن الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » . (٥ – آل عمران)

« وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » . (٢٨٤ – البقرة)

واضح أن أصدقاء أيوب لم ينتبهوا إلى أن هناك نوع من البلاء يختبر الله به العباد . ليميز الله ضعيفى الإيمان من قويه . ليعظم لمن قوى إيمانه أجرا .

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم » .

(٣١ – محمد)

فهناك قوم يعبدون الله على حرف أى على طرف من الدين . فإن أُصابه خير دنيوى

كالرخاء والعافية والولد وكل مايشتهى ، ثبت على الدين . لا لأنه إطمأن به ، بل للخير الذى أصابه . وإن أصابه مكروه فى أهله أو ماله أو نفسه . سخط وضاق وتبرم وسب الدهر . وقد يرتد عن الإيمان وينقلب على وجهه .

« ومن الناس من يعبد الله على حرف . فإن أصابه خير إطمأن به . وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه . خسر الدنيا والآخرة . ذلك هو الخسران المبين ».
(١١ - الحج)

وفى حديث قدسى أخرجه الطبرانى والبيهقى .

إن الله تعالى يقول للملائكة : انطلقوا إلى عبدى فصبوا عليه البلاء صبا . فيأتونه فيصبون عليه البلاء . فيحمد الله . فيرجعون فيقولون : ياربنا . صببنا عليه البلاء صبا كما أمرتنا . فيقول : ارجعوا . فإنى أحب أن أسمع صوته .

وفى رأينا أن « أحب أن اسمع صوته » تعنى أن يسمعه الله يحمده على الضراء . كما كان يحمده فى السراء . إيمانا من العبد بأن قضاء الله وقدره لابد أن يتقبل بنفس راضية وبالشكر.

« وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » . **(من الآية ٢١٦ - البقرة)**

« فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » . **(١٩ - النساء)**

البلاء يكفر الذنوب .

أخرج الحاكم الحديث القدسى التالى :

إن العبد إذا مرض أوحى الله الى ملائكته : أنا قيدت عبدى بقيد من قيودى . فإن أقبضه أغفر له . وإن أعافه فحينئذ يقعد لا ذنب له.

وحديث آخر أخرجه ابن صخر عن أبى هريرة : *

إذا مرض العبد بعث الله تعالى إليه ملكين فيقول انظروا مايقول لعواده . فإن هو إذا دخلوا عليه حمد الله رفعوا ذلك إلى الله . وهو أعلم . فيقول : لعبدى إن أنا توفيته الجنة . وإن أنا شفيته أن أبدله لحما خيرا من لحمه . ودما خيرا من دمه . وأن أكفر عنه سيئاته .

وحديث آخر أخرجه أحمد والطبرانى وابن عساكر : **

قال الله عز وجل : إذا ابتليت عبدا من عبادى مؤمنا . فحمدنى وصبر على ما ابتليته . فإنه يقوم من مضجعه ذلك كيوم ولدته أمه من الخطايا . ويقول الرب للحفظة . إنى قيدت عبدى هذا وابتليته ، فأجروا له ماكنتم تجرون له قبل ذلك من الأجر وهو صحيح .

---

* إحياء علوم الدين . أبو حامد الغزالى جـ ٤ ص ٦٩ .

** الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية . محمد المدنى . ص ٢٢ .

أيوب ينفي ارتكاب الشر :

قال أيوب لأصدقائه إنه لم يفعل شرا وأنه كان تقيا :

١ – لم يزن حتى ولو بالنظرة .

٢ – لم يغش .

٣ – كان يعطف على اليتيم والمسكين والفقير .

٤ – لم يجعل جمع المال كل همه .

٥ – لم يتلوث ولو فى السر بعبادة الكواكب .

٦ – لم يتلوث بمرارة لأعدائه أو شماتة فيهم .

٧ – لم يأكل أجر الأجير .

ويؤكد أيوب أنه بار ولم يذنب فيقول :

– بخطواته استمسكَت رجلى . حفظت طريقه ولم أحد عنه . والمعنى سرت على الطريق المستقيم – طريق الله – ولم أنحرف عنه .

– من وصية شفتيه لم أبرح . بمعنى نفَّذت جميع أقواله وأوامره .

— أكثر من فريضتى عملت .

هذه الأقوال التى ذكرها لأصحابه كان يقصد بها بيان براءته من إتهامهم له بارتكاب خطيئة ما استوجب بها هذا البلاء . فراح يعدد أنواع البر التى عملها . ولكن فى ثنايا هذه الأقوال . وخاصة أنه كان يكررها كلما زاروه . نلمح شيئا من **العجب** . والجملة الأخيرة « **أكثر من فريضتى عملت** » تعتبر نوعا من **الإدلال** .

إن اعتقادنا بأن البلاء كان قبل النبوة يرفع الحرج عند نسبة العجب والإدلال إلى أيوب .

قال رسول الله ﷺ « ثلاث مهلكات . شح مطاع . وهوى متبع . وإعجاب المرء بنفسه . أخرجه البزار والطبرانى والبيهقى. *

وقال رسول الله ﷺ : لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك ، العجب ، العجب . أخرجه البزار وابن حيان والبيهقى .

وقيل لعائشة رضى الله عنها : متى يكون الرجل مسيئا ؟ قالت : إذا ظن أنه محسن .

وقال ابن جريج فى تفسير معنى الحديث الشريف السابق ، إذا عملت فلا تقل إنى عملت . وقال زيد بن أسلم : أى لا تعتقدوا أن أفعالكم بارة فيدخلكم العجب .

فمن عنده نعمة من مال أو علم ، ومن أدى فرائض الله ، يكون عالما بما عنده وما أدى من فرائض . فإن أيقن فى نفسه أن ذلك نعمة من الله تعالى . فهذا ليس من العجب . إذ هو عارف

* إحياء علوم الدين . أبو حامد الغزالى جـ ٣ ص ٣٤٤ .

أن ذلك كله فضل من الله . لو شاء نزعه منه . فيكون خائفا من زواله .

أما **العجب** فهو أن يكون فرحا به مطمئنا إليه ، ينسبه إلى نفسه . وإجتهاده فى العبادة يرجعه إلى قوة إرادته . فإذا زاد على ذلك أن ظن فى نفسه أنه – باجتهاده فى العبادة وكثرة فعل البر – قد أصبح له عند الله حقا . وأنه منه بمكان . حتى يتوقع بعمله كرامة فى الدنيا ، واستبعد أن يجرى عليه مكروه كما يجرى على سائر الخلق – سمى هذا **إدلالا** بالعمل . فكأنه يرى لنفسه على الله دالة * . ويظهر ذلك واضحا فى قول أيوب وتكراره « أكثر من فريضتى عملت » .

وفى الخبر : إن صلاة المدل لاترفع فوق رأسه . ولأن تضحك وأنت معترف بذنبك . خير من أن تبكى وأنت مدل بعملك . وقيل حديث غير مسند .

والإدلال يكون فيه توقع مكافأة .

فمن أكثر العبادة وتوقع إجابة دعوته واستنكر بباطنه ردها ، كان مدلا بعمله .

ومن أكثر بذل المال فى الصدقات ونحوه وتوقع زيادة الرزق ، كان مدلا بعمله .

وقد ذكرت التوراة . فى أكثر من موضع فى سفر أيوب قوله : إنه يدعو فلا يستجاب له أو لا يلتفت إليه . وهذا إدلال .

وينعكس عجب المرء بعبادته وإدلاله – على موقفه من الله تعالى .

فالعجب يؤدى إلى نسيان الذنوب وإهمالها . فبعض الذنوب لا يذكرها . وما يذكره يستصغره بجانب كثرة عبادته . فلا يجتهد فى تداركه والاستغفار منه ولايتوب منه . ويظن أنه يغفر له لكثرة حسناته .

أما الإدلال فى العبادات والأعمال فمعناه أن المرء يمن على الله بفعلها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها .

كما أن المعجب . إذا ظن أنه عند الله بمكان . وظن أن له عند الله منة وحقا بأعماله . فيكون مدلا أيضا .

ويبتلى بهذا الداء العباد والعلماء وأصحاب المال المشمِّرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة . ** فالعابد يجتهد فى العبادة . والعالم يبالغ فى نهى نفسه وفى نصح الآخرين . وصاحب المال يكثر من الصدقات والتصدق . فيشتهرون بين الناس بالعبادة والعلم والكرم . وتستريح نفوسهم إلى مانالوه من شهرة بين الخلق . ويجدون لذة فى قبول الناس لهم ونظرهم

---

* إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالى – جزء ٣ ص ٣٤٦ .

** إحياء علوم الدين – جزء ٣ ص ٢٥٧ .

إليهم بعين الوقار والتعظيم .

فتسرع النفس إلى إظهار الطاعات . وتفرح بحمد الناس وتستريح النفس إلى نظر الناس إليهم بعين الاحترام والتوقير . وأنهم يتبركون بمشاهدته ولقائه ويرغبون فى بركة دعائه ويحرصون على اتباع رأيه . يكرمونه في المحافل غاية الإكرام . ويسامحونه فى البيع والشراء . ويقدمونه فى مجالسهم ويتواضعون له وينقادون . فتصيب النفس من ذلك لذة هى من أعظم اللذات . فتقبل على العبادات وبذل المال . متحملة فى سبيل ذلك المشاق . وهو يظن أن عبادته خالصة لله وبذله للمال هو خالص لوجه الله . ولا ينتبه لهذه الشهوة الخفية للجاه والشهرة . التى تعجز عن إدراكها العقول . ويرى أو يعتقد أنه مخلص فى طاعة الله ومجتنب لمحارم الله . والنفس قد أبطنت هذه الشهوة الخفية . فرحا بما نالت من المنزلة والتعظيم عند الناس . فأحبطت ثواب الطاعات وقللت من أجور الصدقات والأعمال .

قال رسول الله ﷺ : إن أخوف ما أخاف على أمتى : الرياء والشهوة الخفية . التى هى أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء . قال الحاكم صحيح الإسناد . *

وقال رسول الله ﷺ * : بحسب المرء من الشر – إلا من عصمه الله من السوء – أن يشير الناس إليه بالأصابع فى دينه ودنياه . إن الله لاينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم . رواه مسلم ورواه الطبرانى والبيهقى بلفظ « كفى بالمرء إثما ... الخ الحديث » .

والعجب والإدلال مسألة داخلية ترجع إلى النية . وهذه منطقة لا يطلع عليها أحد إلا الله سبحانه وتعالى . حتى إن المرء نفسه قد يخفى عليه أنه قد اجتاز الحد الفاصل بين منطقة الرضا ودخل منطقة العجب .

فالورع والتقوى وإخلاص العبادة وكثرة الصدقات أمور مطلوبة . ويُسر المرء لإتيانها . ولكن لايجب أن تغيب عنه الحقيقة : وهى أن الله هو الذى يسر له أمرها . وسخر له أعضاءه وإرادته للقيام بها . فإن كان هناك إعجاب . فهو الإعجاب . بجود الله وكرمه وفضله فى تيسير ذلك . وليس إعجاب المرء بنفسه فى إتيانه هذه العبادات.

قال رسول الله ﷺ : حب المال والجاه ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل .

فالمال يُتوصل به إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس . وبالمال يتم تسخير الآخرين لقضاء حوائجه .

---

* إحياء علوم الدين . أبو حامد الغزالى . جـ ٣ ص ٢٥٧ .

وذو الجاه يملك قلوب الناس ويقدر أن يستعملهم فى أغراضه ومآربه . والجاه يكتسب بأنواع من المعاملات . وتصير القلوب مسخرة باعتقاد الكمال فى ذلك الشخص فتنقاد له ويدخل فى نفس صاحب المال ذى الجاه . شىء من الكبر والخيلاء . وخاصة إذا بدأ الناس فى مدحه وتعظيمه وإيثاره بالصدارة فى المحافل والتقديم فى جميع المقاصد .

قد يقول المرء : هى أعمالى . وأنا الذى قمت بها . وأفرح إذا أديتها وأرضى عن نفسى – وأعجب بها – وأنتظر عليه ثوابا !

ولكن لو تمعنا فى الأمر لوجدنا أن الفعل اشترك فيه :

– جسد . خلقه الله . وجعل له القوة على فعل ماتريد . وسلامة الأعضاء لم تكن بقدرة المرء وإنما هى منحة من الله . ولو شاء سلبها هذه القدرة فما استطاع تحريكها .

– ثم القلب وهو محل الإيمان . وفريق قدر الله لهم أن يكونوا مؤمنين – وكنت أنت منهم – وفريق غير ذلك .

– ثم كان الفعل والإرادة للقيام بالعمل .

فالعناصر الثلاثة خاضعة لمشيئة الله تعالى . إن شاء يسَّرها فيتم الفعل وإن شاء غير ذلك لم يتم الفعل .

وكما قال الله تعالى :

« **وما رميت إذ رميت . ولكن الله رمى** » . (١٧ – الأنفال)

ويقول الامام أبو حامد الغزالى * : كذلك ماصلى المرء إذ صلى . ولكن الله شاء له أن يصلى.

فالأمر كله راجع إلى مشيئة الله . فلا محل للعجب . ولكن يجب الشكر على أن كان هو محل هذا الفعل الذى قام به . ويجب عليه أن يقول :

« **الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله** » . (٤٣ – الأعراف)

فالعبادات خزائن ومفاتيحها بيد الله سبحانه وتعالى .

ويضرب الإمام أبو حامد الغزالى * المثل بخزانه ذهب ومفتاحها بيد خازن . ولو أجهدت نفسك بنفسك لن تستطيع فتح هذه الخزانة . وهب أن الخازن أعطاك المفاتيح . ومددت يدك فأخذتها وفتحت الخزانة ونلت مافيها من جواهر . فهل عجبك أنك مددت يدك وأخذت المفاتيح ؟ أم العجب بمن أعطى المفاتيح ؟

وكذلك فمهما كانت فيك القدرة وجمعت الإرادة للعبادة . فقد كان ذلك كله بتوفيق من الله . كما أنه صرف عنك الموانع ودفع عنك مايثبط همتك . فلا محل للعجب من نفسك . ولكن تشكر

---

* إحياء علوم الدين – جزء ٣ ص ٣٤٧ – ٣٤٨ .

من أثرك بهذه المنة .

قال داود عليه السلام * : يارب ما تأتى ليلة إلا وإنسان من آل داود صائم . وفى رواية أخرى : ماتمر ساعة من ليل أو نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك . إما يصلى . وإما يصوم . وإما يذكرك . فأوحى الله تعالى إليه . ياداود . ومن أين لهم ذلك ؟ إن كل ذلك لم يكن إلا بى ولولا عونى إياك ماقويت . وسأكلك إلى نفسك . قال ابن عباس : إنما أصاب داود من الذنب بعجبه بعمله إذ أضافه إلى آل داود مدلا به حتى وكل إلى نفسه . فأذنب ذنبا أورثه الحزن والندم.

التحسر على الماضى :

تذكر التوراة ** أن أيوب أخذ **يتحدث لأصحابه عن الماضى بحسرة :**

فيذكر النعيم الذى كان فيه فيقول :

ياليتنى كنت كما فى الشهور السالفة وكالأيام التى حفظنى الله فيها حين أضاء سراجه على رأسى . وبنوره سلكت الظلمة . ورضا الله على خيمتى . والقدير بعد معى . وحولى غلمانى . إذ غسلت خطواتى باللبن (كما نقول : يتمرغ فى الخير) والصخر سكب لى جداول زيت (أى يأتيه الرزق من أى شىء يفعله) .

كما يتذكر الجاه الذى كان فيه فقال :

حين كنت أخرج إلى الباب فى القرية وأهيىء فى الساحة مجلسى . رآنى الغلمان فاختبأوا . والأشياخ قاموا ووقفوا . والعظماء أمسكوا عن الكلام ووضعوا أيديهم على أفواههم . صوتهم إختفى ولصقت ألسنتهم بأحناكهم . لأن الأذن سمعت لى فطربت . والعين رأت فشهدت لى .

وراح يعدد الأشياء التى فعلها فاستحق هذه المكانة قائلا :

– لأنى أنقذت المسكين المستغيث واليتيم والذى لا معين له .

– بركة الهالك حلَّت علىَّ وجعلتُ قلب الأرملة يُسر .

ولفهم هذه الجملة الأخيرة . نشير إلى أن كلمة الهلاك تعنى الموت . وقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى :

« ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات . فمازلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا » . (٣٤ – غافر)

وجاء قوله تعالى أيضا :

---

* إحياء علوم الدين . جـ ٣ ص ٣٤٨ .

** إصحاح ٢٩ أيوب

« يستفتونك . قل الله يفتيكم فى الكلالة . إن امرؤ هلك . ليس له ولد وله أخت.... » . (١٧٦ - النساء)

فمعنى قول أيوب : بركة الهالك حلت على وجعلت قلب الأرملة يُسر . يكون : أحسنت إلى الأرملة وجعلت قلبها يسر وبذلك حلت على بركة المتوفى أى زوجها لإحسانى إلى زوجته بعده .

وتستمر التوراة في إيراد ماقاله :

- لبست البر فكسانى . وكجبة وعمامة كان عدلى . بمعنى كنت أفعل البر والعدل كثيرا . بحيث يغطينى من رأسى إلى رجلى .

- كنت عيونا للعمى . وأرجلا للعرج . وأب أنا للفقراء .

- هشمت أضراس الظالم . ومن بين أسنانه خطفت الفريسة بمعنى خلصت المظلوم من بين أيديه أو من بين أسنانه .

- لى سمعوا . وأنصتوا عند مشورتى .

- بعد كلامى لم يثنوا (أى بعد كلامى لم يقولوا قولا ثان) .

وقولى قطر عليهم (أى نزل عليهم كالندى والقطر) . وانتظروا مثل المطر وفغروا أفواههم كما للمطر المتأخر . وينقل لنا هذا التعبير صورة إناس تأخر عنهم المطر حتى جفت حلوقهم واشتاقوا إلى الماء بشدة . فلما نزل المطر لم ينتظروا أن يملأوا الكوب ويشربوا بل فتحوا أفواههم لتنزل قطرات المطر مباشرة فى حلوقهم .

- كنت أختار طريقهم . وأجلس منهم مجلس الرأس وأسكن كملك .

- إن ضحكت (أى عليهم) لم يصدقوا . ونور وجهى لم يعبسوا . بمعنى حتى لو سخرت منهم لم يغضبوا .

لا شك أن فى هذه الأقوال شيء من العجب وحب الجاه . مما كان يوجب التوبة . ولعل ذلك كان من أسباب استمرار البلاء لعدة سنوات أخرى .

كما أن تذكر الماضى واستحضاره فى الذهن بهذه الصورة المبهجة والمحببة إلى النفس . والتحسر عليه بهذا الشكل يولد فى النفس حزنا ومرارة ويورث نوعا من عدم الرضا بما قسم الله .

وينهى الله عن ذلك بقوله :

« لكيلا تأسوا على مافاتكم . ولا تفرحوا بما آتاكم » . (٢٣ - الحديد)

« لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولا ما أصابكم » . (١٥٣ آل عمران)

والحزن على مافات ذنب يوجب التكفير عنه يوضحه صدر الآية :

---

* إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ٣١٧ .

« فأثابكم غما بغم . لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولا ما أصابكم » .

وصحيح أن الآية نزلت فى وصف حال المسلمين فى معركة أحد . إلا أنها تصح قاعدة عامة يمكن الاستشهاد بها فى أى موقف مشابه .

كما أن الموقف الذى نحن بصدده - من زوال نعمة الدنيا - ينطبق عليه قوله تعالى :

« اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد . كمثل غيث أعجب الكفار نباته . ثم يهيج فتراه مصفرا . ثم يكون حطاما . وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم . ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور » . (٢٠ - ٢٣ - الحديد)

فهذه الآيات توضح أن كل ماكان أيوب يتحسر عليه هو من متاع الدنيا . وهو لعب ولهو : ماتذكَّره من المال . والولد الملتفين حوله . والجاه . ومجلس الصدارة . والاحترام بالوقوف له والصمت عندما يتكلم . كل هذا تفاخر . وعرض زائل من أعراض الدنيا التى تغر من إطمأن إليها ولم يجعلها ذريعة لبلوغ النعيم الدائم فى الآخرة . وفى الحث على طلب المغفرة مايفيد من أن تمنِّى هذه الأشياء فى الدنيا يوجب طلب المغفرة من الله - كما هو حث على الزهد فى الدنيا .

ثم يقرر الله سبحانه وتعالى أن كل مايحدث فى الأرض من أحداث ونائبات ومصائب مكتوب ومثبت فى اللوح المحفوظ أو فى علم الله عز وجل من قبل أن يخلق الله الأرض أو من قبل وقوع هذه الحوادث ولذا قيل .

« جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة »*.

ولو وعى الإنسان هذا المعنى تماما لوجب عليه ألا يحزن على مافاته من نعم الدنيا . ولا يحزن على ما أصابه من بلائها .

تذكر التوراة (إصحاح ٧ أيوب) أن أيوب قال : لأصحابه مامعناه **أنه كان بارا ولم يفعل مايستوجب هذا البلاء بل كان يتوقع أجرا حسنا :**

- كما يتشوق العبد إلى الظل وكما يترجى الأجير أجرته . ويقول :

---

* إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ١٢٣ .

– ولكن تعين لى أشهر سوء . وليالى شقاء قسمت لى .

– إذا اضطجعت أقول متى أقوم . الليل يطول . وأشبع قلقا حتى الصبح .

– لبس جسمى الدود مع مدر التراب .

– أيامى تمر بغير رجاء . وعينى لا تعود ترى خيرا .

– إن قلت فراشى يعزينى وينزع كربتى ، تريعنى الأحلام وترهبنى برؤى فاختارت نفسى الموت .

نلمح هنا نبرة عدم رضاء عما أصابه وسخط على القدر .

بل واتهام للقدر بالظلم بأن أعطاه على بِرِّه هذا البلاء .

وعدم الرضا بالقضاء والقدر ذنب يستدعى التكفير عنه .

روى حديث قدسى * . أن الله تعالى قال : أنا الله لا إله إلا أنا . من لم يصبر على بلائى . ومن لم يشكر نعمائى . ولم يرضى بقضائى . فليتخذ ربا سواى . أخرجه الطبرانى وابن حيان.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال : قال الله تعالى : قدرت المقادير . ودبرت التدبير وأحكمت الصنع . فمن رضى فله الرضا منى حتى يلقانى . ومن سخط فله السخط منى حتى يلقانى .

ويروى ** أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : ياداود إنك تريد . وأريد . إنما يكون ما أريد . فإن سلمت لما أريد . كفيتك ما تريد . وإن لم تسلم لما أريد . أتعبتك فيما تريد . ثم لا يكون إلا ما أريد .

ومن دلائل الحب الحقيقى من العبد لربه أن يرضى بقضائه حتى يكاد لايشعر بألم البلاء . وإن أحس به فى جسده إلا أنه لا يحس به فى قلبه وعقله .

ولعل عدم الرضا الذى شعر به أيوب كان سببا فى بقاء البلاء به عدة سنوات أخرى .

وسوسة الشيطان بأن الشرير ينعم في الدنيا !

قد يرى المرء – فى الدنيا – أن بعض الأشرار ينعمون ويتنعمون . ويرتكبون الآثام . ولا يُقتص منهم . فى حين يرى بعض الصالحين مضيقا عليهم فى دنياهم . يفعلون الخيرات ومع ذلك نرى شدة فى حياتهم ورزقهم قليل . وتكون هذه المفارقة فرصة لوساوس الشيطان يوهم أن ذلك ليس عدلا . وظلم من القدر . ويلقى فى الروع أن الشر لايضر وليس من جزاء على فاعله . وأن البر لايفيد . ولا يثاب فاعله . فإذا انساق المرء وراء الشيطان فى وساوسه هذه نجده يتراخى فى إتيان العبادات كما لا يستعظم فعل الشر . وقد تتحقق غواية الشيطان له ويضل . أو ينتابه الشك فى عدل القضاء .

---

* الإتحافات السنية فى الأحاديث القدسية . محمد المدنى . ص ٢٠ .

** إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ٣١٧ .

عن أنس وابن عباس رضى الله عنهما * : شكا نبى من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه فقال: يارب العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوى عنه الدنيا وتعرض له البلاء . ويكون الكافر لايطيعك ويجترىء عليك وعلى معاصيك . تزوى عنه البلاء وتبسط له الدنيا ! فأوحى الله تعالى إليه : إن العباد لى والبلاء لى . وكل يسبح بحمدى . فيكون المؤمن عليه من الذنوب . فأزوى عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه . حتى يلقانى فأجزيه بحسناته . ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له فى الرزق وأزوى عنه البلاء . فأجزيه بحسناته فى الدنيا . حتى يلقانى فأجزيه بسيئاته .

ولا شك أن ماذكرته التوراة (إصحاح ٢١ أيوب) على لسان أيوب فى هذا المعني – كان من وساوس الشيطان إذ جاء فيه قوله :

– لماذا يحيا الأشرار ويشيخون . نعم . ويتجبرون قوة . نسلهم قائم أمامهم معهم وذريتهم فى أعينهم . بيوتهم آمنة من الخوف . وليس عليهم عصا الله . بقرتهم تنتج ولا تسقط (أى ثروتهم تزيد) . أطفالهم ترقص . يحملون الدف والعود . ويطربون بصوت المزمار . يقضون أيامهم بالخير . يقولون من هو القدير حتى نعبده !

ويرد على هذه الوساوس أحد أصحابه فيقول : إن ماتراه من حال الأشرار ماهو إلا أمن مشحون بالألم الدائم . ويعتريه خوف من المصائب القادمة – وهو مرتقب للسيف (للقصاص) وصوت رعوب فى أذنيه . لأنه على القدير تجرأ وصلب عنقه . وبشائر ماينتظره من مصائب تطن فى آذانهم باستمرار . وفى لحظة سلام يأتيه الموت وبيوته تصبح خربة . والظلمة النهائية يوم الدينونة تتجمع فتمحو رفاهيتهم . ومصيرهم مصير نبتة تذبل قبل أوانها . وقبل يومه يتوفى.

وهذا المعنى يتفق مع قوله تعالى :

« فذرهم فى غمرتهم حتى حين . أيحسبون أن مانمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات . بل لايشعرون » . (٥٤ – ٥٦ – المؤمنون)

وقوله تعالى :

« ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل . فسوف يعلمون » . (٣ – الحجر)

وقد فطن أيوب إلى هذه الحقيقة بعد أن صهر البلاء معدنه فهو يقول فى أواخر أيام بلائه ما معناه : لا تغتروا بأن الاشرار لا تحدث لهم مصائب لأن جزاؤهم فى الآخرة وليس فى الدنيا . ويقول لأصحابه : إنه ليوم البوار يمسك الشرير . ليوم السخط يقادون . إلى من يجازيه على ما

* إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ١٢٣ .

عمل . فى الظاهر يبدو أن الشر أعطى كسبا . ونجاحه يغرى الكثيرين على تقليده .ولكن الله يخزن إثمه ليجازيه به . ويسقيه القدر حميما .

أيوب يكرر تعداد حسناته :

كرر أيوب فى أكثر من إصحاح تعداد الحسنات التى قام بها ليؤكد لأصحابه أنه بار ولم يذنب . فقال :

– ألم أبك لمن عسر يومه ؟ ألم تكتئب نفسى على المسكين ؟

– عهدا قطعت لعينى فكيف أتطلع لعذراء . وما هو الجزاء . أليس البوار لعامل الشر وفاعل الإثم .

– إن كنت قد سلكت مع الكذب أو أسرعت رجلى إلى الغش فلأوضع فى ميزان الحق . فيعرف الله كمالى .

– إن كنت رفضت حق عبدى وأمتى فى أجرهما . فماذا كنت أصنع حين يقوم الله . وبماذا أجيبه إذا سألنى ؟ أليس هو خالقى وخالقهم أيضا .

– إنى لم آكل لقمتى وحدى . بل أطعمت معى اليتيم والمسكين .

– إنى لم أترك فقيرا بلا كسوة أو شخصا يهلك لعدم اللبس . بل سيشهد لى بأنى أدفأته بالصوف من جزة غنمى .

إن كنت جعلت الذهب عمدتى أو قلت للإبريز أنت متكلى إن كنت قد فرحت إذ كثرت ثروتى ولأن يدى قد وجدت كثيرا .

– لم أدَع غريبا يبيت فى الخارج . وفتحت للمسافر أبوابى .

– كنت آمر أهل خيمتى بدعوة الجوعى ليشبعوا من طعامى .

– لم أفعل سوءا لأحد أو إهانة لعشائر فأخشى الناس وأختبىء وراء بابى .

– هل كتب أحد شكوى منى ؟ كنت أحملها على كتفى . وكنت أجعلها تاجا على رأسى لأنها ستكون شهادة لى بأنى لم أسىء لأحد .

– لن تشهد أرضى على وتقول إننى أكلت غلتها ولم أعط العمال أجرهم . إن كنت فعلت ذلك فلتنبت لى الأرض بدل الحنطة شوكا . وبدل الشعير زوان .

(الزوان عشب سام . ينبت بين الحنطة يحدث أكله دوارا وارتعاشا وربما يسبب موتا *)

.عدد أيوب هذه الأشياء ليثبت لأصحابه أنه بار ولم يذنب ولم يفعل مايستحق بسببه هذا البلاء الذى نزل به . وفى هذا التعداد للحسنات نوع من العجب والإدلال .

---

* قاموس الكتاب المقدس . ص ٤٣٨ .

تزكيـــة النفــس :

تقول التوراة * إن أحد أصدقاء أيوب قال له : لماذا تأخذك العزة وترد على قضاء الله وتخرج من فمك أقوال تنم عن السخط والضجر ؟ وتدعى أنك بارٌ ؟ من أنت حتى تزكى نفسك وتدعى البر وأنك لم ترتكب إثما ؟

جاء النهى عن تزكية النفس فى الآية الكريمة .

« الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم . إن ربك واسع المغفرة . هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض . وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم . فلا تزكوا أنفسكم . هو أعلم بمن اتقى » . (٣٢ - النجم)

قيل إن اللمم هى الذنوب الصغيرة مثل النظرة أو اللمسة وماشابهها . وأن هذه الصغائر لا يؤاخذ الله بها . وهذا محض مغفرة من الله تعالى . كما أن تكرارها أو الإصرار عليها قد ينقلها إلى صف الكبائر . والله عليم بما فى النفوس . إذ هو الذى خلق الإنسان وهو جنين فى بطن أمه وهو أعلم بمن يتقى الله ويستحق التزكية . فلا تزكوا أنتم أنفسكم .

« ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم . بل الله يزكى من يشاء . ولا يظلمون فتيلا » . (٤٩ - النساء)

وإن كان اللمم مما قد يتجاوز عنه بالنسبة للعامة . فقد لا يكون الأمر كذلك بالنسبة للخاصة والمقربين . إذ تكون مشيئة الله أن يسقط عنهم اللمم ببعض البلاء لتكون لهم فى الآخرة الدرجات العالية .

الأبــرار رزقهــم قليــل :

تورد التوراة كلمات لأيوب يفهم منها تعجبه من تصاريف القدر . وأنه يشاهد الأبرار (مثله) لايعطيهم القدر مايستحقون .

وخير رد على هذه النقطة هو المثال الذى ذكره الإمام أبى حامد الغزالى ** . شخص رزقه الله عقلا ولم يعطه مالا . يرى أشخاصا أفاض الله عليهم المال من غير علم فيقول : كيف أفقرنى الله وأنا العاقل الفاضل . وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو جاهل ؟ حتى يكاد يرى هذا ظلما . ولايدرى أنه لو جمع له بين العقل والمال لكان هذا بالظلم أقرب . إذ يقول الجاهل الفقير:

---

* إصحاح ١٥ أيوب .

** إحياء علوم الدين . جـ ٣ ص ٣٤٧ .

يارب لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتنى منهما . هلا جمعتهما لى . أو رزقتنى أحدهما ؟!
وإلى هذا أشار على كرم الله وجهة إذ قيل له : ما بال العقلاء فقراء ؟ فقال : إن عقل المرء محسوب عليه من رزقه .
ومن المؤكد أن العالم الفقير لو خُيِّر أن يعطى مالا ويذهب بعلمه لما رضى بذلك .
وقال الإمام أحمد عن آخرين عن عبد الله بن مسعود : قال رسول الله ﷺ : إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم . وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب . ولايعطى الدين إلا لمن أحب .

اليـــــأس :

تقول التوراة إنه بعد أن طال البلاء بأيوب - بدأ يشعر بنوع من اليأس . وبالغت فى وصف حالة اليأس التى أصابته .
واليأس والقنوط يتنافيان مع الإيمان الصحيح .
قال الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام :

« قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » . (٥٦ - الحجر)

وقال على لسان يعقوب لبنيه :

« إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » . (٨٧ - يوسف)

وقال على كرم الله وجهه لرجل : ياهذا . يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك .
وفى حديث موقوف على ابن مسعود : من الكبائر . الإشراك بالله تعالى واليأس من روح الله . والأمن من مكر الله .
اليأس مذموم لأنه يصرف عن التوبة . فاليائس لايرى فائدة من الاستغفار والتوبة لاعتقاده بعدم قبولهما . بل ولا يجتهد فى عبادة ما لظنه أنه مهما اجتهد فلن تمحو ذنبه .
واليائس يعتقد أن ذنبه أكبر من أن يغفر أو أنه غير أهل لرحمة الله تعالى . وهناك يأس يصل إلى حد الكفر بأن يظن داخل نفسه أن الله جبار ومنتقم ولذلك لن يغفر له ناسيا أن الله غفور رحيم .
وقد أعجبتنى هذه الأبيات التى قالها الأستاذ عباس العقاد . معبراً عن حالة شخص يائس .

---

* إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ٢٤٧ .

وفى نهايتها يتمنى لنفسه الموت :

ظمآن ظمآن لاصوب الغمام ولا ∴ عذب المدام ولا الأنواء تروينى

حيران حيران لانجم السماء ولا ∴ معالم الأرض فى الغمَّاء تهدينى

يقظان يقظان . لاطيب الرقاد يدا ∴ نينى ولا سمر السمار يلهينى

غصَّان غصان . فالأوجاع تبلينى ∴ مُر الكوارث والأشجان تبكينى

أسوان أسوان . لا طب الأساة ولا ∴ سحر الرقاة من اللأواء يشفينى

سأمان سأمان . لا صفو الحياة ولا ∴ عجائب القدر المكنون تغنينى

يديك فامح أسى ياموت فى كبدى ∴ فلست تمحوه إلا حين تمحونى

وكان من أشد مكايد الشيطان – بعد أن طال البلاء بأيوب هو وسوسته له بأن يستسلم لقضاء الله . ليس رضا به – بل يأسا من رحمة الله .

وهناك فرق كبير بين الأمرين . وإن كانا فى الظاهر متساويان . فمن مظاهرهما عدم الشكوى من البلاء . والاستسلام للأمر الواقع . ولكن فى الأولى . يكون ذلك رضاء بقدر الله ومشيئته . وفي الثانية يكون يأسا من رحمة الله فى المن بالشفاء . وهذا المعنى الأخير قد يتسلل إلى النفس تسللا خفيا .

ولا شك أن أيوب فى أخريات سنى مرضه كان راضيا بقضاء الله . مستسلما لمشيئته . ولم يعد يتحدث مع أصحابه عن آلامه . ففسروه على أنه وصل إلى درجة اليأس . فى حين أنه ما كان به هو رضا بقضاء الله وقدره . وهذه مرتبة عليا من الإيمان . ونعود إلى ماذكرناه سابقا (ص ٦٠٣) من أن النبى ﷺ سأل طائفة من أصحابه : ما أنتم ؟ فقالوا : مؤمنون . فقال : ما علامة إيمانكم ؟ فقالوا : نصبر على البلاء . ونشكر عند الرخاء . ونرضى بمواقع القضاء . فقال : مؤمنون ورب الكعبة .

والرضا يدل على حب حقيقى لله تعالى . فذلك يجعله لا يحس بألم البلاء الذى نزل به . بل وراغبا فيه بقلبه لما يعلمه من عظم ثوابه .

فى حديث قدسى تقول الملائكة * : يارب عبدك المؤمن تزوى عنه الدنيا وتعرضه للبلاء وهو مؤمن ؟ فيقول اكشفوا عن ثوابه . فإذا رأوا ثوابه تقول الملائكة : يارب . مايضره ما أصابه فى الدنيا . وتقول الملائكة : يارب عبدك الكافر تبسط له فى الدنيا وتزوى عنه البلاء ؟ فيقول اكشفوا عن ثوابه . فإذا رأوا ثوابه قالوا : يارب .ماينفعه ما أصابه فى الدنيا .

يتيقن أيوب فى النهايه أن **البلاء** يمحص **البشر** فيقول ** :

---

* الإتحافات السنية فى الأحاديث القدسية . محمد المدنى . ص ٢١٣ .

** التوراة . إصحاح ٢٨ أيوب .

لأنه يوجد للفضة معدن وموضع للذهب حيث يمحصونه .

الحديد يستخرج من التراب . والحجر يسكب نحاسا .

وكأنه يقول :

إن الآلام تنقى النفس كما تنقى النار خبث الحديد .

ويدرك أيضا أن هناك جوانب خافية من نفس الإنسان لا تعرف :

– أرض يخرج منها الخبز حجارتها هى موضع الياقوت الأزرق وفيها تراب الذهب – أي قد يكون مايبدو لنا أرضا زراعية يخفى تحتها الذهب والحجارة الكريمة .

– وكما المرء يذهب إلى أراضى جديدة . لم تمسها قدم . وفى الصخر يمد يده ينقب فى الجبال وينقر الصخر فيجد كل ثمين . ويظهر إلى النور ماكان خافيا . ليصل إلى **مكان الحكمة ومكان الفهم** .

فهذه الأشياء لاتوجد بسهولة فى الحياة العادية السهلة . ولايمكن الحصول على الحكمة والفهم بالمال . وتحصيل الحكمة خير من اللآلىء . فكيف يعرف الناس الحكمة والفهم . فهى ليست على سطح الأرض تنال بسهولة . والله وحده هو يفهم طريقها ويعلم مكانها لأنه هو العالم بكل شيئ وهو الذى أوجدها . وهو يرشد الإنسان إلى مكانها . ووصل أيوب إلى الحقيقة التى كانت غائبة عنه وهى : **مخافة الرب هى الحكمة . واجتناب الشر هو الفهم** – وهو يقصد أن الألم الذى مر به والبلاء الذى أصابه قد أوضحا له جوانب من نفسه كانت خافية عليه . كما جعلاه أكثر حكمة وفهما .

إبليس يعرض الشفاء :

قلنا إن البلاء طال بأيوب ثمانيةِ عشر عاماً . وقلنا إن امرأته كانت تخدم فى البيوت لتشترى مايتقوتان به . ثم أحجم الناس عن استخدامها خوفا من أن تنقل إليهم عدوى من مرض أيوب. وضاق بهم الحال .

ويقال * جاءها إبليس وهى تطلب الصدقة فتمثل لها فى صورة رجل فقال : أين بعلك يا أمة ؟ فقالت هو ذاك يحك قروحه وتتردد الدواب فى جسده . فوسوس لها وذكرها ماكانت فيه من النعيم والمال فأتاها بسخلة (ولد الضأن والماعز ساعة يولد) وقال لها ليذبح أيوب هذه لى وسيبرأ . فجاءت إلى أيوب وقالت له : إلى متى يعذّبك ربك ولا يرحمك . أين المال ؟ أين الولد ؟ أين الحاشية ؟ أين الصديق ؟ أين جسمك الحسن ؟ قد بلى . اذبح هذه السخلة واسترح !

---

* عرائس المجالس . الثعلبى . ص ١٩٣ .

فقال لها أيوب . أرى أن إبليس – عدو الله – قد أتاك فنفخ فيك فأجبتيه . والله لئن شفانى الله لأجلدنك مائة جلدة كما أمرتينى أن أذبح لغير الله تعالى .

هنا نلاحظ أن الشفاء كان معروضا على أيوب . ولكنه كان من طريق غير طريق الله فرفضه .

الرضا بالقضاء :

كان أيوب قد دخل إلى مقام الرضا وهو أعلا المقامات . وهو يعبر عن حب حقيقى لله . وحب الله يورث فى النفس الرضا بجميع أفعاله . لم يعد أيوب يحس بأي ألم . لأن القلب صار مستغرقا بحب الله والرضا بقضائه بحيث لايدرك ماعداه . ولايطلب الشفاء إلا من الله . إن شاء . رفع البلاء . وإن كانت مشيئته فى بقائه فهو راض .

ثم قال أيوب لامرأته : طعامك وشرابك الذى تأتينى به علّى حرام لا أذوق ما تأتينى به شيئا بعد أن قلت هذا . فاغربى عنى .

فلما ذهبت وليس عنده طعام وشراب . ولا صديق . وتقطع كل ما كان بينه وبين الدنيا من أسباب .

ورضى بقضاء الله . ولم يشأ أن يأتى الشفاء إلا عن طريقه .

توجه إلى الله بقلبه وكل جوارحه . يدعو . ويطلب الرحمة من الله .

قال رسول الله ﷺ : الدعاء مخ العبادة . أخرجه الترمذى من حديث أنس .

وروى النعمان بن بشير عن النبى ﷺ أنه قال : إن الدعاء هو العبادة . ثم قرأ « **ادعونى استجب لكم** » . أخرجه الحاكم . وقال صحيح الإسناد . وقال الترمذى حسن صحيح .

وقال رسول الله ﷺ : سلوا الله من فضله . فإن الله تعالى يحب أن يسأل . وأفضل العبادة انتظار الفرج . أخرجه الترمذى من حديث ابن مسعود .

وتوجه أيوب إلى الله بالدعاء .

« **وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين** » . (٨٣ – الانبياء)

« **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب** » .
(٤١ – ص)

وقيل إن البلاء ولو أنه مقدر من الله سبحانه وتعالى – إلا أن أيوب نسبه إلى الشيطان تأدبا . والشيطان لايستطيع أن يصيب ابن آدم إلا بما كتبه الله له . ويقول الألوسى * إن

* تفسير الألوسى جزء ٢٣ ص ٢٠٦ .

النصب والعذاب ليسا هما كما قالوا من ذهاب الأهل والمال . بل كانا وهو به مرضه فكانت وسوسة الشيطان إليه فى مرضه من عظم البلاء إذ كان يوسوس إليه بالقنوط من الرحمة والإغراء على الجزع . وكان يجاهد فى دفع ذلك حتى ناله نصب وعذاب وألم . زيادة على ماهو فيه من البلاء . فنادى ربه ليصرفه عنه ويكشف عنه البلاء .

إلا أن الأقرب للمنطق هو أن النصب والعذاب كانا فقدان المال والولد وتعنى كذلك المرض فى الجسد . بدليل ماتم بعد ذلك – من كشف الضر برد الصحة والمال والأهل بل ومثلهم معهم .

وكانت إرادة الله .

« فاستجبنا له . فكشفنا مابه من ضر » . (من الآية ٨٤ – الانبياء)

رد الصحة :

وأوحى الله تعالى لأيوب مايفعل ليبرأ .

كان فى قدرة الله أن يشفيه من لحظته . بقوله كن فيكون .

ولكن . هى حكمة الله جل شأنه . قد جعل لكل شىء سببا . ولكل داء دواء . ودله الله على الدواء ليبرأ .

« اركض برجلك . هذا مغتسل بارد وشراب » . (٤٢ – ص)

ففعل أيوب كما أمره الله . وقيل * فأنبع الله عينا وأمره أن يغتسل فيها فأذهب جميع مافى بدنه من الأذى . ثم أمره فضرب الأرض فى مكان آخر فأنبع له عينا أخرى . وأمره أن يشرب منها فأذهب جميع مافى بطنه من السوء . وتكاملت العافية ظاهرا وباطنا . أى ذهبت القروح التى كانت فى الجلد . والآلام التى كانت فى الجسم .

قول آخر ** : إنه عليه السلام ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها . وبرجله اليسرى فنبعت عين باردة فشرب منها .

وقال الحسن ركض برجله فنبعت عين فاغتسل منها ثم مشى نحوا من أربعين ذراعا . ثم ركض برجله فنبعت عين أخرى فشرب منها .

ولكن ظاهر المعنى عدم التعدد . عين واحدة « مغتسل بارد وشراب » تغتسل به وتشرب منه . فيبرأ ظاهرك وباطنك .

---

* تفسير ابن كثير جزء ٤ ص ٢٩ .

** تفسير الألوسى جزء ٢٣ ص ٢٠٧ .

وقالوا أيضا : لما دعا جاء جبريل عليه السلام فأخذ بيده ثم قال : قم فقام من مكانه . وقال: اركض برجلك . فنبعت العين فاغتسل وشرب وبرأ .

قالوا : إنه بعد أن اكتملت له العافية وذهب مابه من بلاء . عادت زوجته لتخدمه كعادتها فلم تجده فى مكانه . فالتفتت تنظر . فاذا هو قد أقبل عليها فلم تعرفه . وسألته : أى بارك الله فيك. هل رأيت هذا المبتلى ؟ فوالله مارأيت رجلا أشبه به منك . فقال : فإنى أنا هو .

النبــــوة :

كانت الجائزة الكبرى لأيوب هو الاصطفاء بالنبوة .

وهذا يتمشى مع الحديث الشريف الذى ذكرناه فى ص ٦٠٣ : إذا أحب الله عبدا ابتلاه . فان صبر اجتباه . فان رضى اصطفاه .

وهكذا تمت النبوة لأيوب جزاء لصبره على البلاء ورضائه بالقضاء . ووصفه الله تعالى بقوله **« واذكر عبدنا أيوب »** . ويرى أهل الكتاب * أن الإصحاح ٤٢ من سفر أيوب يوضح الاستحسان الإلهى إذ أن الله يشير لأيوب بالوصف « عبدى » أربع مرات .

ويقول الألوسى ** إن العبودية لله أشرف الأوصاف وأعلى المراتب . عن أبى القاسم سليمان الأنصارى أنه قال : لما وصل النبى ﷺ إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة أوحى الله تعالى إليه : يامحمد . بم نشرفك ؟ قال : بنسبتى إليك بالعبودية . فأنزل الله تعالى قوله :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » .
(١ - الاسراء)

وتكرر الوصف بـ « عبده » أو « عبدنا » ٦ مرات فى القرآن الكريم .

« الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا » . (١ - الكهف)

« تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » . (١ - الفرقان)

« فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى » . (٩ - ١٠ النجم)

« هو الذى ينزل على عبده آيات بينات » . (٩ - الحديد)

« وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا . فاتوا بسورة من مثله » .
(٢٣ - البقرة)

---

* تفسير الكتاب المقدس . جـ ٣ ص ٦٦ .

** تفسر الألوسى . جـ ١٥ ص ٤ .

« إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان » . (٤١ - الانفال)

ووصف أيوب بلفظ عبدنا مرة واحدة فى قوله تعالى :

« واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه » . (٤١ - ص)

رد المـــــال :

قالوا : وكان له أندران (لم أجد للكلمة أصلا فى المعجم الوسيط ولا فى القاموس المحيط ولعلها بمعنى وعاءان) وعاء للقمح ووعاء للشعير . فبعث الله سحابتين . فلما كانت إحداهما على وعاء القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى الورِق (الفضة) فى وعاء الشعير حتى فاض .

وقال الإمام أحمد . حدثنا عبد الرازق عن آخرين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : بينما أيوب يغتسل عريانا . خر عليه جراد من ذهب . فجعل أيوب يحثو فى ثوبه . فناداه ربه عز وجل : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال بلى يارب . ولكن لا غنى لى عن بركتك . وفي رواية أخرى ناداه ربه عز وجل وقال له يا أيوب ألم يكفك ما أعطيناك ؟ قال أى ورب . ومن يستغنى عن فضلك !

وهكذا رد الله عليه صحته وماله .

جزاء زوجة أيوب :

وكان أيوب قد غضب على امرأته - كما سبق أن ذكرنا لاستماعها إلى وسوسة الشيطان وطلبها منه أن يذبح لغير الله . وقيل لأنها - لما أحجم الناس عن استخدامها باعت ضفيرتيها وجاءت لأيوب بخبز وفاكهة . فظن فيها الظنون . وسبق أن قلنا إنه أقسم ليضربنها مائة جلدة .

فلما شفاه الله عز وجل . رأى أن مايكون جزاؤها على ماقامت به من خدمته والإحسان إليه طوال مرضه - وكذلك لما اتضح له أنها لم ترتكب ماحرم الله . فرأى أن مايكون جزاؤها أن يقابل ذلك بالضرب . فأوجد له الله المخرج .

« وخذ بيدك ضغثا . فاضرب به . ولا تحنث . إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب » . (٤٤ - ص)

---

* تفسير الألوسى . جـ ٢٣ ص ٢٠٩ .

والضغث هو شمراخ النخل أو عثكال النخل فيه مائة قضيب . وكذلك معناه قبضة من حشيش مختلطة الرطب واليابس * . وقال الضحاك حزمة من الحشيش بها مائة عود . فيضرب بالضغث ضربة واحدة . فكأنه ضربها مائة ضربة وبهذا يكون قد بر بيمينه . ووفى بنذره . ولم يحنث .

ويثور السؤال : **هل يجوز مثل هذا عند تنفيذ حد الجلد ؟**

أخرج عبد الرازق وابن جرير وآخرين عن أبى إمامة : قال : حملت وليدة فى بنى ساعدة من زنا . فقيل لها ممن ؟ قالت من فلان . المقعد . واعترف المقعد . فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : خذوا عثكولا فيه مائة شمراخ فاضربوه به ضربة واحدة . ففعلوا . وأخرج عبد الرازق أيضا عن ثوبان أن رجلا أصاب فاحشة على عهد رسول الله ﷺ . ومرض الرجل حتى أصبح على شفا الموت فأخبر أهله بما صنع . فأمر النبى ﷺ بقنو فيه مائة شمراخ فضرب به ضربة واحدة .

وأخرج الطبرانى عن سهل بن سعد مثل ذلك فى شيخ قد ظهرت عروقه . ويقول الألوسى** : ولا دلالة فى هذه الأخبار على عموم الحكم (أى على شموله) من يطيق الجلد المتعارف . وهو مائة جلدة .

بعضهم قال بعموم حكم الضرب بالضغث بشرط أن يصيب المضروب كل واحدة من المائة . بأعراضها مبسوطة على هيئة المضرب . وقال الخفاجى : لو ضرب خمسين مرة بسوط واحد له شعبتان . كان كأنه ضرب مائة ضربة .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس : لايجوز ذلك لأحد بعد أيوب إلا الأنبياء عليهم السلام .

وفى أحكام القرآن العظيم للسيوطى عن مجاهد : كان ذلك لأيوب خاصة . وقال الكيا : ذهب الشافعى وأبو حنيفة إلى أن من فعل ذلك فقد برٌ فى يمينه . وخالف مالك ورآه خاصا بأيوب عليه السلام .

رد الأهـــل :

وكان مما كوفىء به أيوب هو أن الله رد عليه أهله ومثلهم معهم مكافأة على صبره . قال الله تعالى :

« وآتيناه أهله ومثلهم معهم . رحمة من عندنا وذكرى للعابدين » .

(٨٤ - الانبياء)

---

* القاموس المحيط . جـ ١ ص ١٦٩ .

** تفسير الالوسى . جـ ٢٣ ص ٢٠٩ .

« ووهبنا له أهله ، ومثلهم معهم ، رحمة منا ، وذكرى لأولى الألباب » .

(٤٣ - ص)

أخرج ابن مردويه عن آخرين عن ابن عباس ، قال : سألت النبى ﷺ عن قوله : «وآتيناه...» قال : رد الله تعالى امرأته إليه وزاد فى شبابها حتى ولدت له ستة وعشرين ذكرا . فالمعنى على هذا . آتيناه فى الدنيا مثل أهله عددا مع زيادة مثل آخر . وكانت هذه رحمة من الله تعالى . وتذكرة لذوى العقول والألباب .

وروى عن الحسن : ووهبنا له أهله بإحيائهم بعد هلاكهم . وروى الطبرسى عن أبى عبد الله أن الله أحيا له أهله الذين كانوا ماتوا قبل البلية . وأهله الذين ماتوا وهو فى البلية . وفى البحر: الجمهور على أنه أحيا له من مات من أهله وعافى المرضى وجمع عليه من تشتت منهم .

ولا نميل إلى هذا الرأى . فإحياء من ماتوا - ليس واحدا أو اثنين بل عشرة (سبعة بنين وثلاث بنات) معجزة كبرى . جديرة بالذكر - والموقف لايستدعيها . وإذا كان مثلهم معهم قد أتوا بالولادة فالأولى أن « أهله » أيضا أتوا بالولادة . وليس بالإحياء .

ويقول الألوسى إن الله وهب من كان حيا منهم وعافاه من الأسقام وأرغد لهم العيش وتناسلوا حتى بلغ عددهم ضعف ماكان . وذلك قوله تعالى : ومثلهم معهم .

وزعم البعض أن هذا وعد . وتكون تلك الهبة فى الآخرة . ولكن هذا ينافى مجىء الفعل فى الماضى « وآتيناه » و« ووهبنا له » . إذ يدل على أن ذلك تحقق فعلا .

وتقول التوراة (إصحاح ٤٢ - أيوب) :

ورد الله كل ماكان لأيوب . وزاد الرب على ماكان ضعفا . فجاء إليه كل إخوته وكل أخواته وكل معارفه من قبل . وأكلوا معه خبزا فى بيته وعزوه عن كل الشر الذى أصابه . وأعطاه كل واحد منهم قسيطة واحدة (وهو مكيال يسع نصف صاع * - ولعل المقصود أعطوه حبوبا لخبز طعام) . وكل واحد قرطا من ذهب . (ولعل المقصود بعض المال ليبدأ به تجارته من جديد) . وبارك الرب آخرة أيوب أكثر من أولاه . وكان له أربعة عشر ألفا من الغنم . وستة آلاف من الإبل . وألف فدان من البقر وألف آتان .

ولو قارنا هذه الأرقام بما ذكرته التوارة عن ثروته التى كانت له قبل البلاء (ص ٥٩٦) لوجدناها الضعف . وهو ماينطبق علها قوله تعالى « ومثلهم معهم » أيضا .

وتقول التوراة : وعاش أيوب بعد هذا ١٤٠ سنة . ورأى من أبنائه وأحفاده أربعة أجيال . ولعل فى هذا بعض المبالغة . إذ لو افترضنا أن البلاء أصابه وعمره أربعون سنه . وأضفنا اليها مدة البلاء ١٨ سنة ثم ١٤٠ سنة لكان عمره كله ١٩٨ سنة . وهذا عمر طويل . ولعل المقصود أن عمره كله بلغ ١٤٠ سنة . ذكر ابن جرير أن أيوب عليه السلام لما توفى كان عمره ٩٠ سنة.

---

* القاموس المحيط جـ ٢ ص ٣٧٨ .

نقطـــة أخيـــرة :

فى نهاية قصة أيوب عليه السلام . لعل البعض يقول : مادام البلاء خير . وتُغفر بسببه الذنوب . فهل لنا أن نسأل الله البلاء ؟

ويقول الإمام أبو حامد الغزالى * : لا وجه لذلك . لما روى عن الرسول ﷺ : أنه كان يستعيذ فى دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة بقوله : وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة . رواه أحمد بإسناد جيد .

وقال على كرم الله وجهه : اللهم إنى أسألك الصبر . فقال رسول الله ﷺ : لقد سألت البلاء . فاسأل العافية . رواه الترمذى وقال حسن .

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : سلوا الله العافية فما أعطى أحد أفضل من العافية إلا اليقين . أخرجه ابن ماجه والنسائى باسناد جيد .

فإن كان ثواب للصبر على البلاء . فهناك ثواب للشكر على النعماء وقد يعطى المرء على الشكر مالا يعطاه على الصبر .

وكما قال الله تعالى :

« إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . (١٠ – الزمر)

كذلك قال :

« وإن تشكروا يرضه لكم » . (٧ – الزمر)

وقال :

« وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم » . (٧ – ابراهيم)

العبر المستفادة من قصة أيوب عليه السلام :

١ – وجوب الشكر على النعمة .

٢ – الحذر من العجب بكثرة العبادات أو الإدلال بها .

٣ – الصبر على البلاء .

٤ – الحذر من اليأس والقنوط من رحمة الله .

٥ – الإيمان بعدل القضاء والرضا بالقدر .

٦ – رفع البلاء هو منة من الله . وهو الذى يحدد وقتها .

---

* إحياء علوم الدين . جـ ٤ ص ١٢٥ .

ذو الكفل عليه السلام

جاء ذكر ذى الكفل فى القرآن الكريم مرتين :

« وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين . وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين » . (٨٥ - ٨٦ - الأنبياء)

« واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل . وكل من الأخيار » .

(٤٥ - ٤٨ - ص)

ومن ذكره فى القرآن الكريم بالثناء عليه مقرونا مع هؤلاء الأنبياء يتبين لنا أنه كان نبيا ، بعض الكتب تذكره على أنه رجل صالح ولم يكن نبيا . روى ابن جرير وابن نجيح عن مجاهد أنه لم يكن نبيا وإنما كان رجلاً صالحاً . وكان قد تكفل لنبى قومه أن يكفيه أمرهم ويقضى بينهم بالعدل ولا يغضب فسمى ذا الكفل .

وفى نسبه روايات كثيرة .

١ - قيل هو ابن أيوب عليه السلام . وقالوا اسمه بشر ولكن القرآن وصفه بذى الكفل لأنه تكفل بالعدل فى قومه . وأوفى بما تكفل به . وصار نبيا بعد أيوب ، وبهذا يكون من نسل عيسو . أخى يعقوب .

٢ - آخرون يجعلونه من نسل يعقوب فقالوا :

(أ) هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن هارون أخى موسى .

(ب) وقالوا هو يوشع بن نون .

(جـ) وقالوا هو حزقيال . نبى من أنبياء بنى إسرائيل . جاءته النبوة أثناء سبى بختنصر لبنى إسرائيل .

(د) ويرى آخرون* أنه هو النبى حلقيا . وسنأتى إلى ذكر ذلك عند ذكرنا لأنبياء بنى إسرائيل (فى الجزء الخامس إن شاء الله) .

وكل هذه الأقوال مردود عليها بأنه لو كان من بنى إسرائيل . فما كان ليفوت ذكره فى

---

* الأستاذ رؤوف أبو سعده . من إعجاز القرآن . جـ ٢ ص ١٨٣

التوراة . ولو بإشارة قصيرة . وعليه فإن الرأى الأول هو الأرجح . فيكون هو ابن أيوب عليه السلام . أو هو رجل صالح من قوم أيوب استخلفه فى قومه وأوفى بما تكفل به فسمى ذو الكفل . وصار نبيا .

روى الأعمش عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث* . أن نبيا من الأنبياء قال : من يكفل لى أن يقوم الليل ويصوم النهار ولا يغضب . فقام شاب . فقال أنا . فقال له اجلس . ثم إنه أعاد مثل قوله الأول . فقام ذلك الشاب فقال أنا . فقال له اجلس . ثم أعاد قوله ثالثا . فقال الشاب : أنا . فقال له : تقوم الليل . وتصوم النهار . ولا تغضب ؟ قال نعم . ثم مات ذلك النبى . فجلس ذلك الشاب مكانه يقضى بين الناس فكان لا يغضب . فجاء الشيطان فى صورة إنسان ليغضبه وهو صائم يريد أن يفطر . فضرب الباب ضربا شديدا . فقال من هذا ؟ فقال رجل له حاجة . فأرسل إليه رجلا فقال. لا أرضى بهذا الرجل . فأرسل معه آخر . فقال لا أرضى . فخرج إليه فأخذه بيده وانطلق معه حتى إذا كان فى السوق خلاه وذهب . فسمى « ذا الكفل » لأنه تكفل أن لا يغضب ووفى بما تكفل به فلم يغضب .

وتروى قصة أخرى** تبين كيف التزم ووفى بما تكفل به .

تقول القصة إن إبليس جاء إلى ذى الكفل فى صورة شيخ كبير فقير وأتاه حين أخذ مضجعه فى قيلولة الظهر . وكان لقيامه ليلا . لا ينام إلا هذه النومة . فدق الباب . فقال من هذا ؟ . قال شيخ كبير مظلوم . فقام وفتح الباب . فجعل الشيخ يقص عليه . وقال : إن بينى وبين قومى خصومة وأنهم ظلمونى . وفعلوا بى كذا وكذا حتى ذهبت القائلة (وأطار النوم من عينى ذى الكفل) . فقال للشيخ فاتنى الغد آخذ لك بحقك . فانطلق وراح . وظل ذو الكفل ينتظر الشيخ فى مجلسه الذى يقضى فيه بين الناس فلم يحضر . فلما رجع إلى القائلة وأخذ مضجعه . دق الباب . فقال من هذا ؟ قال الشيخ الكبير المظلوم . ففتح له وقال : ألم أقل لك إذا قعدت فأتنى ؟ قال : إنهم أخبث قوم . إذا عرفوا أنك قاعد . قالوا نحن نعطيك حقك . وإذا قمت جحدونى . قال فانطلق واتنى غدا . وكانت القائلة قد فاتت أيضا . وفى الغد انتظره فى مجلسه فلم يحضر . فذهب للقيلولة وقد شق عليه النوم . ولما كانت تلك الساعة . جاء الشيخ وطلب الدخول فمنعه أهله . فقال إنى أتيت أمس وذكرت له أمرى . فقالوا : لقد أمرنا أن لا ندع أحدا يقربه . فلما أعياه نظر فرأى كُوة (أى طاقة) فى البيت . فتسوَّر منها . فإذا هو فى البيت . وأيقظ ذا الكفل . ونظر ذو الكفل ورأى الباب مغلقا والشيخ داخل البيت . فعرف أنه إبليس فقال : أعدو الله ؟ قال : نعم أعييتنى فى كل شىء . ففعلت ما ترى لأغضبك .

---

* عرائس المجالس للثعلبى ص ١٩٧

** البداية والنهاية . ابن كثير جـ ١ ص ٢١٠

روى القصة ابن جرير عن وهب عن داود عن مجاهد . ورواها آخرون باختلاف طفيف .

ورويت قصص أخرى فيها كثير من الخيال ولا شك أن هناك مواقف أخرى فى حياة ذى الكفل عليه السلام . لم تصل إلينا توضح سيطرته على نفسه عند الغضب . حتى ليمكن أن يكون مثالا للسيطرة على النفس عند الغضب . كما كان أيوب عليه السلام مثالا للصبر كما أوضحنا .

والغضب مذموم . روى أبو هريرة أن رجلا قال : يارسول الله مرنى بعمل وأقلل . قال : لا تغضب . ثم أعاد عليه فقال : لا تغضب . رواه البخارى .

وقال ابن عمر . قلت لرسول الله ﷺ . قل لى قولا وأقلله لعلى أعقله فقال : لا تغضب . فأعدت عليه مرتين . كل ذلك يرجع إلى . لا تغضب .

وقال أبو هريرة : قال النبى ﷺ . ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب . متفق عليه .

وفى الأثر عن ذى القرنين أنه لقى مَلَكا من الملائكة . فقال : علمنى علما أزداد به إيمانا ويقينا . قال : لا تغضب . فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب .

وليس معنى ذلك أن يصل الأمر بالمرء إلى عدم الغضب نهائيا . فهذا تفريط إذ لابد أن يغضب المرء حينما ترتكب المعاصى أمامه . إذ عليه فى هذه الحالة أن يغضب لله وينهى عن المنكر .

إلا أن الإفراط فى الغضب مذموم* لأنه يخرج المرء عن سياسة التعقل ولا يبقى للمرء معه بصيرة أو فكر . وتسيطر عليه غريزة الانتقام والتشفى . والغضب قد يظهر أثره فى اللسان فينطلق بالشتم والفحش فى الكلام . وقد يظهر أثره على الأعضاء فيجنح إلى التهجم والضرب أو الجرح والقتل . وقد يظهر أثره على القلب فينتج الحقد والحسد والشماته وإضمار السوء والاستهزاء .

عن ابن عمر : قال النبى ﷺ : من كف غضبه ستر الله عورته .

وقال رسول الله ﷺ : الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل . أخرجه الطبرانى والبيهقى . بسند ضعيف .

وقال رسول الله ﷺ . ما غضب أحد إلا أشفى على جهنم . أخرجه البزار وابن عدى من حديث ابن عباس .

---

* إحياء علوم الدين . أبو حامد الغزالى . جـ ٣ ص ١٥٩

وحديث آخر . قال رسوا الله ﷺ . من كف غضبة . كف الله عنه عذابه . وفى رواية أخرى . من مَلَكَ غضبه . وقاه الله عذابه . أخرجة الطبرانى والبيهقى .

وفى حديث آخر . قال رسول الله ﷺ : من كظم غيظا . ولو شاء أن يمضيه لأمضاه . ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا .

وقد مدح الله الكاظمين الغيظ فى قوله تعالى :

« **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس . والله يحب المحسنين** » .

(١٣٤ – آل عمران)

وهكذا كان ذو الكفل مثالا للسيطرة على النفس عند الغضب .

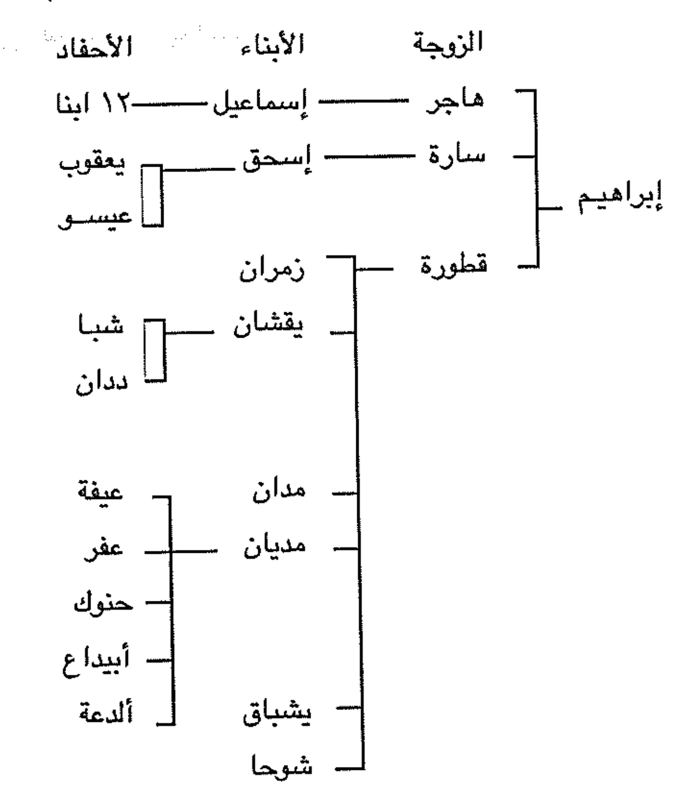
نترك أرض آدوم . وننتقل جنوبا بعض الشىء إلى المنطقة الواقعة شرقى خليج العقبة إلى أرض مدين . حيث بعث نبى الله شعيب عليه السلام .

شعيب عليه السلام

أبناء إبراهيم عليه السلام من قطورة :

سبق أن ذكرنا فى الجزء الثانى (ص ٣٨٦ وشكل ٨١) أن إبراهيم عليه السلام بعد وفاة سارة تزوج من قنطورة أو قنطورا بنت يقطن . واسمها فى التوراة قطورة (إصحاح ٢٥ تكوين) . ويرى خبراء الأنساب أن القطوريين هم أبناء عم جرهم* .

عاشت قطورة مع إبراهيم عليه السلام فى حبرون . وولدت له ستة أبناء : زمران – يقشان – مدان – مديان (مدين) – يشباق – يشوحا . ومن المرجح أنه بعد وفاة إبراهيم عليه السلام – ولم يكن لقطورة أقرباء فى حبرون . فعادت ومعها أبناؤها الستة إلى أرض عشيرتها . فى شمال الحجاز . وشرقى خليج العقبة . وبعد فترة من الزمن . تفرق الأبناء . كل فى جهة – بحثا عن معايش لهم ولأولادهم . ويمكننا أن نستدل على أماكن تفرقهم من شكل ١١٩ .



* تاريخ العرب قبل الاسلام . جواد على جـ ١ ص ٣٢٣

زمران : سكن حول مكة . إذ توجد قبيلة اسمها قبيلة زمراني جنوبي مكة . كما يوجد مكان اسمه زبرام غربي مكة على ساحل البحر الأحمر .

يقشان : من المرجح أنه اتجه جنوبا - إذ يوجد موضع اسمه « وقشة » في عسير . وتوجد قبيلة اسمها « بني وقشة » في الجنوب . كما يوجد مكان في اليمن اسمه « وقش » .

مدان : يوجد بطن قبيلة اسمهم « بنو المدان » قرب جذام في الحجاز .

يشباق : اتجه شمالا . إذ يوجد موضع اسمه « الشبك » على طريق السكة الرومانية الموصلة إلى العقبة .

يشوحا : اتجه أيضا شمالا . وسكن قرب البحر الميت بجوار أدوم . وكان أحد أصدقاء أيوب الذين ترددوا عليه أثناء مرضه يسمى : بلدد الشوحي .

مدين أو مديان : بقي في المنطقة من شمال الحجاز وشرق خليج العقبة وسمى المكان باسمه « أرض مدين » . وأنجب مدين خمسة أبناء هم :

عيفة - عفر - حنوك - أبيداع - ألدعة .

بقيت **عيفة** في أرض مدين نفسها . وكانت قبيلة عيفة معروفة بالتجارة . فكانت تحمل الذهب واللبان من أرض شبا (سبأ) وتبيعها في فلسطين .

أما **عفر** فقد ارتحل جنوبا . ويوجد مكان اسمه « عفار » بين مكة والطائف .

وحنوك ارتحل أيضا باتجاه الجنوب . وتوجد بلدة اسمها « الحنوكية » أو «الحناكية » شرقي يثرب بحوالي ١١٠ كيلو مترا .

وأبيداع : سكن الحجاز .

ألدعة : لا يعرف بالتحديد مكان إقامته* .

نسب شعيب .

هناك خلاف حول نسب شعيب عليه السلام (انظر شجرة النسب ص ٦٤١) .

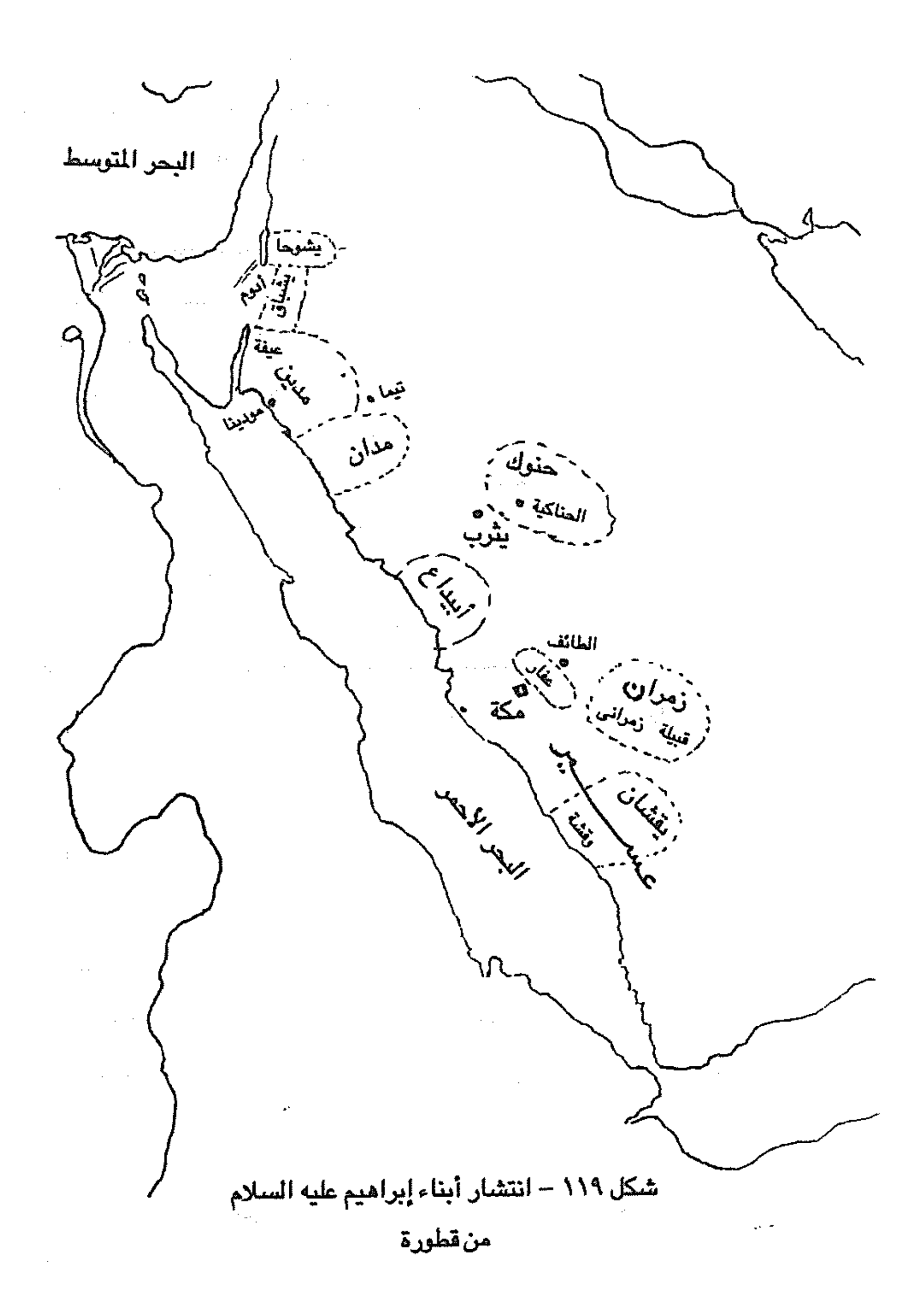
١ - الرأى الأول يقول إن عيفة أنجبت ضيفور الذى أنجب شعيبا . على سلسلة النسب هذه يكون شعيب سابقا لموسى بثلاثة أجيال ويستحيل أن يكون شعيب النبى هو حمو موسى .

٢ ـ بعض النسابين يرى أن مديان أنجب مدين ثم نابت ثم ضيفور ثم عيفة ثم شعيبا . فتكون ابنة شعيب من نفس جيل موسى . ويكون شعيب النبى هو حمو موسى .

ولكن لو كان ذلك صحيحا لكان جديرا بالذكر فى حديث رسول الله ﷺ : فقد سئل عن

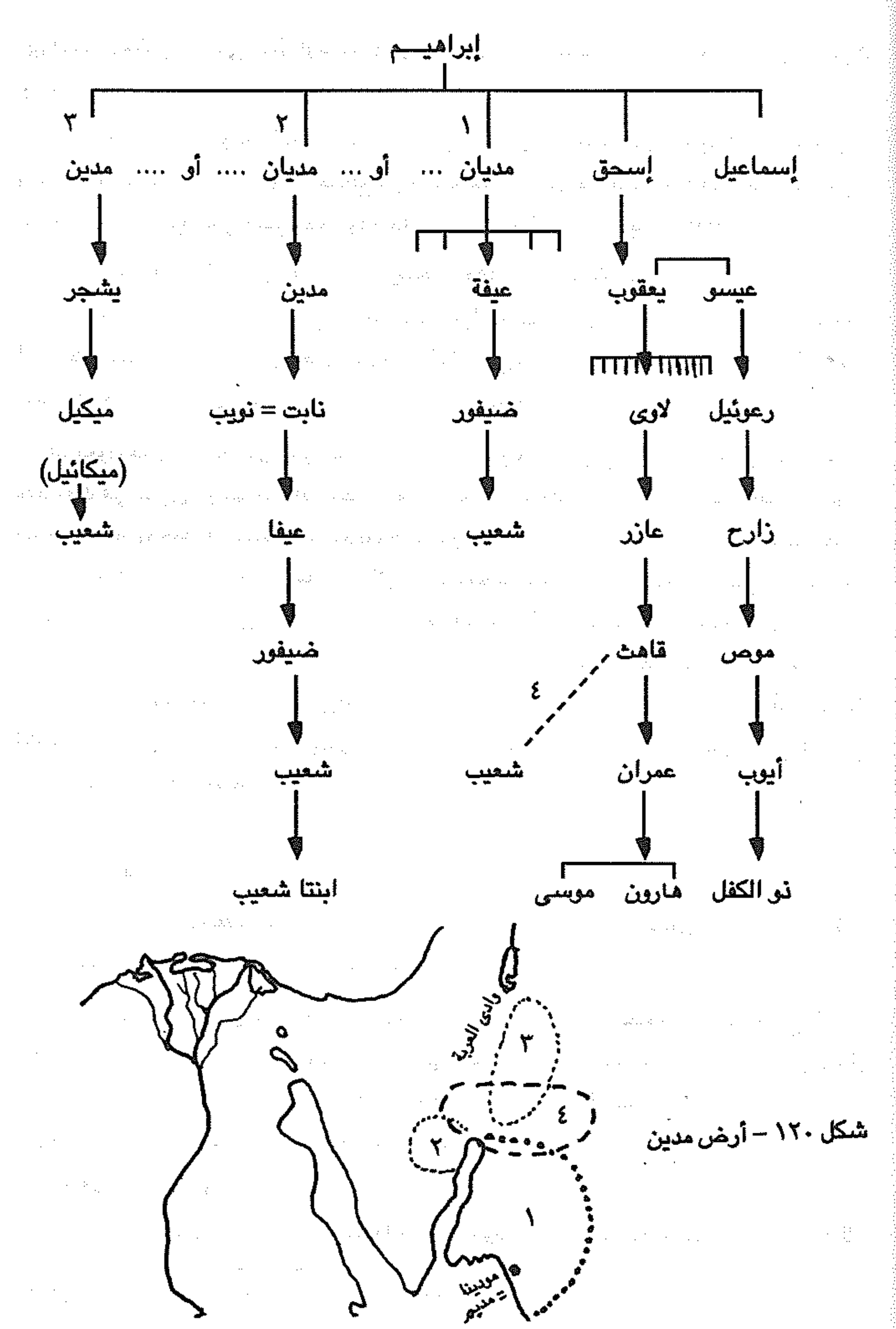
---

* تاريخ العرب قبل الاسلام . جواد على جـ ١ ص ٣٢٧



شكل ١١٩ - انتشار أبناء إبراهيم عليه السلام

من قطورة



شكل ١٢٠ – أرض مدين

أى الأجلين قضى موسى فقال أوفاهما وأبرهما . أى عشر سنوات . ولكان قد زيد فى الحديث جملة تشير إلى أن حما موسى هو شعيب النبى .

وعليه فإن الرأى هو أن شعيب النبى قد سبق موسى بثلاثة أجيال ولم يكن حما موسى . والأرجح أن حما موسى هو رجل صالح من قوم شعيب أو ولى من أولياء الله الصالحين من ذرية شعيب وسُمِّى شعيبا على اسم جده . وهو ما أشارت إليه التوراه بأنه يثرون الكاهن .

٣ – بعض الكتب تذكر أن مدين أنجب يشجر . وهذا أنجب ميكيل والد شعيب .

٤ – أما القول إن شعيب النبى هو ابن عم عمران والد موسى فهو قول ضعيف . إذ لو كان الأمر كذلك لما جاز للتوراة أن تغفل ذكره كلية وتكتفى بالقول بأنه كاهن مدين . كما لا يوجد تفسير لتركه عشيرته فى مصر وذهابه إلى مدين ليصبح كاهنها !

قد يقول قائل إن تجاهل التوراة لشعيب النبى سببه أن بنى إسرائيل لم يدروا به أصلا . فقد بُعث فى مدين . وبنو إسرائيل كانوا فى مصر فى موقف عصيب بعد طرد الهكسوس . وعيون أحمس وخلفائه تحاصرهم فلم يدروا به . ولكن إقامة موسى عليه السلام فى مدين عشر سنوات وزواجه من ابنة كاهن مدين – لابد كانت تجعله يعلم شيئا عن هذا النبى – الذى هو أقرب الأنبياء إلى موسى . فلا بد أن التوراة الأصلية كان بها خبر عن شعيب وعن قومه وتكذيبهم له وما حل بهم من عذاب . فإن أرض مدين لا تبعد كثيرا عن الأرض التى كان بها أيوب عليه السلام. وقد أفردت التوراة لأيوب سفرا كاملا من ٤٢ إصحاحاً . فلا بد أن التوراة الأصلية كان بها شيىء عن شعيب وما حل بقومه . ولكن عند إعادة كتابة التوراة فى السبى سقط هذا الجزء أو أسقط !

أرض مدين :

مدين قوم شعيب عليه السلام . وهناك خلاف – ولو أنه بسيط – حول المكان الذى كانوا يقيمون فيه (شكل ١٢٠ – فى الصفحة السابقة) .

١ – أرجح الأقوال أن أرض مدين تقع فى الجزء الشمالى من الحجاز شرقى خليج العقبة وبالتحديد شرق وجنوب شرق الطرف الشمالى لخليج العقبة . وكان يمر بها أهم طرق النقل التجارى من الشام وفلسطين إلى غرب الجزيرة العربية واليمن . وقد سبق أن ذكرنا (ص ٤٥٠) أن قافلة المديانيين هم الذين التقطوا يوسف من الجب وباعوه بعد ذلك لقافلة الإسماعيليين الذين بدورهم باعوه فى مصر .

وقد ذكر بطليموس الجغرافى* موضعا إسمه « مودينا » على ساحل البحر الأحمر . وكذلك

* تاريخ العرب قبل الاسلام . جواد على . جـ ١ ص ٤٥٥ .

يذكر يوسيبيوس** مدينة اسمها « مديم » شرقى البحر الأحمر .

٢ – يرى البعض أن مدين تمتد لتشمل أجزاء من شمال شرق سيناء .

٣ – يرى آخرون أن مدين تقع قريبا من البحر الميت . وتمتد من خليج العقبة إلى مؤاب . شرقى وادى العربة .

٤ – بينما يرى آخرون أن مدين تشمل المنطقة شمال طرف خليج العقبة وتمتد شرقا وشمال شرق وتمتد أيضا غربا .

شعيب عليه السلام :

جاء ذكرشعيب عليه السلام فى القرآن الكريم فى ثلاث سور : ولكن بنفس اللفظ . بقوله تعالى :

« وإلى مدين أخاهم شعيبا » . (٨٥ – الأعراف . ٨٤ – هود . ٣٦ – العنكبوت)

ويضع القرآن الكريم شعيبا فى الترتيب الزمنى بعد لوط . إذ أن شعيبا يحذر قومه مصير قوم لوط فيقول :

« ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح . وما قوم لوط منكم ببعيد » . (٨٩ – هود)

وهكذا ذكر لهم شعيب الأقوام السابقة بترتيبهم : نوح – هود – صالح ثم لوط . وذكر لوط منفردا . ونُصَّ على أنه لم يكن منهم ببعيد ويقول ابن كثير : أى بعيداً فى المكان ويحتمل فى الزمان أيضا . وبهذا يقول الألوسى . أى وما قوم لوط فى زمان بعيد أو مكان بعيد ولو نظرنا إلى شكل ١٢٠ – لوجدنا أن أرض مدين قريبة من الطرف الجنوبى للبحر الميت . حيث توجد مدن السهل الخمس . مدن قوم لوط (انظر الجزء الثانى ص ٣٠٩ – ٣١٠) . فهى مسافة لا تزيد عن ٢٠٠ كيلو مترا – كذلك فإن الفارق الزمنى يبلغ حوالى ٢٥٠ عاما أو أقل قليلا .

وفى سورة الأعراف . جاء ذكر مدين وشعيب فى الآية ٨٥ . ثم جاء قوله تعالى فى الآية ١٠٣ – « ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا » . وثم . تعنى الترتيب مع التراخى . وقد كان الزمن بين شعيب وموسى عليهما السلام يبلغ حوالى ٣٩٠ عاما .

مدين وأصحاب الأيكة :

ذكرنا قوله تعالى فى سور الأعراف وهود والعنكبوت :

** دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم . د . محمد بيومي مهران . جـ ٨ ص ٥٦٠ .

« وإلى مدين أخاهم شعيبا » .

وجاء قوله تعالى فى سورة الشعراء :

« كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون » .

(١٧٦ – الشعراء)

وفى سورة الحجر .

« وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين . فانتقمنا منهم » .

(٧٨ – الحجر)

وقد ظن بعض المفسرين أن مدين قوم غير أصحاب الأيكة . وقالوا بعث شعيب إلى الثانية بعد ما فرغ من الأولى . والأرجح أن أصحاب الأيكة اسم آخر لمدين . ذلك أن شعيبا يأخذ على أولئك ما يأخذ على هؤلاء . يأخذ عليهم خسرانهم الكيل والميزان وبخسهم الناس أشياءهم . وعثوهم فى الأرض مفسدين .

فقد جاء قوله تعالى فى سورة الأعراف :

وإلى مدين أخاهم شعيبا . قال يا قوم اعبدوا الله . مالكم من إله غيره . قد جاءتكم بينة من ربكم . فأوفوا الكيل والميزان . ولا تبخسوا الناس أشياءهم . ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها . ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا . واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم . وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين » . (٨٥ – ٨٦ – الأعراف)

كما جاء قوله تعالى عن أهل مدين فى سورة هود :

« وإلى مدين أخاهم شعيبا . قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره . ولا تنقصوا المكيال والميزان . إنى أراكم بخير . وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط . ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » . (٨٤ – ٨٥ – هود)

وجاء قوله تعالى فى سورة الشعراء :

« كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس

المستقيم . ولا تبخسوا الناس أشياءهم . ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » .
(١٧٦ - ١٨٣ - الشعراء)

فنرى وحدة المرسل إلى مدين وأصحاب الأيكة . وما نهى عنه هنا . هو نفس ما نهى عنه هناك . مما يدل على أن مدين هم نفسهم أصحاب الأيكة . ولعل الذين قالوا إن مدين غير أصحاب الأيكة استندوا إلى أن القرآن الكريم قد فرّق فى اللفظ بين عذاب أصحاب مدين وعذاب أصحاب الأيكة . فقال فى شرح عذاب مدين :

« ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا . وأخذت الذين ظلموا الصيحة . فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » .

(٩٤ - هود)

وقال كذلك :

« وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون . فأخذتهم الرجفة . فأصبحوا فى دارهم جاثمين » . (٩٠ - ٩١ الأعراف)

أما أصحاب الأيكة فقال الله فيهم :

« فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة . إنه كان عذاب يوم عظيم » .

(١٨٩ - الشعراء)

وفى سورة الحجر ذكروا دون تحديد نوع العذاب :

« وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين . فانتقمنا منهم » . (٧٩ - الحجر)

ولكن ذلك مجرد اختلاف فى التعبير عن العذاب . إلا أنه فى حقيقته عذاب واحد . ولقد سبق أن ذكرنا فى قصة صالح . وقومه ثمود (الجزء الأول ص ١٦٩) ما وصف به العذاب الذى وقع بهم . عبر عنه مرة بالصيحة ومرة بالرجفة وثالثة بالصاعقة ومرة رابعة بالطاغية . وبيّنا أنها كلها تعنى شيئا واحداً . وهو أمر الله بإنزال العذاب بهم .

وكذلك فإن العذاب الذى وقع بأهل مدين ووصف مرة بالصيحة . ومرة بالرجفة . هو نفسه عذاب يوم الظلة الذى وقع بأصحاب الأيكة . وصف أولا على حسب أثره على السمع . فهو صيحة . ووصف بما أحدثه فى الجسم من اهتزازات . أى رجفة . ثم بما تراه العين من إظلام المكان بالنهار . فهو يوم الظلة .

ويأخذ الألوسى فى تفسيره* بأن مدين غير أصحاب الأيكة . إذ يقول : الأيكة هى الغيضة

---

* تفسير الألوسى جـ ١٩ - ص ١١٧ .

التى تنبت ناعم الشجر أى الأجمة . (والأيك هو الشجر الكثير الملتف – مختار الصحاح طبعة ١٩٩٥ ص ١٤) . وهى غيضة من ساحل البحر إلى مدين يسكنها طائفة وكانوا ممن بعث إليهم شعيب . وكان أجنبيا عنهم . ولذلك قيل « إذ قال لهم شعيب ألا تتقون » . ولم يقل أخوهم فى حين كان يقال دائما « وإلى مدين أخاهم شعيبا » . ويختم الألوسى بقوله : ومن غريب القول عن ابن عباس أن أصحاب الأيكة هم أصحاب مدين .

إلا أن ابن كثير* يقول بأن أصحاب الأيكة هم أهل مدين . ولم يقل فى سورة الشعراء « أخوهم شعيب » لأنهم نسبوا فى هذه الآية إلى عبادة الأيكة . ولهذا نفى صفة الأخوة بينهم . وإن كان هناك صلة بالنسب . ويقول ابن كثير : ومن الناس من لم يفطن لهذا فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين فزعم أن شعيبا عليه السلام بعثه الله إلى أمتين . وقد روى إسحق عن آخرين (وصف ابن كثير أحدهم بأنه ضعيف) عن عكرمة قوله . ما بعث الله نبيا مرتين إلا شعيبا . مرة إلى مدين فأخذهم الله بالصيحة . ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله تعالى بعذاب يوم الظلة . وروى الحافظ ابن عساكر عن آخرين عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبا النبى عليه السلام . ويقول ابن كثير . وهذا غريب . وفى رفعه نظر . والأشبه أن يكون موقوفا . والصحيح أنهم أمة واحدة . وصفوا فى كل مقام بشىء . ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان كما فى قصة مدين سواء بسواء فدل ذلك على أنهما أمة واحدة .

شعيب في قومه :

كان أهل مدين أهل تجارة . وقد سبق ذكر قوافل المديانيين التى كانت تقوم بالتجارة بين الشام وفينيقيا – وبين الحجاز واليمن عبر فلسطين (ص . ٤٤٣) . ومن الآيات التى ذكرت فى ص ٦٤٤ يمكننا أن نستخلص الآفات التى كانت متفشية فيهم كالآتى :

١ – أنهم كانوا يعبدون غير الله تعالى .

٢ – كانوا يطففون المكيال والميزان . وينقصونه وبذلك كانوا يبخسون الناس أشياءهم .

٣ – كانوا يقطعون الطريق ويأخذون أموال الناس ظلما .

٤ – كانوا يصدون من كان يريد الإيمان ويتوعدونهم .

دعاهم شعيب إلى ما دعاهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة . وكان النبى ﷺ – كما أخرج ابن عساكر عن ابن عباس – إذا ذكر شعيب يقول : ذلك خطيب الأنبياء . لحسن مراجعته قومه . أى محاورته لهم .

---

* تفسير ابن كثير جـ ٣ ٣٤٥ .

١ - كانوا يعبدون غير الله تعالى :

والحقيقة أن المنطقة كلها كانت تعبد الأوثان . بابل وآشور فى العراق وسوريا والفينيقيون وأرض كنعان كلها كانت تعبد الأصنام . « مردوك » و« بعل » و« سين » و« عشتار » . وكانت أرض مدين بين هؤلاء الأقوام . وتدين بدياناتهم . فدعاهم شعيب إلى عبادة الله وحدة ونبذ عبادة الأصنام .

« قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » . (٨٥ - الأعراف - ٨٤ - هود)

وقال لهم إنه رسول الله إليهم

« إذ قال لهم شعيب ألا تتقون . أنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون » (١٧٧ - ١٧٩ - الشعراء)

وسبق أن قلنا (الجزء الثانى ص ٢١٤) إن هذه المناطق لم تكن تعتقد فى بعث أو فى حياة آخرة . فالجسد مقره القبر حتى يبلى . والروح تنتقل إلى عالم سفلى . هو عالم الأرواح تخلد فيه ولا عودة منه . وهنا بين لهم شعيب أن هناك حياة آخرة . ويوم آخر تعود فيه الأرواح إلى الجسد ويبعث الناس ليحاسبوا على أفعالهم . وعليهم أن يرجوا الثواب فى اليوم الآخر . أو يكون الرجاء بمعنى تخوف العقاب وانتقام الله تعالى :

« فقال يا قوم اعبدوا الله . وارجوا اليوم الآخر » .

(٣٦ - العنكبوت)

وليدلل على صدق كلامه وأنه نبى مرسل من الله سبحانه وتعالى . جاءهم بمعجزة وإن لم تُذكر ماهية هذه المعجزة . وإنما أشار الله إليها فى قوله :

« قد جاءتكم بينة من ربكم » . (من الآية ٨٥ - الأعراف)

والمعجزة كانت شاهدة بصحة نبوتة وتوجب عليهم الإيمان . ومن الناس من قال بأن المراد بالبينة الموعظة وقوة الحجة . ولكن ذلك غير مقبول إذ أن الموعظة تكون من شعيب نفسه . أما المعجزة فقد قيل عنها « **بينة من ربكم** » مما يجزم بأنها كانت معجزة من الله . بعضهم زعم أنها كانت عصا آدم عليه السلام وقد آلت إلى شعيب . وأنها دافعت عن غنمه إذ هاجمها تنين* !! وأن هذه العصا كانت تأتى بالمعجزات وهى التى آلت فيما بعد إلى موسى عليه السلام . ولا يخفى ما فى هذه الأقوال من تهافت . والأولى ترك ماهية المعجزة مادام القرآن الكريم لم يوضحها .

---

* تفسير الألوسى . جـ ٨ ص ١٧٦ .

وهكذا دلل بمعجزة – وبآية بينة على صدق ما يقول عن إخباره عن الله سبحانه وتعالى وعن اليوم الآخر . والمعنى أن يتأكدوا من وقوع ذلك اليوم . وما فيه من حساب ليكون هذا حافزا لهم ليؤمنوا وليعملوا ما ينجيهم من العذاب . كما أخبرهم أنه لا يطلب منهم أجرا . فقد يقولوا إن هذا الأجر أعجزهم ولذلك لم يستطيعوا تلبية ما طلب منهم . فهو يقرر لهم أنه لا يطلب أجرا على هدايتهم . بل إن أجره على الله . فهو ربه ورب العالمين .

« وما أسألكم عليه من أجر . إن أجرى إلا على رب العالمين » .

(١٨٠ – الشعراء)

كان هذا هو الأمر الأول الذى دعاهم إليه : عبادة الله وحده .

٢ – ثانى آفاتهم أنهم **كانوا يبخسون الناس أشياءهم** . ولا يعطونهم حقهم . فقد كانوا ينقصون المكيال والميزان . كانوا ينقصون من حجم المكيال الذين يكيلون به الحبوب وينقصون من صنجات الميزان فنهاهم عن ذلك وأمرهم بألا ينقصوا المكيال والميزان . بل يوفوا الكيل . ويزنوا بالعدل والقسطاس .

« فأوفوا الكيل والميزان . ولا تبخسوا الناس أشياءهم » .

(من الآية ٨٥ – الأعراف)

« ولا تنقصوا المكيال والميزان . إنى أراكم بخير . وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم . ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين . وما أنا عليكم بحفيظ » . (٨٤ – ٨٦ – هود)

« أوفوا الكيل . ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس المستقيم . ولا تبخسوا الناس أشياءهم » . (١٨١ – ١٨٣ – الشعراء)

وقال لهم إن ما أبقاه الله لهم من الحلال هو خير لهم مما يجمعون بالبخس « **بقية الله خير لكم** » فالجمع بالبخس حرام لا خير فيه وإن كثر . والكسب الحلال . وإن كان فى نظرهم قليل . إلا أنه خير لهم لأن الله يبارك فيه . وأخبرهم أنه ليس حفيظا عليهم يحصى عليهم أعمالهم . بل الله هو الذى يحصى أعمالهم عليهم وسيجازيهم بها .

٣ – ثالث آفاتهم أنهم **كانوا يفسدون فى الأرض** ويعيثون فيها فسادا . كانوا يقطعون الطريق . قال السدى وغيره . كانوا عشارين . يأخذون العشر من أموال الناس . ويتوعدون الناس بالقتل إذا لم يعطوهم جزءا من أموالهم .

٤ – كذلك **كانوا يصدون عن سبيل الله** . قال مجاهد وابن عباس وغيرهما . كانوا يتوعدون الذين يقصدون شعيبا ليؤمنوا به . فيصدونهم عن سبيل الله فكأنهم مثل الشيطان إذ قال : لأقعدن لهم صراطك المستقيم . فالطريق أو الصراط هنا معنوى . أى طريق الإيمان . فيصدون عن سبيل الله من يريد الإيمان . فكانوا يتهمون شعيبا بشتى التهم . يقولون عنه إنه كذاب أو مجنون أو غير ذلك . ويتوعدون الذين آمنوا حتى يفتنوهم عن دينهم ويردوهم إلى الكفر وإلى الطريق المعوج . فهم يريدون الطريق المعوج أى « يبغونها عوجا » .

وكانوا يقولون لمن يريد اتباعه

« وقال الملأ الذين كفروا من قومة لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون».
(٩٠ – الأعراف)

ثم طلب منهم أن يتذكروا كيف كانوا قلة . ولكن الله بارك لهم فكثر عددهم . وقيل كانوا فقراء فبارك لهم فكثرت أموالهم وصاروا أغنياء . ثم ذكرهم بما آل إليه الذين كذبوا أنبيائهم من قبل مثل أقوام : نوح وعاد وثمود ولوط عليهم السلام .

« ولا تقعدوا بكل صراط توعدون . وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين » .
(٨٦ – الأعراف)

وقال لهم اتقوا الله الذى خلقكم . وخلق الأقوام الذين كانوا قبلكم . والجبلَّة الأولين . وعن ابن عباس أن الجبلَّة هم الجماعة إذا كانت عشرة آلاف . وشبهت بالقطعة العظيمة من الجبل – الجبلة – وقيل الجماعة العظيمة مطلقا .

« واتقوا الذى خلقكم والجبلَّة الأولين» .
(١٨٤ – الشعراء)

عز عليهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم من أوثان وأصنام . وسألوه سؤال استنكار .

« قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا . أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء . إنك لأنت الحليم الرشيد » .
(٨٧ – هود)

وغرضهم هنا إنكار أنه موحى إليه من الله تعالى . بل وبالغوا بإنكار أن يكون هذا الأمر متفقا مع العقل . ولم يقولوا مثلا هل الصلاة تأمرنا بكذا . بل نسبوا الصلاة إليه وقالوا أصلاتك . كأنها صلاة من عنده هو وليست وحيا من الله – وأنها صلاة له . ملزمة له وحده وتأمره هو وحده لاهم . فلا تلزمهم بأن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم . ولا أن يطيعوه فى ما يأمرهم به من ناحية مالهم سواء من ناحية اكتسابه أو أوجه صرفه . ثم يطلبون منه أن يحتكم إلى العقل

والمنطق . فقالوا إذا كنت حليما رشيدا – فهل صلاتك أنت ملزمة لنا نحن ؟ وغرضهم أن هذا ليس من الحلم ولا من الرشد .

وقيل وكان تخصيصهم الصلاة بالذات لأنه عليه السلام كان كثير الصلاة وكان معروفا بذلك . وأخرج ابن عساكر عن الأحنف أن شعيبا عليه السلام كان أكثر الأنبياء صلاة . وكانوا إذا رأوه يصلى يتغامزون ويتضاحكون . البعض قال إن الصلاة كانت مفروضة عليه هو . ولم تكن من الأمور المكلف بها أحد من أمته . كما لم تكن فى شريعته زكاة . ولا نرى هذا الرأى . فما من نبى إلا وهو قدوة لقومه . إلا أن الأنبياء . لقربهم من الله . يأتون من الصلاة والعبادات – مالا يأتيه غيرهم . كذلك لا يشترط أن تكون هناك زكاة مثل ما علينا من زكاة . بل لابد أن صرف المال فى أوجه الخير هو من القواعد العامة مثل إطعام المسكين والفقير واليتيم وإعانة المحتاج وغير ذلك . وهى من الأمور التى كان يدعو إليها . ولكنهم لجأوا إلى السخرية والاستنكار . أى مادام بهذا الحلم والرشد فكيف يتدخل فى الطريقة التى يتصرفون فيها بأموالهم .

ثم اتهموه بأنه من المسحَّرين أى الذين بلغ السحر فيهم مبلغه حتى غلب علي عقله . وأنهم يرونه بشرا مثلهم . وقصدهم أنه مادام بشرا مثلهم . فما يقوله مخالفا لأقوالهم . وما يفعله مخالفا لأفعالهم . ما هو إلا نوع من السحر تلبّسه . وليس نبوة . وقالوا بل إننا نظن أنك تكذب علينا فى هذا الإدعاء .

« قالوا إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين » . (١٨٥ – ١٨٦ – الشعراء)

ورد عليهم بقوله: ما ظنكم ورأيكم إن كنت حقيقة نبى . وعلى بينة وحجة ظاهرة من ربى . ورزقنى من لدنه رزقا حسنا وهو النبوة والحكمة . وأنتم وصفتمونى بالحلم والرشد . فهل يجوز لى – أن آمركم بشىء وأفعل غيره . سواء فيما آمركم به من ترك عبادة الأصنام أو فى طرق اكتساب المال . كأن أنهاكم عن التطفيف فى الكيل والميزان وأفعله أنا من ورائكم . وكل ما أريده هو أن أصلح أموركم بقدر استطاعتى . والتوفيق فى هذه المهمة من الله . فأنا أتوكل عليه وأرجع إليه . وفى هذا تخويف لهم أيضا لأن رجوعه إلى الله يعنى استعانته به عليهم وعلى موقفهم الرافض له . والله سبحانه وتعالى سيكفيه أمرهم .

« قال يا قوم . أرأيتم إن كنت على بينة من ربى . ورزقنى منه رزقا حسنا . وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه . إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت . وما توفيقى إلا بالله . عليه توكلت . وإليه أنيب » .

(٨٨ – هود)

كما طلب منهم ألا يجعلوا عداوتهم له . وشقاقهم معه . وأصلها أن المتعادين يكون أحدهم

فى شق والآخر فى شق ثان . فهم فى شقاق . فلا تجعلوا عداوتكم لى تنسيكم ما حاق بالأقوام السابقة الذين كذبوا أنبياءهم مثل قوم نوح وقوم هود وقوم صالح . وإن أقرب هؤلاء الأقوام منكم هم قوم لوط . زمانا ومكانا .

« ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود . أو قوم صالح . وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه . إن ربى رحيم ودود » . (٨٩ - ٩٠ - هود)

ثم طلب منهم أن يستغفروا ربهم . ثم يتوبوا إليه مما كانوا يعملون من ذنوب . والمعنى أنهم لو فعلوا ذلك فلن يصيبهم مثل ما أصاب الأقوام الذين ذكرهم . لأن الله رحيم . عظيم الرحمة . ودود . كثير الود . يجب من يتوب إليه ويرجع إليه .

كان ردهم عليه هو أن قالوا إننا لا نفهم ما تقول . استهانة به - كما يقول الرجل لمن لا يعبأ به : لا أدرى ما تقول . وقالوا له : ثم إنك فينا ضعيف ولولا جماعتك وأهلك ومعزّتهم علينا لقتلناك رميا بالحجارة . أو ضربناك بالحجارة حتى تخرج من أرضنا . وما أنت بأقوى أو أعز من أن ننفذ فيك ما نقول .

« قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول . وإنا لنراك فينا ضعيفا . ولولا رهطك لرجمناك . وما أنت علينا بعزيز » . (٩١ - هود)

فقال لهم : هل تعملون حسابا لرهطى وجماعتى . ولا تعملون حسابا لله سبحانه وتعالى . وتقولون أنكم لا ترجمونى تقديرا لأهلى والله هو الأحق أن تجعلوا له حسابا ولكنكم نسيتم الله تعالى . وجعلتموه وراء ظهوركم . مع أن الله هو المطلع على أعمالكم وهو المحيط بكل أفعالكم السيئة .

« قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله . واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربى بما تعملون محيط » . (٩٢ - هود)

بدأت الأمور بين شعيب وقومه تتأزم . فبدلا من الجدال بالحجة . كانوا هم البادئين بالتهديد . هددوا بالرجم . وأنهم فقط - مراعاة لأهله - لم ينفذوا تهديدهم . ومعناه أنهم قد ينفذونه فى المستقبل . ورداً على هذا التهديد . كان لابد من تهديد مثله يردعهم : فقال لهم : فلتبقوا إذن على ما أنتم عليه . ولتظلوا على أفعالكم . وحالكم المعوج فى معاملاتكم . وأنا سأظل على حالى من الإيمان بالله والطريق المستقيم الذى أنا عليه . وكأنهم سألوا : وماذا سيحدث حينئذ ؟ فكان جوابه : فسوف تعلمون وحذفت الفاء . أو كأنه قال : حينئذ سوف تعلمون من يأتية عذاب شديد يجعله فى خزى . وسوف تعلمون من هو كاذب أنا أم أنتم - وطلب منهم أن ينتظروا ويترقبوا . أى ينتظروا نزول العذاب بهم ليعرفوا أنه هو الصادق . ويترقبوا حدوث ما يقوله لهم . وهو أيضا منتظر معهم .

« ويا قوم اعملوا على مكانتكم . إنى عامل . سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزية ومن هو كاذب . وارتقبوا إنى معكم رقيب » . (٩٣ - هود)

وكان بعض القوم قد آمنوا بشعيب . وبعض آخر - وهم الغالبية - لم يؤمنوا . فطلب منهم أن ينتظروا حتى يحكم الله بين الطائفتين . وهو تهديد ووعيد . لأن الله هو الحق . وهو خير حكم. وسينصر الفئة التى على الحق وهى التى آمنت به - ولا حيف فى حكم الله . فهو خير الحاكمين .

« وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به . وطائفة لم يؤمنوا . فاصبروا حتى يحكم الله بيننا . وهو خير الحاكمين » . (٨٧ - الأعراف)

وبدلا من أن يخافوا أو تخشع قلوبهم لما سمعوه يحتكم إلى الله . وهو خير الحاكمين . إذا بالفئة المستكبرة الكافرة تأخذهم العزة بالإثم ويتطاولون على شعيب والذين آمنوا معه فيهددونهم بالإخراج من بينهم ومن القرية كلها . أو إن كانوا يريدون البقاء فليعودوا إلى ملة الفئة الكافرة . وكان جوابه أنه قال لهم : وكيف نعود لملتكم ونحن كارهون لها . ولو عدنا إليها بعد أن علمنا بطلانها وبعد أن نجانا الله منها فإننا نرتكب إثما عظيما فى حق الله . وهو مالا نقدر على فعله. ولا يليق بنا أن نعود فى ملتكم بأى حال من الأحوال . وعلى كل فهذا متعلق بمشيئة الله هو الذى بيده كل شىء وعلمه يشمل كل شىء . وهذا القول يتضمن استحالة العودة إلى ملتهم الكافرة لأن الله هو الذى نجاهم منها إلى الإيمان . وهم قد أوكلوا أمرهم إلى الله . ثم توجه شعيب إلى الله تعالى وطلب منه أن يحكم بينه . وبين قومه الذين لم يؤمنوا به - ويحكم بينهم بالحق . لأن الله هو خير الحاكمين .

« قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنّ فى ملتنا . قال : أو لو كنا كارهين . قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها . وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا . وسع ربنا كل شىء علما . على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق . وأنت خير الفاتحين » .

(٨٨ - ٨٩ - الأعراف)

وقال البعض* إن الضمير فى قوله : « وما يكون لنا أن نعود فيها » راجع إلى القرية . بمعنى أننا سنخرج من قريتكم ولا نعود فيها إلاَّ أن يشاء الله بما ينجزه لنا من الوعد فى أن نظهر عليكم . أو يردكم الله إلى الحق فتؤمنوا . وهذا التفسير ليس بصحيح لأن كلمة العودة

---

* تفسير الألوسى جـ ٩ - ص ٤ .

تكررت مرتين قبل ذلك وفيها النص على أن العودة هى إلى الملة : « **أو لتعودن فى ملتنا** » و « **إن عدنا فى ملتكم** » . فلا شك أن الثالثة « **وما يكون لنا أن نعود فيها** » هى بمعنى العودة إلى الملة أيضا لا إلى القرية .

وقال فريق آخر من الكافرين ، ليسوا هم كبار القوم الذين استكبروا ، قالوا لعامة الشعب . تنفيرا لهم وتثبيطا لهم عن الإيمان بشعيب بعد أن لمسوا صلابة موقفه . وخافوا أن يتأثر به باقى الناس ويتابعونه . فقالوا يخوفونهم . إنهم إن اتبعوا شعيبا وفارقوا ملة أبائهم سيكونون خاسرين . يخسرون ما يحصلون عليه من ربح من التطفيف فى الكيل والوزن . أو يخسرون بإخراجهم من القرية كما سبق التهديد بذلك .

« **وقال الملأ الذين كفروا من قومه . لئن اتبعتم شعيبا . إنكم إذا لخاسرون** » . (٩٠ - الأعراف)

بلغ التحدى ذروته . فتحدوه أن يوقع بهم عذابا كما هددهم . فبعد أن قالوا له إنه من المسحرين . وأنه بشر مثلهم . كما يظنون أنه من الكاذبين . من هنا كانت جرأتهم فى أن يطلبوا منه أن يسقط عليهم كسفا من السماء أى قطعا من السماء . إذ كانوا يظنون أنه لن يستطيع تنفيذ تهديده لهم بوقوع عذاب بهم .

« **فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين** » . (١٨٧ - الشعراء)

وهذا يشبه ماقالته قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

« **أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا** » . (٩٢ - الإسراء)

هكذا طلب قوم شعيب منه أن ينزل عليهم عذابا من السماء . وهنا . مثل كل الرسل السابقين . لم يجزم شعيب عليه السلام بوقوع العذاب . بل أرجع ذلك إلى مشيئة الله تعالى . فهو أعلم بهم . وأعلم بما يفعلون . وإن كانوا مستحقين العذاب فسينزله بهم حسبما تقتضى إرادة الله . وفى الوقت الذى يقدره وبالكيفية التى يراها . ولعلهم ظنوا أنه بهذه الإجابة يتهرب من تهديده لهم بنزول العذاب بهم .

ونرى ذلك يتكرر مع غيره من الرسل .ففى قصة نوح عليه السلام تحدوه بإنزال العذاب بهم إن كان من الصادقين فأرجع ذلك الأمر إلى الله :

« **قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا . فأتنا بما تعدنا . إن كنت من الصادقين . قال . إنما يأتيكم به الله إن شاء** » . (٣٢ - ٣٣ هود)

وفى قصة هود عليه السلام كان نفس الشيئ

« قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا. فأتنا بما تعدنا . إن كنت من الصادقين . قال إنماالعلم عند الله » . (٢٢ - ٢٣ - الأحقاف)

وتكرر نفس الشيء مع شعيب عليه السلام

« وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين . قال ربى أعلم بما تعملون » .

(١٨٦ - ١٨٨ - الشعراء)

وهكذا الرسل مع أقوامهم . فبالرغم من أنهم قد يهددونهم بأن الله قد ينزل بهم عذابا إن استمروا فى كفرهم . وبالرغم من أن الكافرين يستمرون فى تكذيبهم فيصبحون مستحقين لإنزال العذاب بهم . إلاَّ أن الرسل . يرجعون أمر إنزال العذاب إلى مشيئة الله سبحانه وتعالى . فإن شاء قدر لهم الهداية فى آخر لحظة . وعفا عن سابق تكذيبهم . وإن شاء أنزل بهم ما يراه من عذاب وفى الوقت الذى يختاره .

واستمر قوم شعيب فى تكذيبهم . وكانت إرادة الله أن ينزل بهم العذاب

« فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين » . (٩١ - الأعراف)

« فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين » .

(٣٧ - العنكبوت)

« ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا . وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوافى ديارهم جاثمين » . (٩٤ - هود)

«فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة . إنه كان عذاب يوم عظيم . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » .

(١٨٩ - ١٩١ - الشعراء)

وقد وصف العذاب الذى نزل بهم بالرجفة والصيحة . وعذاب يوم الظلة وقد اجتمع عليهم كل ذلك . فقد أظلتهم سحابة فيها شررمن نار ولهب ووهج عظيم . ثم جاءتهم صيحة من السماء . ورجفة شديدة من الأرض من أسفل منهم فزهقت الأرواح . وخمدت الأجسام فأصبحوا فى دارهم جاثمين . كأن لم يقيموا بديارهم .

روى عن ابن عباس* أن الله أرسل عليهم حراً شديدا فأخذ بأنفاسهم ولم ينفعهم ظل ولا

---

* تفسير الألوسى . جـ ١٩ ص ١١٩ .

ماء فكانوا يدخلون الأسراب والكهوف فيجدونها أشد حرا . فخرجوا إلى البرية . فبعث الله تعالى سحابة فيها ريح طيبة فأظلتهم ووجدوا لها برداً . فنادى بعضهم بعضاً حتى اجتمعوا تحتها . رجالهم ونساؤهم وصبيانهم . فصاح بهم جبريل عليه السلام صيحة عظيمة . ورجفت بهم الأرض والتهبت السحابة نارا فاحترقوا وصاروا رمادا .

وقال ابن كثير* كلها صفات للعذاب الذى نزل بهم ولكن الله تعالى أخبر عنه فى كل سورة بما يناسب سياقها . فى سورة الأعراف **أرجفوا** نبى الله وأصحابه وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم أو ليعودوا فى ملتهم . فقال الله تعالى : فأخذتهم **الرجفة** . فقابل الإرجاف بالرجفة .وأمافى سورة هود فقد **تصايحوا** على نبيهم . فناسب أن تذكر **الصيحة** . وأما فى «سورة الشعراء فقد قالوا « **فأسقط علينا كسفا من السماء** » . فناسب أن يكون العذاب من فوقهم فكان « **عذاب يوم الظلة** » وقال آخرون** ويجوز أنهم اجتمعوا بأيكتهم ليستظلوا من الحر الشديد . فأضرمها الله عليهم ناراً . أوتكون الظلة هى غاشية العذاب الذى حل بهم فأظلَّهم .

فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ميتين . من جثم الطير إذا ألصق بطنه بالأرض . ثم استعير الجاثم للميت لأنه لا يبرح مكانه .

وللتعبير عن عظم الدمار الذى حل بهم . وأهلكهم تماماً هم وجميع ذريتهم . أن الناظر يظن أنه لم يكن بهذا المكان قوم . لأنهم استؤصلوا تماماً . فلم يبق منهم شئ . كأن لم يكونوا بها .

« **كأن لم يغنوا فيها . ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود** » . (٩٥ - هود)

« **الذين كذبوا شعيباً . كأن لم يغنوا فيها . الذين كذبوا شعيبا . كانوا هم الخاسرين** » . (٩٢ - الأعراف)

ونجى الله شعيبا عليه السلام . والذين آمنوا معه . وكان ذلك برحمة من الله سبحانه وتعالى . فلم يصبهم من العذاب شئ .

« **ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا** » .

(٩٤ - هود)

وتولى شعيب عنهم . وانصرف عن هذا المكان وهو يقول . لقد أبلغتكم ما كلفنى الله به من رسالات . وبلغتكم أوامره . ونصحت لكم بما فيه الكفاية . وحرصت على هدايتكم . فلم تنتصحوا وحذرتكم مما سيحيق بكم إن ظللتم فى غيكم سادرين . فلا تنتظروا أن آسف أو آسى على ما حاق بكم . لأنكم كنتم قوما كافرين . لا تقبلون النصح ولاترجعون إلى الحق .

---

* البداية والنهاية جـ ١ ص ١٧٧ .

** الأستاذ رؤوف أبو سعدة . من إعجاز القرآن جـ ١ ص ٢٥١ .

« فتولى عنهم . وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى . ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين » . (٩٣ – الأعراف)

وقيل إن شعيبا بعد هلاك القوم رحل إلى مكة . وظل يتعبد بها حتى مات . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس أنه قال : فى المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما . قبر إسماعيل وقبر شعيب عليهما السلام . أما قبر إسماعيل ففى الحجر . وأما قبر شعيب فمقابل الحجر الأسود . وقيل* إن قبر شعيب عليه السلام يوجد فى بلدة « خيارة » بالقرب من حطين .

وبقى المؤمنون من قوم شعيب . فى المنطقة . وإن كانوا يتجنبون المكان الذى نزل به العذاب . وتكاثروا . وعمرت أرض مدين مرة ثانية . و قيل كان أخو شعيب عليه السلام ممن بقوا . وتسمى أحد أحفاده بإسم جدهم الأكبر شعيب . وقالوا كان فى منطقتهم بئر هى التى استقى منها موسى عليه السلام .

يتبع الجزء الرابع إن شاء الله وبه قصة موسى وهارون عليهما السلام .

* البلدان – ياقوت . جـ ٣ – ص ٢٩٩ .